إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا

بصائر الاطمئنان
في
نواحي الإيمان

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

لأن يهدي الله على يديك رجلاً خير لك من الدنيا وما فيها

لعمرك ما الأبصار تنفع أهلها   إذا لم يكن للمبصرين بصائر

تأليف

رشيد رشدي العابري

دار وحي القلم

تقدمة الناشر

إنَّ الحمدَ لله نحمدُه، ونستعينُه ونسترشدُه، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أنفسِنا ومن سيِّئاتِ أعمالنا، مَن يهدِهِ اللهُ فهو المهتدِ، ومَن يُضلل فلن تجدَ له وليّاً مُرشداً.

حينما نتحدَّث كثيراً عن حاجة المسلمين إلى المال أو القوة، أو الاختصاصات العلمية أو العلاقات الاجتماعية، أو الإدارات الاقتصادية أو السياسية لإقامة النظام الإسلامي؛ تجدنا لا نتحدَّث عن حاجة المسلمين إلى صدق الإيمان بالله سبحانه وتحقيق الصلة به! وخلع كُلِّ ما يُعبَد من دونه، وعن امتثال أمره ونهيه، وتحرّي مرضاتِه سبحانه في كُلِّ عملٍ، وإرادة وجهه الكريم في كُلِّ قصد!! مع أنَّنا إنْ لم نؤمن بالله إيماناً صادقاً، ولم نربط به قلوبنا وعقولنا، ولم ننظر من وراء كُلِّ عملٍ إلى مرضاته؛ لم ننتفع بكُلٍّ ما سوى ذلك، ولم تُفِدْنا كُلُّ الوسائل (مادية كانت أو معنويةٍ) إن صارت في أيدينا.

ارتبطوا بكُلِّ نافعٍ ومفيد...

عيشوا مع الحقِّ والخير...

ومن سمات العَظَمة والرجولة أنْ يعملَ الإنسانُ ما يرفعه ويُعلي من قدره، وليس هناك أسمى من أن يرتبط الإنسان بربِّه، فهو الخالقُ والرازق و...

وإذا ارتبطَ الإنسانُ بخالقِه هانَ كُلُّ شيءٍ في سبيلِ ذلك، ووجدَ الإنسانُ متعة كُبرى وسعادة عُظمى في هذا الارتباط.

وفي هذا الكتاب نجد المؤلِّف قد ضمَّنه: المعتقدات والعبادات، والمُثُل العُليا في الإسلام، وأنَّ الإسلامَ نورُ الله.

وقد رأينا ـ في دار وحي القلم ـ إعادة طبع هذا الكتاب بعد مرور عشرات الأعوام على طباعته، ولكنَّنا ننوِّه على أنَّنا حرصنا أن تكون الطبعة الجديدة كما كانت، إلا أنَّ النسخة التي بين أيدينا والمطبوعة عام ١٩٥٤م ـ للأسف الشديد ـ قد سقط منها من ص(٢٤٥ ـ ٢٥٢) بعنوان: «الإسلام دينُ السلام، الإسلام دين العدل» وما جاء في ذلك من آيات قرآنية، لذلك وجب التنويه عنهما.

آملين من الله سبحانه أن يوفِّقَنا جميعاً للسبيل السويّ، ويهدينا سبل الرشاد.

وآخر دعوانا أن الحمدُ لله ربِّ العالمين.

٢/ ٦/ ٢٠٠٤م — الناشر

بصائر الاطمئنان

في

نواحي الإيمان

الكتاب

بصائر الاطمئنان في نواحي الإيمان

المؤلف

رشيد رشدي العابري

الطبعة

الأولى 1425هـ / 2004م

عدد الصفحات:208

القياس:17×24

الناشر

دار وحي القلم

بيروت، لبنان ص.ب :113/6502 فاكس: 653655(009611)

توزيع

مكتبة وحي القلم

دمشق، سورية ص.ب:30297 فاكس:2455738(0096311)

هاتف: 396818(0096393) - 599398(0096393)

E-mail:info@alkalam-sy.com – Site:www.alkalam-sy.com

أشرف على الإخراج الفني والتنفيذ الطباعي

مؤسسة قرطاج دمشق ص.ب:30297 - هاتف: 396818(0096393)

سليم محمد دولة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

الإلحاد أسبابه وعلاجه

كلٌّ منّا يعرف أن الاستعمار ـ سواء أكان سياسياً أو اقتصادياً أو عسكرياً ـ هو أقل خطراً وأهون شراً من الاستعمار الفكري والروحي، فلذلك يحاول الأجنبي المستعمر بكُلّ ما لديه من وسائل تبشيرية أدبية وعلمية وفنية، أو غيرها، غزو الأفكار والقضاء على روح الأمة قبل كلّ شيء؛ ليتسنى له التلاعب بمقدرات شعب تشتتت أفكاره، وتباينت أهدافه، وانحلت الروابط القومية والدينية فيه، فيعلم الأجنبي أنه لا يمكن أن يستعبد شعباً له من مقوماته الأخلاقية، ما يجعله يتفانى في سبيل كرامته القومية والوطنية، ويستميت في الذود عن حريته واستقلاله.

ولذلك يحاول الأجنبي بكلّ ما لديه من وسائل وأساليب جهنمية وشيطانية، عن طرق علمية وفنية للقضاء على معنويات الأمة وأخلاقها ومقوماتها الدينية.

فالواجب يدعو إلى أن أوجِّه خطابي وتحذيري إلى الشباب المثقف، وإلى رجال التربية والتعليم، وإلى المسؤولين في الدولة، وإلى الكتلة المستنيرة الواعية من الأمة، وإلى المخلصين الذين يحرصون على أخلاق الجيل الناشئ من الانهيار، أوجه ندائي هذا إلى كلّ من يعتزُّ بقوميته ودينه، بأن يقوموا بالواجب المحتَّم عليهم، والذي يدعوهم إلى أن يطلعوا على أساليب التبشير الأجنبي وفظائعه، وذلك بقراءتهم كتاب (التبشير والاستعمار) للدكتورين الفاضلين عمر فروخ ومصطفى خالدي، جزاهما الله خيراً، ليكونوا على بصيرة من هذا الأمر الخطير الجلل! ليقضوا على هذا الخطر الداهم. فلو اطلعوا على هذا الكتاب لأخذهم الفزع والهلع بما يقوم به الأجنبي في تبشيره بأساليب مروعة لإفساد

أخلاق الناشئة، واستعبادها الروحي، ولأيقنوا عند ذاك أن إهمال الناشئة الغرة وتركها وشأنها يتلاعب التبشير بأفكارها، وينفذ سمومه القتَّالة في روحها، وعدم الكفاح بأساليب علمية لمقاومة التبشير الأجنبي والقضاء عليه، أو تخفيف وطأته على الأقل؛ تعدُّ جريمة كبرى لا تُغتفر لكلٍّ منا!.

معنى الإلحاد:

هـو إنكار الخالق، والاعتقاد بأن لا رسل ولا أنبياء ولا شرائع إلـٰهية، ولا كتب سماوية، ولا ثواب ولا عقاب، ولا نعيم ولا عذاب، وقد أضحينا ومن ينكر هذه الأشياء، ويستهزئ بالقائلين بها يعد من المتمدنين العصريين، ومن يؤمن بها يُعدُّ من الأغبياء الجامدين المتعصبين.

إن هذه الفكرة الإلحادية التي تنتشر بشكل مريع بين الطبقة التي يعدها الناس منوَّرة مثقفة، قد تصير إلى الاستفحال، لكثرة الدعاة إلى إذاعتها بين جميع الطبقات، ومتى استحكمت حلقاتها فإن الروابط الدينية والقومية لا بد أن تتفكك عُراها، ومتى تفككت هذه العُرى في أمة فإن أفراد هذه الأمة يصبحون متناكرين متخاذلين، ومن الغني عن البيان أن التناكر والتخاذل مما ينتج المصائب والويلات! هذه نتائج التبشير الاستعماري الفكري والروحي؛ وهو أهم وأخطر سبب من أسباب **الإلحاد**. أما الأسباب الأخرى فهي كما يلي:

أولاً ـ الأسرة:

وهي ركيزة الأمة، فبقوتها تتعالى الأمة، وبضعفها تنهار الأمة، فالأسرة هي الدعامة التي يشيد عليها الجيل الصاعد أخلاقه ومعتقداته خيراً كانت أو شراً!

ثانياً ـ المدرسة:

يتلقَّى الطلاب علومهم المدرسية عن بعض أساتذة رشفوا علوم الطبيعة بأطراف شفاههم، فألحدوا في كلِّ ما يسمى ديناً، فهؤلاء الأساتذة هم في مقدمة الأسباب لإلحاد أولئك التلامذة.

ثالثاً ـ البيئة والمحيط:

ينتشر الإلحاد عن طريق المعاشرة والمخالطة مع الذين ينكرون كل ما يتعلق بالدين؛ فالبيئة لها الأثر الفعَّال في تكوين أخلاق الشباب.

رابعاً ـ المؤلفات:

الكتب والرسائل والمجلات العصرية لم تكن غايتها ثقافية علمية فحسب، بل بثّ سموم التشكك في الأديان، وخاصة منها الدين الإسلامي.

خامساً ـ التقليد:

من كان مقلداً في إيمانه، أي: من كان منتحلاً ديناً من غير تفقه وتبصُّر في ذلك الدين، هو معرَّض دائماً للشك الذي يجرُّ إلى الإلحاد؛ فالتقليد هو المصيبة الكبرى لشبهات الملحدين.

لذلك جعل الإسلام العقل حَكَماً في كلِّ شيء، وجعله حكماً في الدين وفي الإيمان نفسه، يقول تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٧١]، إن الآية صريحة في أن التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين، وأن المرء لا يكون مؤمناً حقاً إلا إذا عقل دينه، وعرفه بنفسه حتى اقتنع به...

الإسلام دين العقل، يقول تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ [يوسف: ١٠٨].

ومن المعلوم: أن كثيراً من الناس انتسبوا إلى دين لا لاقتناعهم بصحته واطمئنانهم إلى صدق تعاليمه، بل لأنهم وجدوا آباءهم منتحلين ذلك الدين، فقلدوهم؛ مع أن الإسلام كما رأيت يمقت التقليد. كما جاء في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾[الزخرف: ٢٣]. وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠].

* * *

أما العلاج الشافي من داء الإلحاد، ومن نكران ما يتعلق به من نواحي الإيمان؛ فهو كما يلي:

أولاً: تغيير مناهج دراسة الدين تغييراً جوهرياً في كلِّ مراحل الدراسة في مدارسنا الابتدائية والمتوسطة والإعدادية ودور المعلمين والمعلمات، بحيث تنظم مناهج الدِّين بطريقة علمية على ضوء أساليب التبشير الاستعماري الروحي.

يجب أن يكون انقلاب في دراسة ديننا على ضوء العلم الحديث، فيجب أن يُكافح السلاح بالسلاح نفسه أو أقوى منه.

ثانياً: يجب أن تزداد عدد دروس الدِّين في المتوسطات إلى درسين على الأقل عوضاً من درس واحد في الأسبوع، وأن يدرس الدين في القسم الإعدادي أيضاً بصورة أوسع وأتم، وأن تدرس فلسفة الدِّين الإسلامي في دار المعلمين العالية.

ثالثاً: أن يعتبر درس الدين في كلِّ مراحل الدراسة كسائر الدروس العلمية بحيث يجمع مع معدل الدروس الأخرى.

رابعاً: العناية بمدرسي الدروس الدينية، وانتقائهم من الذين تفقهوا في الدين على طريقة علمية، بحيث يتمكنون بأفكارهم الثاقبة وببصائرهم الصائبة من إزالة الشكوك التي تساور أذهان التلاميذ في كلِّ ما يتعلق بنواحي دينهم وإيمانهم، كما يجب أن نلاحظ أخلاق المدرسين الآخرين في عقائدهم الدينية.

خامساً: مراقبة المؤلَّفات مراقبة شديدة، ومنع نشر المسمومة منها.

سادساً: يجب أن تخصَّص لجان علمية للتأليف في العلوم الآتية:

أ ـ لجنة في العلوم الطبيعية (الفيزياء والكيمياء):

ترتبها ترتيباً جديداً، وتستنتج منها نتائج مهمة جداً، وتستخدمها لإثبات الدِّين، وتعزيز العقيدة الإسلامية، وخدمة المجتمع الإسلامي، كما اتخذها الملحدون والمفسدون في الأرض أداة إلحاد وإفساد، وهذا ميسور للعلماء الذين يجمعون بين معرفة روح الإسلام، والتعمق في هذه العلوم، والتوسع في دراستها والابتكار فيها.

ب ـ لجنة في العلوم الجغرافية:

تؤلِّف كتباً تشتمل على أحدث المعلومات الجغرافية، مع الروح الدينية، فيخرج الطالب من كتب الجغرافية مؤمناً بأن هذه الأرض التي وُلِدَ عليها، والكون الذي يعيش فيه، منتظم متّسق، وأن خالقه حكيم خبير، ويهتدي من المخلوقات إلى الخالق، ومن المعلومات إلى التفكير بمعرفة الله وذكره والتسبيح بحمده.

ج ـ لجنة في علوم الأحياء:

تضع كتباً تنير للمسلم طريق الهداية الإسلامية؛ عن طريق دراسة النباتات والحيوانات والإنسان، فيطَّلع الطالب من دراستها على نظام رائع يخلب الألباب، وعلى آيات الخالق الباهرات في تلك المخلوقات، فيؤمن إيماناً عقلياً وعلمياً بدينه وإيمانه.

د ـ لجنة في التأريخ:

تضع كتباً في التاريخ، يعرف الطالب منها أنَّ لله سنناً لا تتغير، وأياماً في خلقه لا تتبدل: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢]. وإن لحياة الأمم في تقدُّمها وتأخرها، وعثارها ونهوضها قانوناً معقولاً، وإن أي أمة، مهما كان دينها، حادت عن السبيل، وثارت على القوانين الإلـٰهية التي ذكرها القرآن، والأخلاق الفاضلة، والنواميس العادلة؛ عوقبت عقوبات في الحياة الدنيا، ومحيت من الوجود!!.

هـ ـ لجنة في علم النفس:

تؤلِّف كتباً تتناول العلوم النفسية الحديثة التي تسترعي انتباه الطالب إلى ما في النفس الإنسانية ومكنوناتها من آيات الخالق التي حيَّرت فطاحل العلماء!.

سابعاً: لما كان عمل اللجان المشار إليها شاقاً، ويتطلب وقتاً غير قصير لإنجاز مهمتها في تأليف الكتب السالفة الذكر، يجب أن تؤلف في الوقت الحاضر رسائل دينية معززة ومؤيدة بالعلوم العصرية التي يتدارسها الطلاب، وتوزيعها على التلاميذ جميعهم لمطالعتها، إن لم يقرر تدريسها، لتنشأ الناشئة وهي تعتقد في دينها الإسلامي اعتقاداً راسخاً عن قناعة فكرية، وتؤمن بما جاء به الإسلام إيماناً حقيقياً علمياً لا تقليدياً!.

وحتى أساهم بهذا الواجب المقدس قدمت في سنة ١٩٥١م كتاباً بعنوان (بصائر جغرافية) إلى إدارة جمعية التفيض الأهلية، التي طبعته على نفقتها وسعّرته بسعر التكلفة؛ لأن غايتها الربح المعنوي لا المادي! وتناول هذا الكتاب كثيراً من الشبهات والشكوك التي تُساور أذهان المتعلمين في دينهم وقرآنهم،

فعلّلها تعليلاً علمياً. وقدمت مئات النسخ من الكتاب هدايا لمن يهمهم الأمر، فنال الكتاب استحساناً في الأوساط العلمية، وحتى إنه قد قررت لجنة ثقافية في وزارة المعارف في بادئ الأمر تدريسه في الصف الثاني من دار المعلمين الابتدائية، ولكن أخيراً عدل عن القرار المذكور، والاكتفاء بأخذ كمية ضئيلة منه لتوزيعها على بعض مكتبات المعارف! وذلك بحجة أن مقدمة الكتاب تطرقت إلى قضية فلسطين، وما يتعلق بها من ملابسات سياسية لا تتفق مع التدريس في المدارس الحكومية.

وفي سنة ١٩٥٣م قدمت رسالة بعنوان (آيات الخالق الكونية والنفسية) إلى إدارة جمعية التربية الإسلامية التي طبعتها على نفقتها مرتين، وسعَّرتها بسعر كاد أن يكون مجاناً؛ لأن إدارة الجمعية توخَّت من ذلك الربح المعنوي فقط وخدمة المجتمع الإسلامي وكسب مرضاة الله.

والطبعة الثانية زودت بأبحاث هامة بلغت ضعف الطبعة الأولى حجماً، بحيث تتناسب مع مدارك الطلاب في مختلف مراحل الدراسة من الابتدائيات حتى الكليات، وتبرهن الرسالة ببراهين علمية على وجود الخالق الحكيم العليم.

والطبعتان من الرسالة المذكورة التي بلغت آلافاً نفدتا بسرعة في مدة وجيزة جداً، والفضل الأكبر في سرعة نفادها، لجيشنا المؤمن حقاً بإيمان قادة فرقه الأبرار وأمراء وحداته الأخيار؛ إذ إن الجيش وحده أخذ من الرسالة ما يزيد على الثمانية آلاف نسخة، وقدمت من هذه الرسالة هدايا إلى من يهمهم الأمر.

وكثر الطلب من خارج العراق وخاصة من الجمعيات الدينية، فزودت حسب رغباتها بمئات النسخ، وأخذت وزارة المعارف العراقية الجليلة ثلاثة آلاف نسخة لتوزيعها على مكتبات مدارسها، في حين كان الواجب يقضي على الوزارة أن تطبع منها على نفقتها كمية تكفي لتوزيعها على جميع طلاب المدارس في مختلف مراحل الدراسة من ابتدائيات ومتوسطات وإعداديات وكليات ودور معلمين ومعلمات، بحيث أن يقتني كل طالب وطالبة نسخة منها للمطالعة، ليكونوا على بصيرة من إيمانهم، أما الاكتفاء بتوزيعها على مكتبات المدارس فلا تؤمِّن الغاية، لأن الكثير من الطلاب لا يراجعون مكتبات مدارسهم.

وأعتقد أن الذين يهمهم الأمر ـ وهو جليل وخطير ـ في وزارة المعارف من رجال التربية والتعليم يكفي أن يطلعوا على مقدمتي الطبعة الثانية وفهرستها ـ (ولدى كل واحد منهم نسخة قدمت له هدية في حينه) ـ لكي تدفعهم الغيرة الدينية والنخوة القومية إلى قرار من شأنه أن يقتني كل طالب وطالبة في جميع مراحل الدراسة نسخة من الرسالة المذكورة.

أما الآن فأقدم هذه الرسالة الثالثة أيضاً بعنوان (بصائر الاطمئنان) التي تناولت ثلاثة بحوث هامة هي:

أولاً: المعتقدات في الإسلام.

ثانياً: الحكمة في العبادات.

ثالثاً: المثل العليا في الإسلام.

وكلُّها معلَّلة تعليلاً علمياً أيضاً على طريقة عصرية. (ويتبين من قراءة فهرستها المواضيع التي عالجتها الرسالة).

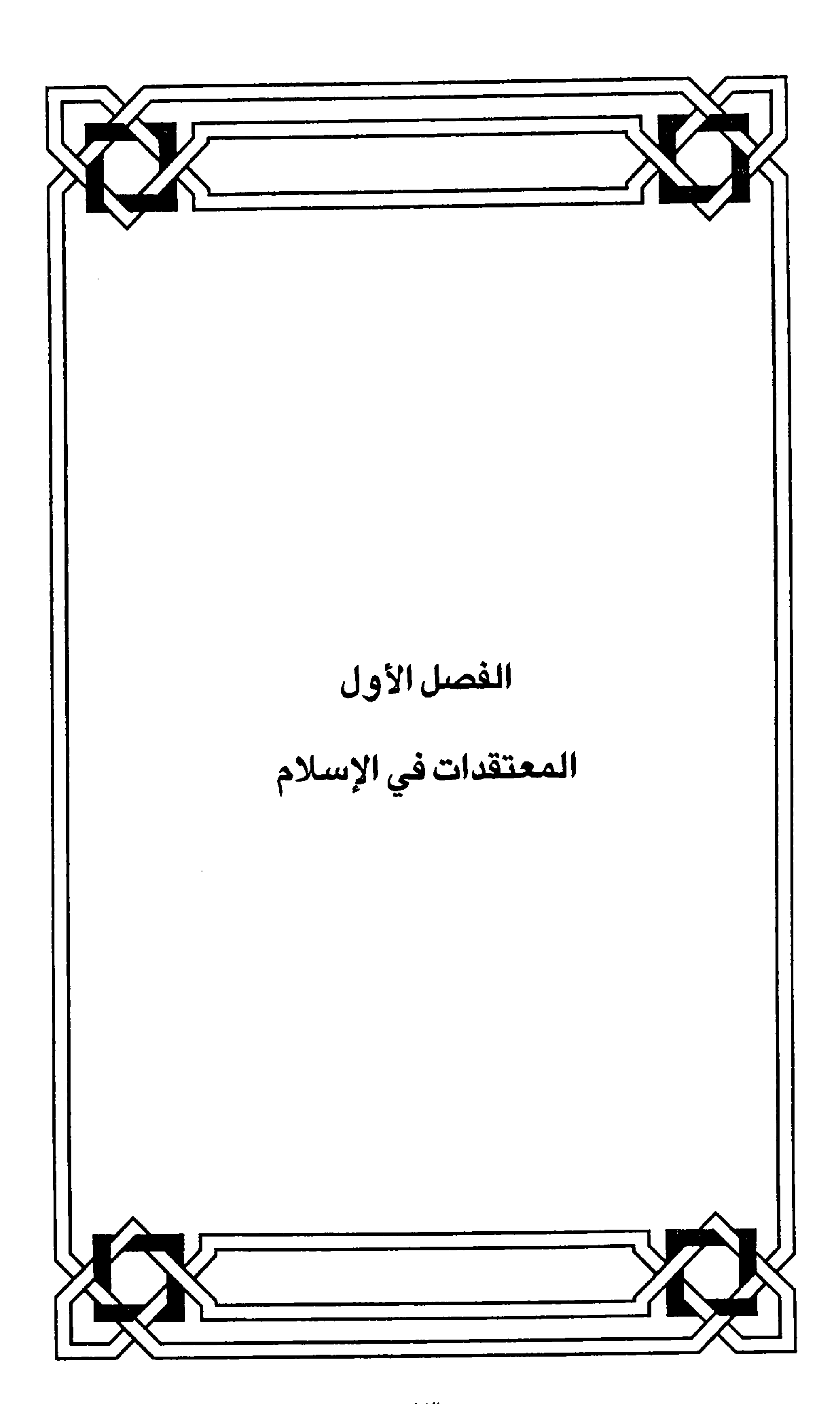
﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [قَ: ٣٧].

ولما كانت (إدارة جمعية التربية الإسلامية ببغداد) تعنى جدياً بتربية الناشئة الإسلامية على طريقة دينية علمية عصرية، وتحرص حقاً على رعاية هذه الطريقة بكل ما أوتيت من وسيلة وجهد، ولاقتناعي بأن الجمعية المذكورة هي الوحيدة في العراق التي دأبت منذ تأسيسها حتى تاريخه تعمل جاهدة مخلصة لتربية النشء الجديد تربية إسلامية صحيحة في مدارسها على طريقة علمية لوجه الله تعالى، فقد طاب لي أن أهدي رسالتي هذه أيضاً إليها، ولقد قبلتها مشكورة وتعهدت أن تطبعها على نفقتها أيضاً، وأن تنشرها في الناس كما أقرت تدريسها في مدارسها، وأن تبيعها بسعر التكلفة كما فعلت في رسالة (آيات الخالق)؛ لا تريد من ذلك جزاء أو شكوراً، أو أجراً سوى مرضاة الله.

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥].

* * *





الفصل الأول

المعتقدات في الإسلام



المبحث الأول

الإسلام دين العقل والبصيرة

جعل الإسلام العقل حكماً في كل شيء، وجعله حكماً في الدين والإيمان نفسه؛ يقول تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

ويفسِّر الشيخ محمد عبده[1] هذه الآية فيقول: «إن الآية صريحة من أن التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين، وأن المرء لا يكون مؤمناً إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به. من رُبِّي على التسليم بغير عقل، والعمل ولو صالحاً بغير فقه؛ فهو غير مؤمن، فليس القصد من الإيمان أن يذلَّل الإنسان للخير كما يذلل الحيوان، بل القصد منه أن يرتقي عقله، وترتقي نفسه بالعلم، فيعمل الخير لأنه يفقه أن الخير النافع المرضي لله، ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته».

وهذا الذي يقوله الشيخ محمد عبده تفسيراً لهذه الآية الكريمة قد جاء به القرآن صريحاً في آيات كثيرة غيرها. فهو يدعو الناس إلى النظر في الكون ومعرفة أنبائه؛ ليهديهم نظرهم إلى وجود الله ووحدته جلَّ شأنه، والدعوة إلى النظر في الكون لاستنباط سننه، وللاهتداء إلى الإيمان ببارئه عزَّ وجلّ؛ يكررها القرآن مئات المرات في سوره المختلفة، وكلها موجَّهة إلى قوى الإنسان العاقلة تدعوه إلى التدبر والتأمل ليكون إيمانه عن عقل وبيّنة، وتحذره الأخذ بما وجد آباءه عليه من غير نظر فيه وتمحيص له وثقة ذاتية بمبلغه من الحق، هذا هو الإيمان الذي دعا الإسلام إليه، وهو ليس هذا الإيمان الذي يُسمُّونه إيمان العجائز، إنما هو إيمان

---

(١) محمد عبده: هو الذي أقام صرح المدرسة العقلية، ودعا إليها، ونشرها بين الناس، وما يؤخذ عليه الكثير، منها اشتراكه مع أستاذه جمال [الأفغاني] في المحافل الماسونية ونشاطه فيها، وتعاونه مع أستاذه في نشر مبادئها. كما صدر عنه عبارات تفوح منها رائحة تجاهل الإسلام، والدعوة إلى الفرعونية المصرية!!. (الناشر)

المستنير الذي نظر ونظر، ثم فكر وفكر، ثم وصل من النظر والتفكير إلى اليقين بالله وما أوحي به إلى رسله، وخاصة منهم إلى خاتم النبيين محمد ﷺ من آيات بينات[1].

وانظر أيها القارئ الكريم إلى مكانة العقل في الإسلام فيما جاء به القرآن من آيات كريمة؛ تدعو المسلم إلى التفكير في إيمانه ودينه ليكون على بيِّنة وبصيرة منهما:

قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ﴾ [سبأ: ٤٦].

قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يوسف: ١٠٨].

قوله تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

وجاء في القرآن آيات كثيرة تخاطب العقل والفكر وتستلفت النظر إلى آياته الكونية والنفسية:

منها قوله تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠ ـ ٢١].

ومنها قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥].

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ [يونس: ٩٢].

---

(١) كتاب (حياة محمد) لمحمد حسين هيكل، ص٥٠٣.

ومنها قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ﴾ [الروم: ٨].

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [آل عمران: ١٩١].

ومنها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١].

ومنها قوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: ٢١].

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٠].

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل: ١٢].

ومنها قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ [الحج: ٤٦].

ومنها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٢].

ومثل هذه كثير جاءت في القرآن تخاطب العقل والفكر دائماً، مما تدلُّ دلالة واضحة على مكانة العقل في الإسلام، بحيث بلغت من السمو والروعة إلى حدٍّ أن أجمع علماء الإسلام على أنه إذا تعارض العقل مع ظاهر نص من القرآن فيؤول النص حسب العقل[1]، فالدين الذي يعتمد على العقل في إقامة براهينه

---

(١) إن أصحاب المدرسة العقلية (محمد عبده وأمثاله) يعطون العقل مرتبة تضاهي مرتبة الوحي، إن لم تتجاوزه، وفي هذا خطر عظيم.

وليس ثمة كتاب أطلق سراح العقل وغالى بقيمته وكرامته كالقرآن الكريم، بل إن القرآن=

وبسط حججه لا يمكن أن يجانب العقل وينافيه. وأروع آية كريمة ـ وكلها روائع ـ جاءت في ذلك، تعتبر الذين يحكمون عقولهم في الآيات الكونية للاستدلال على الإيمان بالله هم من عباد الرحمن دون غيرهم وهي: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣]، فيا لها من روعة وعبرة!.

وجاء في الحديث أيضاً: «الدِّينُ هوَ العَقلُ، ولا دِينَ لِمَنْ لا عَقْلَ لَهُ»[(١)]، «اسْتَفْتِ نَفْسَكَ وإنْ أفْتَاكَ المُفْتُون»[(٢)]، وهذه هي الحرية الفكرية بأسمى معانيها التي يقدِّسها الإسلام ويدعو إليها.

* * *

= ليكثر من استثارة العقل ليؤدي دوره الذي خلقه الله له.

ثم إن الإسلام أمر العقل بالاستسلام والامتثال للأمر الشرعي الصريح، حتى ولو لم يدرك الحكمة، ومنع الإسلام العقل من الخوض فيما لا يدركه ولا يكون في متناول إدراكه كالذات الإلـٰهية، والأرواح في ماهيتها ونحو ذلك.

ففي شرعنا الإسلامي لا يتعارض العقل مع النقل، وإن وجد تعارض (شكلاً) دلَّ على قصور العقل في فهم النص، لأن العقول السليمة تتفق مع النصوص الصحيحة (قرآناً وسنة) لأن القرآن والسنة من مشكاة واحدة.

ثم أي عقل!! هو الذي سنؤول النص القرآني أو الحديث النبوي لأجل فهمه القاصر؟!.
(الناشر)

(١) الحديث ضعيف، انظره في السلسلة الضعيفة، والمشتهر الجبري. (الناشر)

(٢) الحديث: «... استفت نفسك... وإن أفتاك الناس وأفتوك» رواه أحمد برقم (١٧٣١٥) و(١٧٣٢٠) في مسند الشاميين، والدارمي برقم (٢٤٢١) في كتاب البيوع.
(الناشر)

المبحث الثاني

الإيمان بالخالق

من المعلوم: أن المعتقدات في الإسلام هي: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر. وسنأتي في هذه الرسالة على بصائر علمية تتعلق بنواحي الإيمان المذكورة وما يتفرَّع منها، قد تؤدي إلى اطمئنان الشباب المتعلم الذي قد تُساورهم الشبهات والشكوك، في تلك الأمور الخطيرة، وأهمها الإيمان بالخالق رب العالمين.

وما من أحد من الشباب المتعلم المتفكر الراغب في الاطّلاع على الحقيقة الناصعة، مهما كان دينه ومذهبه، إلا ويعتقد فيما درسه من علوم طبيعية وغيرها بوجود خالق مدبر حكيم؛ فبصيرته تدعوه حتماً إلى الاعتقاد بوجود منظِّم؛ لأنه يرى في كلِّ ما درسه دراسة تدقيق وتحقيق جماداً كان أو نباتاً أو حيواناً أو أي مظهر من المظاهر الكونية؛ نظاماً رائعاً، ولا يكون نظام دون منظم.

والعلماء الفطاحل من الغربيين (أوروبيين وأمريكيين) قد آمنوا إيماناً لا شائبة فيه بوجود رب العالمين عن طريق دراستهم العلوم التي تخصصوا بها، إذ إنهم قد وجدوا بأفكارهم الثاقبة في كلّ ما درسوه نظاماً متقناً بديعاً رائعاً، لا بد له من منظم على جانب عظيم من العلم والحكمة، فلذلك آمنوا بالله إيماناً صادقاً عن طريق تدقيق تلك العلوم، فالعالم الذي لا يخشى الله أو لا يؤمن به ليس بعالم حقاً، بل إنه لم يتفكر فيما رُكِّب في نفسه من بدائع وروائع تدهش الألباب: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾ [الروم: ٨].

وقد جئنا في رسالتنا (آيات الخالق الكونية والنفسية) بنُبَذ علمية كونية ونفسية، تدلّ دلالة قاطعة على وجود خالق عظيم، فإذا تدبَّرها الشباب المتعلم بعقله لا بعاطفته، فلا بد أن يؤمن إيماناً صادقاً لا شائبة فيه بفاطر السموات والأرض، و(في كلّ شيءٍ له آية تدل على أنه الخالق الواحد سبحانه وتعالى).

* * *

المبحث الثالث

الإيمان بقوى خفية

كالملائكة، والجن، والشياطين

يزعم البعض من الذين لا يفقهون الأسرار الكونية: أن ما جاء في القرآن فيما يتعلق بالملائكة والجن والشياطين ما هي إلا إسرائيليات تسرَّبت من أساطير يهودية إلى القرآن، وليست هي في الواقع من الحقيقة في شيء، فلا وجود لهذه المخلوقات في هذا الكون، وما قصة إبليس، والجن، والملائكة، الواردة في القرآن إلا خرافة وأسطورة!.

ومن الغريب العجيب لإنسان له من العقل الراجح أن يعتقد بوجود شيء من آثاره المحسوسة دون أن يدرك حقيقته، ولا يعتقد بوجود شيء آخر له من آثار ومؤثرات قد خفيت عن بصيرته.

أيها الشباب المسلم! إننا نصدق عن طريق العلم بكلّ ما جاء به من مخترعات مدهشات؛ فنصدِّق بالآثار الكهربائية مثلاً عن طريق الاختبار دون أن نعرف ماهيتها، ونعلم أن السالبين أو الموجبين منهما يتنافران، والسالب والموجب يتجاذبان، ولكن لم يتمكن ولن يتمكن العلم أن يفهمنا لماذا يتنافر الجنس الواحد منها؟ ولماذا يتجاذبان إذا كانا من جنسين مختلفين؟ فهل يتبعان في ذلك القانون الطبيعي للحياة الحيوانية للذكر والأنثى في التصالب والتزاوج؟ فيا له من تزاوج وتجاذب تنبعث منهما الشرارة الكهربائية التي تضيء للناس بأنوارها الوهاجة!! فما هذا السر العجيب؟! فقد خفي عن علم الناس. وكذلك نعلم شيئاً ضئيلاً عن الأشعة الكونية وتأثيراتها الخارقة، وسرعتها الهائلة، ولكن لم نطّلع على كُنهها وحقيقتها وكيفية تكوينها.

فعدا الأشعة الضوئية التي تشعها النجوم، أو بتعبير أصح: الشموس؛ توجد أشعة أخرى أطلق عليها(الأشعة الكونية)، وموجات هذه الأشعة قصيرة

جداً إذا ما قورنت بأشعة الضوء، أو أي نوع آخر من الأشعة المعروفة.

ومن المعلوم أنه كلما قصر طول الموجة كانت طاقتها أشد، وموجات هذه الأشعة الكونية العجيبة أقصر بملايين المرات من أشعة أخرى، فلذا إن طاقتها عظيمة جداً، ولها قدرة على النفاذ خلال طبقات سميكة من أية مادة معروفة، وقد أمكن إدراك وجودها عن طريق جهازات فنية دقيقة، في الأنفاق التي تجري فيها القطارات الكهربائية (بلندن)، وذلك على عمق ثلاثين متراً من سطح الأرض!. وهذه الأشعة ما هي إلا طاقة مهولة تعبر فضاء الكون، وتصل إلينا في صورة أشعة غير مرئية، وتؤثر فينا تأثيراً لا نعلمه!!.

ثم نعلم كذلك تأثيرات(الأشعة فوق البنفسجية مثلاً غير المرئية) أيضاً؛ كيف أنها تكفي وحدها لو تسرَّبت إلى سطح الأرض أن تقضي على الحياة فيها، ولأحرقت وأبادت كلَّ حيٍّ على وجه الأرض، لولا غاز الأوزون الذي (على ندرته في الهواء) يعمل على امتصاص قسم كبير من هذه الأشعة القوية في طبقات الجو العليا، مما يجعل القسم الآخر الذي يتسرّب إلى سطح الأرض يسيراً جداً لا خطر منه على الحياة، بل إن وجود هذه الأشعة بمقدار قليل(مقدراً تقديراً محكماً) ضروري جداً لحياة الإنسان! فما هذه القدرة المدهشة في غاز (الأوزون) الذي يبتلع تلك الأشعة البنفسجية القوية بامتصاصه لها؟!.

ثم كلّنا نعرف غاز(النتروجين) في الهواء؛ كيف أن له قوة وقابلية لدرجة أنه يُحطّم النيازك التي تدخل في جوّنا فيجعلها هباءً منثوراً، عالقة في الهواء قبل وصولها إلى سطح الأرض، فقد جعله الله واقياً للأرض من شرِّ هذه القنابل السماوية، لولاه لكانت الحياة على سطح الأرض مستحيلة.

والكون يزخر بقوى خفية هائلة لا تُعرف حقيقتها، ومن الغريب أن بعض الغافلين أو المتغافلين يندِّدون جهلاً منهم ببعض الآيات القرآنية التي جاءت في ذلك، كقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ ﴾ [البقرة: ٣٤]، إذ يتلقى المنكرون هذه الآية بالاستهزاء، ولكن إذا فكرنا قليلاً فإنا نرى الإنسان قد اطلع في العصر الحديث على قوانين قوى الجاذبية والحرارة والضوء والكهرباء والمغناطيس وغيرها من السيالات اللطيفة، وكذلك الرياح والمياه والمواليد الثلاثة، واستخدم هذه كلها كما يشاء لمصلحته، فبينما جميع

القوى اللطيفة والموجودات الأرضية المعلومة وغير المعلومة خاضعة للإنسان وساجدة له، توجد قوى إغوائية معادية له عاصية تسمى الشيطان، ونعلم أن كلمة (مَلَك) في اللغة العربية(القوة)، وكلمة(إبليس) العاصي والمتمرد، وتسمى في سائر الألسن بما يقرب من هذا. . أظن توجيهاً كهذا لا يعد عبثاً عند العقلاء في مسألة سجود الملائكة لآدم، ولكن يجب أن نفكر منصفين أيضاً: هل كان الناس في بداية نزول الآيات ـ أي: في عصورٍ كان العلم البشري جد محدود ـ قادرين على إدراك ماسردناه من البيانات آنفاً؟وإذا كانت الكتب الدينية أفهمت الناس رمزاً أو إشارة بأن هناك قوى خفية معادية له في الدنيا؛ فبأي حق يُعتَرض عليها؟![1].

ولكن لماذا نذهب بعيداً ولم نذكر ما في أنفسنا؟ كما جاء في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمۗ ﴾ [الروم: ٨]، فيشعر كل إنسان بما في نفسه من القوى المختلفة التي أدهشت أولي الألباب من علماء النفس في تفسير تأثيراتها، ولكن يكفي أن نذكر منها قوتين في الإنسان تتنازعان وتتصارعان دائماً فيما بينهما؛ وهما: قوة للخير وقوة للشر، ولا يعرف عن ماهيتهما شيئاً، ولا يمكن أن يراهما، ولكن يعتقد الإنسان حتماً بوجودهما؛ لأنه واقع تحت تأثيرهما، فقوة الخير تحضُّه على الفضائل والمكرمات، وبالعكس قوة الشر تدعوه إلى الرذائل والمحرّمات، فما ماهية القوتين المذكورتين وما مصدرهما؟! أليس من العجيب أننا لا نعرف عنهما شيئاً مذكوراً ونحن تحت سيطرتهما؟! فهل بقي من شك بعد ذلك في أن خالق الكون على هذه السنن الطبيعية التي أدهشت العلماء، وخالق هـذه القوى الظاهرة والخفيـة ليس بعزيز عليـه أن يخلق ما يماثل تلك القوى كالملائكة، والجن، والشياطين، من أشعة؛ ما من نور أو نار أو من غيرهما، ويمنحها من القوى المادية والفكرية ما يكون فيها من القابلية والاستعداد، كما جاء في القرآن في وصفها من أعمال ومن مؤثرات!.

فنكراننا وجود ملائكة أو جن أو شياطين أشبه كثيراً بعدم تصديقنا بما حققه العلم بتأثيرات السنن الكونية والقوى الطبيعية؛ فالعقل السليم والتفكير المستقيم يدعوانا إلى الاعتقاد بتلك المخلوقات، وإن كنا لم نعرف عنها شيئاً، ولم نتمكن

---

(١) اقتُبس ما كتب عن سجود الملائكة لآدم من كتاب: (الدين والعلم) لأحمد عزت باشا، المشير التركي.

أن نقف على حقيقتها، كما اعتقدنا بالقوى الأخرى في الكون، وفي أنفسنا، دون أن نعلم عن ماهيتها وحقيقتها شيئاً. والكون محبوك بأسرار، ومحتشد بقوىً خفية لم يكشفها العلم بعد!!.

لأجل أن نحيط علماً بما جاء به علماء الإسلام الأفذاذ في هذا الصدد، نختم هذا البحث بما جاء في تفسير (إشارات الإعجاز) للعلاّمة العظيم سعيد النورسي، قال رحمه الله في تفسير الملائكة:

اعلم أن التصديق بوجود الملائكة أحد أركان الإيمان، ولنا هنا مقامات:

المقام الأول: أن من نظر إلى الأرض، وقد امتلأت بذوي الأرواح مع حقارتها، وتأمّل في انتظام العالم وإتقانه ـ تحدس بوجود سكان في هذه البروج العالية.

فمثل من لا يعترف بوجود الملائكة، كمثل رجل ذهب إلى بلدة عظيمة، وصادف داراً صغيرة عتيقة ملونة بالمزخرفات، مشحونة بالناس، ورأى عرصاتها[1] مملوءة من ذوي الأرواح، ولحياتهم شرائط مخصوصة، كالنباتات والسماك، ثم رأى ألوفاً من القصور العالية الجديدة، قد تخللت بينها ميادين النزهة، فيعتقد خلوها عن السكان، لعدم جريان شرائط حياة هذه الدار في تلك القصور، ومثل المعتقد بوجودهم كمثل من إذا رأى هذا البيت، وقد امتلأت من ذوي الأرواح، ورأى انتظام البلدة؛ جزم بأن لتلك القصور المزينة أيضاً سكان يناسبوها وتوافقهم، ولهم شرائط حياة مخصوصة، فعدم مشاهدتهم، لبعدهم وترفعهم، لا يدل على عدمهم. فامتلاء الأرض من ذوي الحياة، ينتج بالطريق الأولى، وبالقياس الأولوي، المؤسس على القياس الخفي، المبني على الانتظام المطرد، امتلأت هذه الفضاء الوسيعة، ببروجها ونجومها وسمواتها، من ذوي الأرواح الذين يدعوهم الشرع بالملائكة المنطوية على أجناس مختلفة، تأمل!.

المقام الثاني: اعلم، كما مرَّ، أن الحياة هي الكشافة للموجودات، بل هي

---

(١) العَرَصَة: ساحة الدار، والبقعة الواسعة بين الدور لا بناء فيها.

النتيجة لها، فإذاً كيف تخلو هذه الفضاء الوسيعة من ساكنيها، وتلك السموات من عامريها؟!.

ولقد أجمع العقلاء إجماعاً معنوياً ـ وإن اختلفوا في طرق التعبير ـ على وجود معنى الملائكة وحقيقتهم، حتى إن (المشائيين) عبروا عنهم بالماهيات المجردة الروحانية للأرواح، و(الإشراقيين) عبروا عنهم بالعقول، و(أرباب الأنواع وأهل الأديان) بملك الجبال، وملك البحار، وملك الأمطار، مثلاً. حتى إن (الماديين) الذين عقولهم في عيونهم، لم يتيسر لهم إنكار معنى الملائكة، بل نظروا إليهم في (القوات السارية في نواميس الفطرة).

فإن قلتَ: أفلا يكفي لارتباط الكائنات وحيويتها، هذه النواميس وتلك القوانين الجارية في الخلقة؟.

قيل لك: ما تلك النواميس الجارية، والقوانين السارية، إلا أموراً اعتيادية، بل وهمية، لا يتعين لها وجود، ولا يتشخّص لها هوية، إلا بممثلاتها ومعاكسها، ومن هو آخذ برأس خيوطها، وإن هي إلا (الملائكة).

وأيضاً ـ قد اتفق الحكماء والعقل والنقل، على عدم انحصار الوجود في (عالم الشهادة) الظاهر الجامد، الغير الموافق لتشكُّل الأرواح، (فعالم الغيب) المشتمل على عوالم الموافق للأرواح، كالماء والسماك، مشحون بها، مظهر لحياة (عالم الشهادة).

فإذا شهدت لك هذه الأمور الأربعة، على وجود معنى (الملائكة). فأحسن صور وجودهم، الذي ترتضي به العقول السليمة، ما هو إلا ما شرحه (الشرع) من (أنهم عباد مكرمون لا يخالفون ما يؤمرون)، وكذا (أنهم أجسام لطيفة نورانية، ينقسمون إلى أنواع مختلفة).

المقام الثالث: اعلم أن مسألة (الملائكة) من المسائل التي يتحقق الكل بثبوت جزء واحد، ويعلم النوع برؤية أحد الأشخاص، إذ من أنكر الجزء، أنكر الكل.

ثم كما أنه محال عندك ـ أيقظك الله ـ أن يُجمع كل الأديان، في كل الأعصار، من آدم إلى الآن؛ على وجود (الملائكة) وثبوت المحاورة معهم،

وثبوت مشاهدتهم، والرواية عنهم، كمباحثة الناس طائفة عن طائفة، بدون رؤية فرد بل أفراد منهم، وبدون ضرورة وجود شخص بل أشخاص منهم، وبدون الإحساس ـ بل بالضرورة ـ بوجودهم، كذلك محال أن يقوم وهم كذلك في عقائد البشر، ويستمر هكذا، ويبقى في الانقلابات، بدون حقيقة يتفق عليها، وبدون مبادٍ[1] ضرورية مولدة لذلك الاعتقاد العمومي. فإذاً، ليس سند هذا الإجماع إلا حدس تولَّد من تفاريق إمارات حصلت من واقعات مشاهدات، نشأت عن مبادٍ ضرورية.

وليس سبب هذا الاعتقاد العمومي إلا مبادٍ ضرورية تولدت من رؤيتهم ومشاهدتهم، في كرَّاتٍ تفيد قوة التواتر المعنوي، وإلا، رفع الأمن من يقينيات معلومات البشر! فإذا تحقق وجود أحد من الروحانية في زمان ما، تحقق وجود هذا النوع. وإذا تحقق وجود هذا النوع، كان كما ذكره (الشرع) وبينه (القرآن)». انتهى.

* * *

(١) مباد: جمع مبادئ.

المبحث الرابع

القرآنُ وحيٌ من الرحمن

الواجب يدعونا إلى أن ننبّه القارئ الكريم إلى ناحية لها خطورتها والتي طالما سمعنا بها وقرأنا عنها؛ وهي: أن العناصر الهدّامة والمبشِّرين الاستعماريين يشوِّهون الحقائق الناصعة دائماً؛ لتوهين عقيدة الشباب [المسلم]، لدرجة أنهم لم يخجلوا من أن يفتروا على التاريخ، محاولين بذلك إقناع الناشئة الغرة بأن ما جاء به القرآن الكريم من العلوم الطبيعية الكونية كانت معروفة ومستفيضة في المدنيات القديمة المجاورة للجزيرة العربية، وقد تسرَّبت تلك العلوم إلى الجزيرة المذكورة قبل الدعوة الإسلامية بوسائل مختلفة، وحتى في عهد شباب محمد ﷺ قد قويت تلك الصلات العلمية، حيث عرفها محمد ﷺ عن طريق التلقين والسماع، أو عن طريق القراءة - كما يزعمون - وهو العبقري الفذّ ذو العقلية الجبّارة، فتمكن بألمعيته الأدبية التي لا تُجارى أن يصوغ تلك العلوم ويبثها في ثنايا القرآن الكريم في قالب جذَّاب يدعو إلى الإكبار والإعجاب! هكذا تتقول تلك العناصر الشيطانية التي تجرَّدت من كلِّ الحقائق الإنسانية والتاريخية والعلمية، قاصدة بذلك أن القرآن الذي جاء به محمد ﷺ هو من تلقاء نفسه وليس وحياً من الله تعالى!.

والآن أيها الشباب المسلم! اسمع ما سنبيّنه لك تجاه هذه المفتريات المغريات!.

فلا بد أنك اطّلعت على تاريخ الأمة العربية، وعلمت منه كيف كانت الجزيرة العربية عند الدعوة الإسلامية على عهد الرسول محمد ﷺ، وقبيل الدعوة في نواحيها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وخاصة منها العلمية، فلا حاجة إلى الإسهاب عنها، إذ إنك في غنى عن تبيانها، ولكن لا بأس من أن نذكر بعض النواحي التي تخصُّ موضوعنا هذا، ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

فلا يخفى على من درس تاريخ الأمة العربية ما كان من تفشي الأميّة تفشياً مهولاً في الأوساط العربية في البوادي والمدن منها؛ فالذين يعرفون القراءة والكتابة في كلّ قبيلة كانوا لا يتجاوزون عدد الأصابع، وأما الرسول محمد ﷺ فثبت تاريخياً بصورة لا تقبل الشك أنه كان أمياً أيضاً لا يعرف القراءة والكتابة، وكلنا نعلم أن المدارس بمفهومها اليوم لم تكن معروفة في الجزيرة العربية في ذلك العهد، ولذلك كان الجهل سائداً في محيط الجزيرة المذكورة؛ حيث لم يكن لها وسائل لتلقي العلوم العصرية حينذاك.

وأما العالم المتمدن الذي كان يحيط بالجزيرة العربية ويجاورها؛ فكان يتمثل في إمبراطوريتين غربية وشرقية؛ فالأولى الإمبراطورية الرومانية التي كانت تمثل الحضارة اليونانية غالباً، والأخرى الإمبراطورية الفارسية الساسانية التي كانت تمثل مدنيات الشرق القديم في الأغلب، وكانت تتفاعل المدنيتان المذكورتان، ويكون الاقتباس بينهما عن الطرق التالية:

١ ـ عن طريق الحروب بين الطرفين؛ حيث يكون الاتصال والاختلاط بزحف الجيوش واستيلائها على بلاد غريبة عنها، وخاصة عن طريق الأسرى.

٢ ـ عن طريق العلاقات التجارية بين الطرفين وقت السلم.

٣ ـ عن طريق الهجرة أو الالتجاء.

وهذا العامل الأخير كان له الأثر العظيم في اقتباس العلوم وانتشارها، غير أن أثر المدنية الرومانية في المدنية الفارسية كان أكثر من أثر المدنية الفارسية في المدنية الرومانية؛ لأن الأخيرة ورثت الحضارة اليونانية التي تفوق الحضارة الفارسية.

ولما كانت الإمبراطورية الرومانية تدين بالديانة النصرانية التي كانت منقسمة في ذلك العهد إلى عدة فرق؛ تختلف الواحدة عن الأخرى في عقائدها، تسرب منها إلى الشرق فرقتان كبيرتان، وهما: (النساطرة) و(اليعاقبة)، وذلك إما فراراً من الاضطهاد المذهبي، وإما لغاية التبشير.

فكانت النسطورية منتشرة في الحيرة العربية من العراق الواقعة تحت حماية الفرس، بل كانت بعض المدن في قلب الإمبراطورية الفارسية لا تخلو من شراذم النساطرة.

أما اليعقوبية فكانت منتشرة في إمارة الغساسنة العربية في الأغلب، الواقعة تحت حماية الرومان، وكان النساطرة على الأخص أكثر إلماماً بعلوم اليونان، وقد ترجموا كثيراً من الكتب اللاهوتية والفلسفة والعلوم الطبيعية عن اليونان، ومن هذه الصورة تعلم أن العلاقات العلمية بين المدينتين لم تكن قوية وشاملة، بل كانت واهية وضعيفة جداً.

أما الوسائل لتسرُّب المدنيات المجاورة إلى العرب حينذاك ونفوذ ثقافتها إليهم؛ فكانت ثلاثة أيضاً:

١ ـ إما عن الإمارتين العربيتين المذكورتين آنفاً المتاخمتين للجزيرة العربية.

٢ ـ وإما عن طريق البعثات أو الهجرة اليهودية والنصرانية التي كانت تتغلغل في الجزيرة العربية تدعو إلى دينها وتبشر بتعاليمها، وإلى جانب نشر ديانتها تحمل في ثناياها شيئاً من الثقافة اليونانية القديمة.

٣ ـ عن طريق التجارة؛ حيث كانت علاقات تجارية بين عرب الجزيرة وبين الإمبراطوريتين المذكورتين، ولكن على الرغم من ذلك لم يكن للعرب ـ وخاصة منهم عرب الجزيرة ـ معرفة وافرة بتلك المدنية، بل إنما كانت تتسرب هذه من مجرى ضيق، وقد ينال التحريف ما ينقلون عن غيرهم، فلم يكن العرب يأخذون ممن حولهم علماً منتظماً كما نأخذ نحن عن المدنية الغربية الآن، وكانت هنالك عوائق تحول دون ذلك؛ وهي:

١ ـ منها الحوائل الطبيعية بين العرب وغيرهم؛ من بحار وجبال وصحراوات، ورداءة طرق المواصلات، وعدم استتباب الأمن.

٢ ـ ومنها البعد الكبير بين العرب والفرس والروم من حيث الحالة الاجتماعية والدرجة العقلية، وأكثر ما يكون اقتباس الحضارة والمدنية إذا تقاربت العقليتان.

٣ ـ ومنها ـ وهو الأهم ـ انتشار الأمية بين العرب إذ ذاك، حتى ندر أن تجد منهم القارئ الكاتب كما بيناه آنفاً، إنما كان المخالطون للفرس والروم ينقلون حكماً أو قصصاً أو أمثالاً أو حوادث تاريخية، مما يخفُّ حمله على الناقل، ومما

يستطيع البدوي ومن في حكمه أن يهضمه[1].

هكذا كان الوضع في الجزيرة العربية من وجهة [نظر] علمية، وإن التواريخ القديمة والحديثة سواء أكانت من مؤلَّفات الشرقيين أو الغربيين؛ قد أيدت تأييداً كاملاً، واعترفت بهذه الحقيقة.

ومع ذلك كله إذا جارينا الذين في قلوبهم زيغ، وحتى إذا جارينا تلك العناصر الهدّامة في تقوُّلاتها، أو جارينا المتشككين في ذلك، واعتبرنا اعتباطاً أن العرب في ذلك العهد قد اقتبسوا ما في المدنيات المجاورة لهم من العلوم كلها من حيث لم يكونوا أقل شأناً في ذلك من علماء الروم والفرس المعاصرين لهم، بل ولنفرض أن العرب كانوا قد فاقوا معاصريهم من الروم والفرس علماً وثقافةً، وأن النبي ﷺ كان يعرف القراءة والكتابة كما يقول به بعض الناس، وكان مطَّلِعاً على معارف المدنية المعاصرة له عن طريق قراءته الكتب المتداولة حينذاك كما يزعمون، أو كان قد تثقَّف عن طريق التلقين بالسماع، فبهذه الاعتبارات وحدها نلفت نظر القارئ الكريم إلى الدلائل الخمسة القاطعة الآتية التي تدلُّ كلٌّ منها على أنَّ القرآنَ وحيٌ من الرحمن؛ وهي:

أولاً ـ المعجزة العلمية الكونية القرآنية:

إن الآيات الكونية التي جاء بها القرآن، والتي بيّنا منها في القسم الثاني من كتابنا: (بصائر جغرافية)، إذا ما استعرض القارئ عناوينها التالية، وتأمَّلها ملياً في الكتاب المذكور، فلا بد أن يوقن إيقاناً تاماً بأن المواضيع العلمية المذكورة كلها ـ دون استثناء واحدة منها ـ لم تكن معروفة في المدنيتين الرومانية والفارسية، بل إنها لم تعرف وتكشف إلا في العصور الحديثة من القرون الأخيرة، وقد جاء بها القرآن قبل ما يناهز (١٤) قرناً. أما المواضيع فهي:

١ ـ عنوان البحث: (رأي الإسلام وعلمائه في العالم الشمسي)، وانفصال السيارات من الشمس في تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠].

---

(١) فجر الإسلام، ص٣٤.

٢ ـ النقص في كروية الأرض من أطرافها في بحث تحت عنوان: (شكل الأرض) في تفسير قوله تعالى: ﴿أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: ٤١].

٣ ـ (أثر الجبال على الحياة) في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٦ ـ ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١].

٤ ـ (البرازخ المائية) في تفسير قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩ ـ ٢٠].

٥ ـ حركة الأرض اليومية والسنوية في بحث تحت عنوان: (الاختلاف في الشروق والغروب) في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]، وقوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧]، وقوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [الشعراء: ٢٨].

٦ ـ المناخ في الأرض وخاصة في القمر، وفي الجنة، في بحث تحت عنوان (المناخ) في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣].

٧ ـ (الهواء وضغطه) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

٨ ـ حصول المطر على الترتيب الطبيعي والعلمي الحديث، في بحث تحت عنوان: (المطر في نظر القرآن والعلم) في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ [النور: ٤٣].

٩ ـ ظل الأجسام، وظل الأرض، وظل القمر، في بحث تحت عنوان: (ظلال الله) في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ...﴾ [الفرقان: ٤٥].

١٠ ـ أيام السيارات وأيام الأقمار وأيام الشموس، في بحث تحت عنوان (أيام الله) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧].

١١ ـ (نهار وليل سرمدان) في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القصص: ٧١].

١٢ ـ حركة الأرض الانتقالية في الفضاء، ورجعة الاعتدالين وتأثيرات كل ذلك في أمور خطيرة، في بحث تحت عنوان: (الرجع والصدع) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ۝١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ۝١٢ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ﴾ [الطارق: ١١ ـ ١٣]

١٣ ـ (قانون الجذب العام) في تفسير آيات كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ [لقمان: ١٠]، وقوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ﴾ [الروم: ٢٥].

١٤ ـ (الحركة في الكون) تفسيراً لآيات كثيرة، ومنها: ﴿وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [يسٓ: ٤٠].

١٥ ـ (الكواكب المذنَّبة، والشهب، والنيازك) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾ [الطارق: ١ ـ ٤].

١٦ ـ (عظمة الكون) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، وقوله: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ...﴾ [الكهف: ١٠٩].

١٧ ـ (مواقع النجوم) في تفسير قوله تعالى: ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٧٧].

١٨ ـ (مصير الجبال، ويوم القيامة) في تفسير آيات كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ۝٥ فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا﴾ [الواقعة: ٤ ـ ٦]، وقوله: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [الحاقة: ١٤]، وقوله: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا﴾ [الفجر: ٢١]، وقوله: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا﴾ [طه: ١٠٥ ـ ١٠٧].

على أننا اتبعنا في تفسير الآيات القرآنية الكريمة المذكورة القاعدتين التاليتين:

الأولى: أننا لم نأتِ بنظرية علمية لم تكسب قطعية بعد، لأن النظرية

العلمية عرضة للتبدل والتغير، مما لا يجوز تطبيقها على الآيات، ولو اتفقت مع ظاهر معانيها، وإنما يطبق منها ما يكون قد اجتاز دور النظريات، وصار حقيقة ثابتة لا شك فيها، وهكذا فعلنا، فجئنا بحقائق علمية قطعية الثبوت تتفق مع ظاهر معاني الآيات، ففسرناها بها.

الثانية: هي أن الآيات القرآنية التي جئنا بها والتي أيدتها العلوم الطبيعية العصرية الحديثة، إذا ما اطَّلع عليها القارئ الكريم سيجد أنها لم توجَّه في تفسيرها وتأويلها توجيهاً يتعارض مع معانيها الظاهرة، ولا يتلاءم مع خصائص اللغة العربية وقواعدها، ولا يتنافى مع أسلوب اللغة ومألوف تعبيرها، بل إنما جئنا بحقائق علمية تنطبق انطباقاً كلياً على الآيات الكريمة التي ذكرناها من حيث مفهوماتها التي تتماشى مع ما تدل عليه الألفاظ دلالة لغوية، وتتلاءم مع سياق الآيات؛ تلاؤماً طبيعياً في غير توسعٍ وإطلاق مما لا تعرفه اللغة ولم يستعمل فيها.

وإتماماً للموضوع من المفيد جداً أن نضيف إلى ما بيّناه آنفاً من المعجزات العلمية الكونية البالغة (١٨) مادة؛ ما جاء في الرسالة القيمة: (الخصائص المحمدية) للأستاذ العلاّمة الشيخ عبد الفتاح الإمام الدمشقي، مما تدلُّ كلها دلالة صريحة أيضاً على معجزات القرآن العلمية، وعلى أن القرآن وحي من الرحمن، وها هي كما يلي:

١ـ قال العلماء: إن الكون أصله سديم، أو أثير، أو غير ذلك من الأجسام الغازية، وقد اتفقوا جميعاً على هذه الظاهرة الطبيعية في العصر الأخير، وجاء القرآن قبل (١٤) قرناً يذكر هذا بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١].

٢ ـ أظهر علماء الكيمياء أخيراً بنتيجة بحوثهم المتوالية: أن جميع العناصر أصلها واحد، فلا فرق بين ذرات المادة الأصلية، وجاء القرآن صريحاً بذلك في قوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣].

٣ ـ أجمع العلماء على أن أصل الأجسام الحية إنما هو الماء، وقد جاء القرآن بذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

٤ ـ (بنتيجة البحث الدقيق، تبين بصورة لا تقبل الشك أن الجبال بمثابة

مكاثف للسحب، ولذلك يكثر المطر في المرتفعات من العالم نظراً إلى السهول، لأن الرياح المتشبعة بالأبخرة عندما تصطدم بالجبال تأخذ بالارتفاع الذي يؤدي إلى انخفاض درجة حرارتها، فتكاثفها، فتدر مطراً). وعلى هذا إن الجبال في العالم تخزن كمية لا يستهان بها من المطر في جوفها، فتنبعث منها عيوناً وأنهاراً، والقرآن جاء بذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧].

٥ ـ أظهر علماء طبقات الأرض أن الينابيع المائية التي على سطح الأرض أصلها من المطر، وجاء ذلك في القرآن صراحة في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١].

٦ ـ أظهر علماء الطبيعة أن في كلّ شيء (جماداً كان أو سائلاً أو غازياً، نباتاً كان أو حيواناً) قوتين: سلبية، وإيجابيةً، فهي مبنية على الازدواج، وجاء القرآن بذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩]، تأمل كلمة (كل شيء).

٧ ـ أظهر البحث العلمي في أسرار الطبيعة أن للكون سنناً ثابتة، ونواميس لها السلطان المطلق، وقد جاء القرآن بذلك في قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

٨ ـ أظهر البحث العلمي أنه إذا انطمرت النباتات تحت سطح القشرة الأرضية بفعل الزلازل وغيرها، تتحوّل هذه النباتات بنتيجة الضغط والحرارة بمرور زمن عليها إلى الفحم الحجري، وخاصة منها فحم الكوك؛ يحدث من نباتات المرعى المطمورة، وهذا القرآن الكريم يقول: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ﴾ [الأعلى: ٤ ـ ٥]، وغثاء أحوى: هو الفحم الحجري.

٩ ـ قد أوجدت الحضارة تلك الطائرات السابحة في الهواء؛ فهل كان الأولون يحلمون بهذا، وقد جاء في قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ۝٤١ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يسٓ: ٤١ ـ ٤٢]، وهل للفلك مثل إلا الطائرة تسبح في الهواء كما يسبح ذاك في الماء.

١٠ ـ أجمع علماء الفلك أخيراً: أن في بعض الكواكب حيوانات؛ أي فيها

حياة لا نعرف عنها شيئاً، وجاء في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [الشورى: ٢٩].

١١ ـ إن المخترعات العلمية العصرية المدهشة تنبئنا بأنه من الممكن اختراق الطبقات الهوائية المحيطة بالأرض، والتغلب على جاذبية الأرض، والنفوذ من أقطار السموات والأرض بالطيارات أو بالصواريخ أو غيرهما، والقرآن جاء بذلك صريحاً في قوله تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾ [الرحمن: ٣٣] أي: بسلطان قوة العلم، وهذه الطيارات والصورايخ تشق السماء شقاً.

١٢ ـ توصل علماء الفلك بنتيجة رصداتهم الفلكية للشموس التي تُعد بألوف الملايين في هذا الكون العجيب، إلى أن من الشموس التي هي قديمة التكوين قد تكاثفت غازاتها الملتهبة، وبردت وذهب ضوؤها، وأما شمسنا فقد قاربت الكهولة وسيأتي يوم عليها سيذهب ضوؤها أيضاً، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً، وجاء القرآن يصرح بذلك في قوله تعالى: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ [التكوير: ١] أي: إذا ذهب ضوؤها.

١٣ ـ أجمع علماء الفلك في العصر الأخير على أن الأرض انفصلت من الشمس كسائر السيارات، والقرآن جاء قبل (١٤) قرناً يُصرِّح بذلك في قوله تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ [النازعات: ٢٧ ـ ٣٠].

١٤ ـ قال علماء الفلك: إن القمر مستمد نوره من الشمس، وهو مظلم بذاته، والقرآن جاء بذلك في قوله تعالى: ﴿ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ [الإسراء: ١٢]، آية الليل: هي القمر.

١٥ ـ أظهر علماء الفلك في بحوثهم المتوالية: أن في سنة واحدة تتلاشى عدة مجاميع شمسية، وتبرز للوجود مثلها، وأن مجموعتنا الشمسية ستصير هباءً منثوراً في فضاء الكون، ثم تعود كما بدأت على السنة العامة التي لا تقبل التحوير ولا يعتريها فتور ولا تبديل، وجاء في ذلك صراحة قوله تعالى: ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقوله تعالى: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [قٓ: ١٥]، وقوله تعالى:

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الفتح : ٢٣].

١٦ ـ إن تسوية الأصابع على ما هي عليه تعد من أدق تكوين الإنسان وكمال صنعته؛ لما امتازت تقاسيم الجلد الكاسي لها، فلا يوجد تشابه بين شخص وآخر في هذه التقاسيم، وقد اطَّلع على أسرارها في هذا العصر، وابتني عليها علم الشخصية عن طريق بصمات الأصابع، وقد جاء القرآن الكريم بهذه الرائعة في قوله تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ٣ ـ ٤].

١٧ ـ كشف العلم أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث في النبات، وكونها تثمر بالتلقيح، وكون الرياح تنقل مادة الذكورة من ذكرها إلى أنثاها فتلقحها بها، وجاء القرآن بذلك صريحاً في قوله تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ [الرعد: ٣]، وقوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ [الحجر: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ [قٓ: ٧].

١٨ ـ أخذ العلماء يتبجَّحون في العصر الأخير باكتشاف ناموس عظيم من نواميس الكون وهو: (لا يبقى إلا الصالح للبقاء)، وقد جاء بذلك القرآن صريحاً في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الرعد: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

١٩ ـ ذكرت مجلة العلم العام الأمريكية: أن الدكتور (التر) أستاذ علم الفلك في جامعة (كانزاس) أثبت حديثاً بعد أن بحث (١٥) سنة يرصد الكواكب والنجوم، فحقق أن الشمس والأرض والقمر وجميع الكواكب ستنشق وتندثر، وتتلاشى مجموعتنا الشمسية وتنتثر في الفضاء الواسع! وجاء القرآن بذلك في قوله تعالى: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ [الانشقاق: ١]، وقوله: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴾ [الانفطار: ١]، وقوله: ﴿ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴾ [الانفطار: ٢].

(والتفسير العلمي لهذه الظاهرة: هو أن بعض العلماء يقولون: إن بعض المعادن ـ وخاصة القصدير منها ـ إذا بلغت درجة حرارتها درجة الصفر المطلق (ـ ٢٧٣) تصبح في حالة توتر شديد جداً تعادل ثلاثة آلاف مرة مقدار الضغط الجوي، مما يؤدي إلى تمددها وانفجارها. ولما كان قمر الأرض وبعض

الكواكب في هذا الكون قد فقدت معظم ما بها من الحرارة الداخلية عن طريق الإشعاع، وهي تفقد باستمرار مقداراً من الحرارة أكبر مما تحصل عليه من أشعة الشمس التابعة لها، أو الحرارة التي تنعكس عليها من الكواكب الأخرى، فلا بد أن درجة حرارتها ستبلغ يوماً من الأيام درجة الصفر المطلق، وقد تكون في هذه الكواكب والأقمار من المعادن ما تتأثر بذلك وتؤدي إلى انفجارها وانتثارها!).

٢٠ ـ توجد في جوف الأرض نارٌ هائلة، والأدلة القاطعة على ذلك كثيرة، أهمها: أنه كلما تعمقنا (٣٢) متراً عن سطح الأرض ازدادت درجة الحرارة درجة مئوية واحدة. فعلى بعد بضعة آلاف من الأميال عن سطح الأرض إلى جوفها تبلغ درجة الحرارة مبلغاً تذيب أقسى الصخور، وتقدر درجة الحرارة في مركز الأرض (٦٠٠٠) درجة مئوية، وأن الزلازل تحصل من ذلك المائع الناري. والبراكين الثائرة سبب ثورانها من ضغط هذا المائع الناري على القشرة الأرضية؛ هذا في جوف الأرض، (أما على سطحها فتوجد أيضاً بحيرات بركانية تتوهج ناراً في بعض الفوهات البركانية، أو في بعض المنخفضات الواقعة على سطح الجبل البركاني، وذلك يحصل من مقذوفات البركان الثائر الذي يتدفق منه أحياناً مائع ناري درجة حرارته قد تبلغ (١٠٠٠) درجة مئوية، يملأ الفتحات البركانية ومنخفضاتها، ويتكون منها أحياناً سيل بركاني ناري هائل يكتسح أمامه كلَّ شيء. ومن أشهر البحيرات البركانية النارية هي التي تقع في رأس الجبل البركاني (مأتولوثا) في جزر هاواي في المحيط الهادي، ثم في جزيرة (زيلاندة الشمالية الجديدة) الواقعة في المحيط الهادي أيضاً؛ حيث توجد بحيرات بركانية، تتكون من مائع ناري لزج متوقد تزيد درجة حرارتها على الألف درجة مئوية، وهذه البحيرات تشغل مساحة غير قليلة من الأرض، وجاء القرآن صراحة بكلّ ذلك في مطاوي كلمتين فقط في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴾ [الطور: ٦] أي: المتوقد، ومما يجدر ذكره أن هذه الجزر المحيطية البركانية النائية لم تكشف وتعرف حتى بعد القرن السابع عشر ميلادي!.

٢١ ـ ثبت علمياً أن الغازات الهوائية، أو بتعبير آخر الجو الهوائي المحيط بالأرض، يكون واقياً وحافظاً لها من تأثيرات النيازك والأحجار السماوية التي تتساقط على الأرض يومياً بكثرة هائلة، فلولا الغلاف الغازي المذكور المحيط بالأرض لأصيبت الأخيرة يومياً بملايين القنابل السماوية، ولتعذرت الحياة على

سطح الأرض؛ لأن الغازات المذكورة تفتت تلك الأحجار السماوية، فتحولها إلى ذرات تبقى عالقة في الهواء مكونة منها الغبار الكوني المؤدي إلى زرقة السماء الخلاّبة، أو تحرقها حرقاً كما في الشهب وتحولها إلى رماد قبل وصولها إلى الأرض.

ثم في أعالي الجو يوجد غاز (الأوزون) الذي قدَّر العلماء سمكه بخمسة أميال، وهو جعله الله واقياً للأرض من الأشعة فوق البنفسجية الشمسية المحرقة لامتصاصه قدراً كبيراً منها، ولولا غاز (الأوزون) إذن لاحترق ما على سطح الأرض تماماً.

ثم ثبت علمياً أن السماء حُفِظت بما فيها من كواكب أو نجوم أن تتساقط بعضها على بعض، وذلك بتأثير القوتين الجاذبة والطاردة المتكافئتين، وترى القرآن الكريم معبراً عن ذلك بصورة صريحة في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

٢٢ ـ ثبت ثبوتاً قاطعاً لدى العلماء: أن في الإنسان خمسة خطوط دفاعية ذكرناها في رسالتنا (آيات الخالق..)، تحفظ الإنسان من الطوارئ ومن الجراثيم المضرة الكثيرة التي يتعرض لها الإنسان في كلِّ حين، وجاء القرآن صريحاً بذلك في قوله تعالى: ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ [الطارق: ٤].

وبعد هذا كله فإن ما ذكرناه من الآيات القرآنية العلمية من المجموعة الأولى، والتي فصلت تفصيلاً في كتاب(بصائر جغرافية)، والتي تناولت (١٨) موضوعاً، وكذلك ما بيَّناه في هذه المجموعة الثانية من آيات قرآنية علمية، والبالغة (٢٢) موضوعاً اقتبسنا معظمها من رسالة [الداعية] الإسلامي عبد الفتاح الإمام كما أسلفنا؛ لم تكتشف كل من هذه المواد إلا في العصور الأخيرة، مما تدل دلالة قطعية حاسمة على أنَّ القرآنَ وحيٌ من الرحمن.

ثانياً ـ المعجزة القرآنية الأدبية:

إن القرآن بفصاحته وبلاغته لخلاب جذاب يسحر الألباب: (وإن من البيان لسحراً). وفحول الشعراء والأدباء طأطؤوا رؤوسهم خاشعين إكباراً وإجلالاً لبيانه الرائع وأدبه اللامع، وأسلوبه الرفيع، وسبكه البديع. وأكابر الأدباء من عرب قريش لم يتمكنوا أن يجاروا سورة منه من أقصر السور رغم محاولاتهم

لذلك، ورغم تحدي القرآن لهم.

وعباقرة الأدب والفن ألَّفوا كتباً ضخمة في إعجاز القرآن الأدبي والفني، سواء كان القدماء أو المعاصرين منهم.

وهذه المعجزة الأدبية لتدل أيضاً على أنَّ القرآنَ وحيٌ من الرحمن. وأكبر برهان على ذلك البون الشاسع بين الصياغة اللغوية اللؤلؤية النورية التي جاءت في القرآن، الدالة على أنها إلهامية ربانية قدسية، وبين صياغة الأحاديث النبوية على روعتها في بلاغتها التي وصلت إلى الذروة!.

ثالثاً ـ منطق الآيات القرآنية المتعلقة بالوحي:

يدل على أن القرآن وحي من الرحمن. أما الآيات المنطقية فهي كما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ ـ ٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣].

وقوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس: ٢].

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣ ـ ١٤].

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الشورى: ٧].

وقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [صَ: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ [النحل: ٤٣].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٧٣ـ ٧٥].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [الشورى: ٥٢ـ ٥٣].

وقوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: ١٦].

وقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ ﴾ [الأحقاف: ٨].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ [هود: ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ [الطور: ٣٣ـ ٣٤].

وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

وقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣ ـ ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

وقوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

رابعاً ـ بيان ختام النبوة بمحمد ﷺ برهان قاطع على أن القرآن وحي من الرحمن:

فما كان لمحمد ﷺ أن يقول من تلقاء نفسه: إنه خاتم النبيين؛ لولا وحيٌ من الله. وأحسن ما قرأت في هذا الصدد ما جاء في كتاب: (دراسات إسلامية) للأستاذ عبد المتعال الصعيدي، قال رحمه الله: «لقد ختم في هذه الآية عهد النبوّة، وحكم بأنه لا نبي بعد محمد ﷺ؛ فكيف يجرؤ بشر على الحكم في مثل هذا وهو من أمر الغيب؟! وهل يمكن أن يحكم بهذا محمد ﷺ من نفسه؟ وقد مضى قبله آلاف لا تحصى من السنين يتوالى فيها الأنبياء نبياً بعد نبي من آدم إلى شيث إلى إدريس إلى نوح إلى إبراهيم إلى إسماعيل وإسحاق إلى يعقوب إلى يوسف إلى موسى وهارون إلى داود إلى سليمان، إلى عيسى بن مريم، وبين هؤلاء الأنبياء أنبياء لا يحصون عداً، لأن هناك من الأنبياء من لم يرد إلينا حديث عنهم كما قال تعالى: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

وكان كلّ نبيٍّ من هؤلاء الأنبياء يبشر بمن يأتي بعده منهم ويأمر أتباعه بانتظار بعثته، ويحثهم على الإيمان به حين ظهوره، وقد وردت بهذا بشارات كثيرة في الكتب المنزلة على أولئك الأنبياء، فوردت في صحف إبراهيم، ووردت في توراة موسى، ووردت في زبور داود، ووردت في إنجيل عيسى، ووردت في غير هذا من الكتب المنزلة على الأنبياء.

فلو كان الأمر في ذلك الحكم لمحمد ﷺ لكان من كل ما سبق ما يدعوه إلى العدول عنه، لأنه يخالف ما توالت عليه الأجيال قبله. ويشذ عما تعاقبت عليه السنون من بدء الخليقة إلى عهده. والبشر في أحكامهم لا يخرجون على حكم الأجيال قبلهم، ولا يشذون عما جرت عليه سنة الله من قديم الزمن، ومحمد ﷺ من البشر فكان عليه بمقتضى هذا أن يجري على سنة الأنبياء قبله، فلا يدَّعي أنه خاتم الأنبياء، بل يبشر بنبي يأتي بعده كما بشَّر الأنبياء قبله، ليروج بهذا أمره بين الناس؛ لأنه يستن فيه سنة من قبله من الأنبياء، ولا يشذ فيه عنهم، فيكون هذا أدعى إلى أن يرى الناس أنه نبي مثلهم، ولا سيما أن للناس شغفاً بالبشارات والتنبؤات، وميلاً إلى تصديق من يأتي بها من الكهان ونحوهم. فلا يمكن أن يكون محمد ﷺ هو الذي ادّعى أنه خاتم الأنبياء، وإنما هي من الله الذي يملك أمر النبوّة، فينزل بها ملائكته من السماء إلى الأرض إذا شاء، ويقطعها إذا شاء قطعها؛ فهو الذي أنزل هذه الآية بذلك الحكم، فحكم فيها بأن محمداً ﷺ خاتم النبيين، وبأن شريعته خاتمة الشرائع، وقامت بهذا معجزة تتحدى الزمن وأهله، فلا يجرؤ أحد على تحدِّيها، ولا يحاول مخلوق نقضها، وقد مضى عليها ما يناهز(١٤) قرناً، يتجدد فيها ذلك التحدي سنة بعد سنة، وجيلاً بعد جيل، فلا يزيد هذا تلك المعجزة إلا قوة في تحديها، وصدقاً في حكمها، لأن مثل هذه المدة الطويلة يكفي لظهور كثير من الأنبياء، وقد كان الأنبياء قبلها يتوالى ظهورهم، بل كان بعضهم يعاصر بعضاً، فما بالهم قد انقطعوا في هذه المدة الطويلة بعد محمد ﷺ؟! وما بال الزمن قد صار لا يتطلع إلى نبوّة كما كان يتطلع؟! وما بال أهله قد صاروا لا ينتظرون نبوّة كما كانوا ينتظرون؟!.

لقد فتح في الإسلام باب الاجتهاد بعد قفل باب النبوة، وجعل العلم فيه هو الوسيلة إلى الاجتهاد، فأمر الناس فيه بطلب العلم والحكمة، ولما يأت مثل هذا في دين قبله، فصار العلم فيه هو الوسيلة إلى الإصلاح بعد الدين، لأن الدين هو الأساس، والعلم يقيم بناءه في الإصلاح على أساسه، فاكتفى الناس بالعلم في إصلاح أحوالهم، وانقطع أملهم في نبوّة تظهر لهم.

ولم يختصَّ المسلمون بانقطاع هذا الأمل في النبوّة، بل صار انقطاع الأمل فيها طابع هذا العصر، ولا فرق الآن في هذا بين المسلمين وغيرهم، وإنه لأقوى دليل على صدق تلك المعجزة، لأن الأمر قد استقرَّ الآن على الاكتفاء بالنبوّات

السـابقة، فعكف أهل كل دين على دينهم، وقاموا في حدود شرائعهم يولـون إصلاح أحوالهم بأنفسهم، ولا ينتظرون في هذا وحياً من السماء، ولا يترقَّبون نبياً يبعث إليهم.

وإنها لمعجزة لها أكبر شأن في تاريخ البشر، لأنها فصلت فيه بين عهدين، فقطعت عهداً توالى الأنبياء فيه منذ بدء الخليقة على القيام بإصلاح حال الأرض، وتولى الإصلاح فيه وحيٌ السماء، وأقامت عهداً انقطع فيه ذلك الوحي من الأرض، وترك فيه أمر البشر لأنفسهم، بعد أن أدى الوحي رسالته بينهم. ولا شك أن مثل هذا لا يمكن أن يقوم به بشر، وإنما هو حكم الله تعالى في تاريخ الأرض، بعد ما نضج العقل البشري وتبين له الرشد من الغي، أليس ذلك معجزة خطيرة من معجزات القرآن؟!».

خامساً ـ منطق التاريخ:

يبرهن على أن القرآن وحي من الرحمن. أما منطق التاريخ هذا فنأخذه من وجوهه الثلاثة من حيث الزمن (الماضي والمستقبل والحاضر) نظراً لعهد الدعوة المحمدية.

أ ـ أما الوجه الأول: الماضي من منطق التاريخ؛ فهو ما جاء في القرآن عن الأمم الغابرة المندثرة من أحداث ووقائع، وما جاء فيه من وصف لهم ولبلادهم، وما كانوا عليه من مدنية وحضارة، وما نالهم أخيراً من عقاب لتنكبهم الطريق السوي، كل ذلك قد أيده علم الآثار عن طريق التنقيب والحفريات الأثرية؛ حيث عثر علماء الآثار على معالم لتلك الأقوام تطابق تطابقاً كلياً بما جاء به القرآن الكريم، مثل مملكة الفراعنة في مصر، ومملكة سبأ في اليمن، وبلاد عاد في الأحقاف، وبلاد ثمود في شمال الحجاز، وغيرها، مما يدل دلالة قاطعة على أن القرآن وحيٌ من الرحمن، لأنه لا يمكن لرسول أن يتنبأ بما وقع للأمم المندثرة التي سبقت عهده بمئات بل بألوف السنين، ما لم يتلقَّ تلك الأنباء الغيبية وحياً من الله علام الغيوب.

ب ـ أما الوجـه الثاني: المسـتقبل من منطق التاريخ نظـراً إلى عهـد محمد ﷺ، فهو ذكر القرآن بأنباء وأحداث مستقبلية وقعت كما بيَّنها، مثل غلبة الروم على الفرس في بضع سنين، وفتح مكة، والأهم من كل ذلك أن القرآن ذكر

استخلاف الضعفاء من المسلمين الأرض (على الرغم من أنهم كانوا شرذمة قليلة مستضعفة)، وقد تحققت سيادة الأمة العربية الإسلامية في فجر الإسلام، واستحوذت على معظم أقطار العالم، وكانت كلمتها هي العليا، كما بشر القرآن المؤمنين به، مما يدل دلالة قاطعة على أن القرآن وحيٌ من الرحمن.

ج ـ **أما الوجه الثالث**: من منطق التاريخ وهو الحاضر؛ نظراً إلى عهد محمد ﷺ، فنعني به المدنيات المعاصرة للدعوة الإسلامية والمجاورة للجزيرة العربية أيضاً التي ظهرت الدعوة فيها، فإذا قارنَّا بين ما عليه العالم المتمدن المعروف حينذاك من حالة اجتماعية واقتصادية وسياسية وأخلاقية، وبين ما جاء به الإسلام من مثل عليا وصلت إلى الذروة، وعلمنا من هذه المقارنة أن بين المدنية القائمة آنذاك وبين المدنية الإسلامية التي جاء بها الإسلام كما بين الثرى والثريا؛ جزمنا حتماً أن الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ هو وحيٌ من رب العالمين، لأن التاريخ لا يقر الطفرة، بينما الإسلام جاء بمُثل عُليا في عصر الرق والعبودية والإقطاع والاستبداد والعصبية الجنسية، بل والعصبية القبلية، وفي عصر النزعات المحلية والأوطان الصغيرة والآفاق الضيقة، فجاء الإسلام بفكرة عالمية وإنسانية، وقضى بالمرة على تلك الظروف الاجتماعية والفكرية القائمة وقتئذاك.

ففي تلك الظروف يأتي الإسلام ليجعل وطنه في جميع العالم، ويجعل أمته مشاعة بين كل الأجناس، ويجعل كل الأرض سواء، وجميع الأوطان سواء، فكلها تشترك في صفة (الأرض)، والقرآن يذكّر الناس بهذه الحقيقة: ﴿ يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّـٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [العنكبوت: ٥٦]، ﴿ وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، ﴿ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَـٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وهكذا تصبح الأرض كلها مسرحاً للنشاط البشري كوحدة تتداول عليها الأجيال، دون أن تنحصر النفوس حول تضاريس الطبيعة، وفوارق السياسة، والإسلام كان إنسانياً؛ لم يقدِّس جنساً ليسود على سواه، كما لم يقدِّس أرضاً إلا في أضيق نطاق (وهي: الكعبة البيت الحرام، والروضة النبويّة المطهرة، وثالث الحرمين في المسجد الأقصى؛ وكل منها لا تتجاوز بضعة أمتار مربعة) باستثناء

هذه المواضع الثلاثة كل الأرض سواء، وكل الأوطان سواء كما أسلفنا.

فهذه عالمية وإنسانية ليس في وسع عقل أن يلحقها بالفكر البشري الذي كان سائداً حينذاك، وقد كان لا يعرف إلا العصبية، فإنها تقدمية، تساير القرن العشرين الذي يبشر فيه بالعالم الواحد والأسرة الإنسانية مع فارق واحد، هو الفارق بين الحق والباطل، وبين الإخلاص والخداع.

فالعالمية والإنسانية قامتا في الإسلام في ظل عقيدة تنير الضمير، وتكون الضمان، وتحقق العدل والمساواة والحرية بين البشر قاطبة، والعالمية والإنسانية الآن صيحتان لتبرير الاحتلال والاستعمار والاستعباد، وأعظم رائعة (وكله روائع وبدائع) جاء بها الإسلام: أنه يجعل السلم قاعدة، وهو يقتلع جذور العصبية الإقليمية والدموية والمذهبية، ويقتلع جذور الطبقية، ويخفف حدة الصراع الاقتصادي، وهو بذلك يقتلع جذور الحروب ذاتها، فيفتح البحار أمام الناس كافة على اختلافهم فيما بينهم ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، ويبيح خيرات الأرض كلها للناس كلهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: ١٦٨].

هذه الروائع الإسلامية في مثلها العليا التي ذكرناها في هذه الرسالة لا يمكن أن يأتي بها بشر مهما كان متسامياً عبقرياً، في ظروف عالمية لا تأتلف بتاتاً مع تلك المثل ما لم تكن من رب العالمين.

ولا نمرّ دون أن نختم هذا البحث بآيتين كريمتين تهدفان إلى عزِّ المسلمين وسعادتهم؛ وهما:

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

أجل يدعو القرآن إلى إعلاء شأنكم في العالم أيها المسلمون، فيما لو اتبعتم ما فيه من أوامر ونواهٍ، ونفذتم ما فيه من دساتير خالدة؛ لكنتم من أرقى الأمم شأناً وعزاً ومكانة، ولقُدْتُم العالم إلى ما فيه خيره وسعادته. ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[آل عمران: ١١٠]

* * *

المبحث الخامس

كفية تدوين القرآن وجمعه

كان ولا يزال أعداء الإسلام ـ وخاصة التبشير الأجنبي منهم ـ يحوكون حول تدوين القرآن الكريم ما شاءت أهواؤهم الطائشة، وأغراضهم الدنيئة؛ فيقولون في ذلك أقاويل لا تأتلف مع الحقائق الناصعة التاريخية المتواترة، قاصدين بذلك توهين عقيدة الشباب المسلم في قرآنهم العظيم الشأن.

على أن هذا الموضوع قد طرقه علماء الإسلام قديمهم وحديثهم بإسهاب، وجاؤوا ببراهين تاريخية منطقية لا يتطرق إليها الشك في أن القرآن الكريم لم يطرأ على أي حرف أو كلمة منه أي تغيير أو تحريف أو إهمال أو ضياع عما جاء به الروح الأمين على الرسول النبي الأمي الكريم ﷺ.

ومما هو جدير بالذكر أن بعض المنصفين من المستشرقين الأوروبيين الذين يتحرَّون الحقائق بعقولهم لا بعواطفهم، قد جاؤوا في تآليفهم في هذا الصدد ما يؤيد تأييداً قاطعاً ما جاء به علماء الإسلام أيضاً، ومع ذلك كله فمن المفيد أن نأتي بملخّص ما جاءت به الكتب الموثوق بها من شرقية وغربية، مما يزيل كل شك في ذلك.

كان القرآن الكريم مكتوباً في عهد الرسول ﷺ بصورة متفرقة (في الرقاع والأكتاف والعسب، وفي ورق البردي الذي كان يرد من مصر إلى الجزيرة العربية) على الترتيب الذي نقرؤه اليوم في سوره وآياته بأمر وإيعاز من الرسول الكريم ﷺ، وكان محفوظاً على الغيب أيضاً من قبل مئات الصحابة الكرام، ولكن لم يجمع في مصحف واحد في عهد الرسول الكريم ﷺ، لأنه لا يمكن أن يجمع حينذاك والوحي لم ينقطع بعد بنزول الآيات.

ولما انقطع الوحي عند وفاته ﷺ واستشهد في حروب الردة عدد غير قليل

من الحفاظ والقرَّاء، كان الواجب المحتم يقضي بجمع القرآن الكريم في مصحف واحد، حفظاً من ضياع بعض آياته، وهكذا تم جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه باقتراح من عمر بن الخطاب رضي الله عنه من قبل لجنة برئاسة (زيد بن ثابت رضي الله عنه) كاتب الوحي، وأعضاء هذه اللجنة كانوا ممن حفظ القرآن بكامله، وممن اشتهروا بالتقوى والزهد والأمانة، ويكفي أن يكون المراقبون المشرفون على هذه اللجنة الأئمة الأربعة (رضي الله عنهم)؛ وهم: أبـو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب؛ الذين كان كل منهم يحفظ القرآن بكامله، وتتبعت اللجنة كل ما كان مكتوباً في عهد الرسول ﷺ مع مقارنتها واستشهادها بما حوته صدور القراء الحفظة البررة الذين امتازوا بقوة الذاكرة والأمانة، وهكذا تم جمع القرآن الكريم ولمّا يمر على وفاة الرسول ﷺ ستة أشهر (تأمل)!.

وقد أقر ذلك جمهور الصحابة الكرام بأجمعهم من مهاجرين وأنصار، ولم ينحرف واحد منهم عن هذا الاجماع قط! وهذه أكبر مأثرة سجلها التاريخ للصديق وللخطاب رضي الله عنهما، وبقي هذا المصحف محفوظاً عند أبي بكر رضي الله عنه حتى توفاه الله، ثم عند عمر بن الخطاب حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

وفي عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه حيث كثرت الفتوحات وظهرت في الأمصار بعض القراءات المختلفة اللهجة التي لا تأتلف مع إجماع الصحابة فيما كان مسـجلاً من آيات في المصحف المحفوظ الآنف الذكر؛ اضطر (عثمان بن عفان رضي الله عنه) إلى استنساخ ست نسخ طبق المصحف المحفوظ عند (حفصة رضي الله عنها)، وذلك بإشراف لجنة أيضاً قوامها من أخيار الصحابة، قد اشترك أعضاؤها من قَبْلُ في جمعه في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه في هذه اللجنة أيضاً كمراقب يشرف على هذا الاستنساخ الذي كان أيضاً بموافقته وإقرار جمهور الصحابة في المدينة ولم يشذ عنه واحد أبداً، وأرسلت هذه النسخ إلى الأمصار، وأمر عثمان بإحراق غيرها، وهذه البادرة كانت مفخرة لعثمان أيضاً يقدر عليها أعظم تقدير، إذ إنه بعمله هذا حفظ القرآن الكريم من الاختلاف.

وأكبر دليل ساطع وبرهان قاطع على أن القرآن لم يطرأ على آية كلمة منه أي تغيير أو تحريف عما جاء به الوحي؛ هو النص القرآني العظيم في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧].

* * *

المبحث السادس

المعجزات التي جاءت على يد الرسل عليهم السلام

كلنا نعلم ما بيّنه القرآن الكريم من معجزات خارقة للعادة على يد الرسل عليهم السلام، ونعلم ونسمع أيضاً ما تقول به بعض العناصر المثقفة التي أبهرتها العلوم العصرية من نكران لتلك المعجزات؛ بزعمهم أنها خرق للنواميس الكونية، ولا يمكن بأي حال من الأحوال (على زعمهم) خرق تلك النواميس، فنكرانهم هذه الحقيقة التي جاء بها القرآن يعدُّ هدماً للدين الإسلامي. وعلى هذا دفعاً للشكوك التي قد تساور أذهان شبابنا المتعلم في هذا الصدد، نأتي ببينات تنير بصائرهم، وتجعلهم ـ بإذن الله ـ يؤمنون بتلك الخوارق من المعجزات.

فالمعجزات بصورة عامة تفسَّر بالحالات الثلاث التالية؛ وهي: إرادية، وفلسفية، وعلمية.

أولاً ـ الإرادية:

وأقرَّها جمهور العلماء: بأن الله إذا أراد شيئاً لا بد أن يكون؛ وإن كان خرقاً للسنة الطبيعية التي خلقها هو يتصرف بها كيفما يشاء.

وأحسن ما قرأت في هذا الصدد ما جاء في كتاب (العقل المؤمن) للأستاذ العلامة عبد المنعم محمد خلاف، ننقله بنصه؛ قال حفظه الله: «إن أعمال الإنسان الآن إنما هي تفسير لما آمنَّا به عن صفات الله وأعماله؛ فقد كانت عقول أكثريتنا القاصرة لا تفهم أن أمور الله في التكوين والتخريب والعلم والاتصال بمخلوقاته إنما هي قوله للشيء: (كن) فيكون، وقد كانت عقول قدمائنا ـ حتى عقول بعض الأنبياء ـ لا تدرك عمل الله سبحانه في التكوين والإحياء، وتتوهَّمُه سبحانه خاضعاً في عمله للوسائط والأدوات والكيفيات المادية، فكان بعضهم يسأله: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وقوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨]، وقوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ [آل عمران: ٤٧]. . . وهكذا كانت عقول

البشرية لا تدرك أن الله سبحانه الذي خلق هذا العجب الذي نراه من لاشيء؛ لا يجوز أن يكون مقيداً بقوانينه التي هو واضعها، وأنه لا شك يستطيع أن يخلق عجباً غيرها إذا أراد تغيير سنته في نشأة أخرى، وأنه إن خرقها في حادثة جزئية فذلك استثناء يشير إلى القاعدة، وينبِّه الأذهان إليها، فلما وصلنا إلى درجة من العلم والقدرة، تتيح لنـا أن نقول لكثير من الأشياء: (كوني) فتكون بسرعة البرق واللاسلكي والكهرباء، بعد أن نهيِّئ لها قوانينها، ونتخذ لأبوابها مفاتيحها، فلا يجوز حينئذ أن يخفى علينا تفسير قول الله: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢]. إذ إننا على عجزنا وضآلتنا ومحدوديتنا؛ استطعنا أن يضيء الطفل منا مدينة بضغط أصبعه على مفتاح كهرباء، فيطلع فيها شمساً، وأن يجري أنهاراً من الماء في بيته بفتح صنبور ماء، وأن يتصل بمن يريد وبما يريد فيراه ويسمعه ويسمع أنفاسه، ويرى حركاته من أقصى الأرض بالتلفزيون والتلفون والراديو والرادار، وينسف مدينة عظيمة بقنبلة ذرية كالبيضة أو كالفولة، وأن يحارب أعداءه بالطائرات والدبابات التي تسير باللاسلكي فيجعلها تكر وتفر، وتقبل وتدبر في ميادين الحرب، وهو عنها بعيد بمئات الأميال.

فما بالنا بالخالق البارئ، والمبدع والمنشئ مخلوقاته من لاشيء؟!».

ثم تطرق بعد ذلك إلى (المعجـزة الحسـية) فقال: «إن تلك العقبة التي يصطدم بها أكثر الباحثين المتشككين في طريقهم إلى الإيمان بالنبوّة؛ لأنهم يرون في إيجادهـا خرقاً للنامـوس العام الذي ينتظم الطبيعة، وخروجاً على سـنن اطِّرادها، ويرون الإيمان بالنبوّة لا يكون إلا بالإيمان أيضاً بهذا النوع من الأفعال الخارقة لسنة الطبيعة، فيقفون متردِّدين محجمين عن الإيمان بالنبوة والوحي، إذ يجدون في الإيمان بهما عقبة المعجزات الحسية، فيذهبون إلى تأويل النبوّة والوحي بتخريجات لا تتفق مع الإيمان الصحيح، ولا مع نصوص القرآن الصريحة، ولا مع منطق النبي نفسه، ومعنى النبوّة التي أدركها في روحه وفكره، وحدثنا عنها، ووصفها لنا. . .».

ثم يقول: «أما المعجزات الحسية؛ فيحدثنا عنها القرآن حديثـه القاطع بوجـودها: القرآن المعجز الدائم يحدثنا عن ناقة خرجت من صخرة، وعصـا انقلبت حية، وطير خرج من طين، وعن كثير من الآيات (المعجزات). . بحديث صريح لا يقبل تأويلاً ولا تخريجاً غير ما يحتمله لفظه.

ولم يُشِر القرآن بأية إشارة إلى أن الأنبياء الذين جرت على أيديهم هذه الخوارق كانوا على علم بأسرار ما يفعلون، بل بالعكس؛ يحدثنا: أن موسى خاف وفرَّ وولَّى مدبراً حين رأى عصاه تنقلب إلى ثعبان، مما يدل على أنه ما كان يدري بسرٍّ ما يجري أمامه.

إذن فقد حبط قولهم: إن تلك الخوارق ناشئة من إدراك النبي سراً من أسرار الطبيعة لم يدركه غيره، وينبغي أن نذكر دائماً أن كلَّ شيء في الطبيعة معجزٌ ومحيرٌ، وأن إضافة شيء إلى الطبيعة من أعمال الايجاد والخلق في ظروف استثنائية تقضي الضرورة بإحداث حجة حسية دامغة فيها. تلك الإضافة لا تزيد عجباً ولا تستحق دهشة أكثر من غيرها من الموجود قبلها.

وينبغي أيضاً أن نمنع خيالنا من تصوُّر الله تعالى خاضعاً لطرق صناعتنا؛ فهو لا يحتاج إلى مخابر، ولا معايير، ومنافيخ، وآلات، ومعامل، حتى يخرج شيئاً؛ وإنما المسألة بالنسبة إليه هيّنة، وقد وهم إبراهيم عليه السلام ـ كما سبق القول ـ حتى قال له: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٠]؛ إذ إنه ظن أن هناك كيفية وأسلوباً محسوساً لإيجاد الله الأشياء، فلم يرَ من كيفية الخلق أكثر من الأسلوب الذي نراه كلَّ يوم وكلَّ ساعة في وجود الأشياء من نبات وحيوان، وفي تجدد المادة والقوة والطاقة.

فالأمور والأشياء من أولها إلى آخرها معجزات وآيات محيّرات، ولو خلقنا بأيدينا لم يذهب ما بنا من حيرة ودهشة!. أقول هذا وأطيل، لأبين للذين تصدمهم المعجزات الحسية المنسوبة إلى الرسل السابقين قبل محمد ﷺ، وتصدّهم عن الإيمان بالنبوّة بمعناها عند جمهور الناس، أن أمرها أهون في التقدير ممّا يتصوَّرون، وأنها لا تستلزم هذه الحيرة والدهشة: لأن الله يفعل مثلها في كلِّ دقيقة ملايين الملايين! ثم إن الله تعالى لم يضع قوانين التكوين ليتقيَّد بها كالأغلال والأصفاد، فلا مانع أن يحطمها في جزئياتها التي يدركها الناس عن قرب في ظروف استثنائية، حتى لا يتوهم ـ كما توهم بعض فلاسفة اليونان ـ أن الله لا يقدر على مخالفة سنن الطبيعة» انتهى.

ثانياً ـ الفلسفية:

جاء بعض الفلاسفة من علماء الإسلام في صدد المعجزات الحسية؛

ما خلاصته فيما يأتي: يقول الفلاسفة من المسلمين: «إن سنة الله لا تقبل التبديل والتحويل؛ بدليل الآية الكريمة: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣]، وقوله: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢]، وسنَّة الله هي النواميس الطبيعية، وإذا كانت سنته لا تقبل التبديل والتحويل؛ كان من المحال أن نتصور القدرة الربانية المطلقة خارجة عن حدود سنة الله، لأن القدرة المطلقة هي سنة الله نفسها؛ فكيف يمكن تصورها خارجة عن نفسها؟! إذ يكون معنى ذلك أن القدرة الربانية تستطيع أن تخالف القدرة الربانية المطلقة، وهذا هو المحال بعينه، وأن قدرة الله لا تتعلق بالمحال، ولا يلزم في هذا القول أن قدرة الله محدودة غير مطلقة، وأن الله غير قادر على المحال؛ كلا! لأن المحال هو الخروج عن سنة الله التي هي قدرته المطلقة نفسه، وليس للعجز معنىً بالنسبة إلى القدرة المطلقة، إذ لا يعقل بوجه من الوجوه معنىً لقولنا: إن القدرة المطلقة عاجزة عن الخروج عن نفسها، أي: عاجزة عن أن تخالف نفسها. إذا تدبرنا هذا وفهمناه جيداً فقد علمنا أن المعجزة الخارجة عن حدود سنة الله من الأمور المستحيلة التي لا تتعلق بها قدرة الله، وأن المعجزة الحقة هي المعجزة التي تقع في حدود سُنَّة الله».

هذا ما قال به الفلاسفة من علماء الإسلام، وأظنك تدرك ـ أيها القارئ ـ مغزاها فيما إذا تدبرتها، ولكن نحن نقول بما نقلناه في المادة الأولى الآنفة الذكر: (الإرادية) بأن الله تعالى قادر على كل شيء قدير، فعندما تتعلق إرادته في شيء يقول له: ﴿كن﴾ لا بد أن يكون مطلقاً.

ثالثاً ـ العلمية:

إن المعجزة الحسية تكون عن طريقين: فإما أن تكون عن طريق خرق النواميس الكونية، وإما عن طريق السنن الطبيعية نفسها دون وقوع خرق ما!. ويقصد بخرق الناموس الكوني: انحراف القوى الطبيعية وما يتعلق بها عن مألوف القانون التي تسير عليه، ويكون هذا الخرق على نوعين: إما خرق غير طبيعي، وإما طبيعي.

والمثال على النوع الأول: حركة الكواكب السيارة، ومنها الأرض، حول نفسها وحول الشمس بتأثير قانون الجاذبية من حيث لا تحيد عن مسارها وفلكها، فإذا الأرض أو أي كوكب آخر خرجا عن فلكهما رغم جاذبية الشمس لهما، وهاما

بالفضاء على غير هُدى، فيُعد هذا الخرق غير طبيعي لنواميس الكون، وهذا النوع من الخرق لا يكون أبداً كما جاء في المادة الثانية (الفلسفية)؛ إذ إنه مستحيل الوقوع طبيعياً دون إرادة الله وقدرته.

وأما النوع الثاني: فهو الخرق الطبيعي فيما إذا كان العامل في ذلك قوة طبيعية أخرى، كان لها الأثر الأعظم في تفكيك المنظومة الشمسية مثلاً؛ فاقتراب نجم جبار هائل للعالم الشمسي، حيث يصطدم به فيجعله هباءً منبثاً، أو يؤثر عليه دون اصطدام، فيجعل الكواكب تحيد عن أفلاكها المعينة، كما يقع أحياناً في هذا الكون لأمر أراده الله فيها.

وأكبر مثال على هذا النوع الأخير من الخرق: إمكان الوصول إلى تحطيم الذرة، وانطلاق طاقتها المهولة المروعة بنواميس طبيعية أخرى.

فالمعجزات التي جاءت من هذا النوع قد وقعت على تلك الطريقة التي يجب أن نعتقد بوقوعها، بعدما علمنا كيفية تحطيم الذرة، إذ على غرارها قد تظهر المعجزات بتأثير السنن الطبيعية نفسها التي يتصرف بها خالق الكون كيفما يشاء، وحسبما أراد، في أي وقت كان، وكيف لا والمخلوق على قصر عقله نسبة إلى المدبِّر الأعظم جاء أخيراً بمعجزات علمية تذهل العقول؟! فما تشاهده من التغيرات في قوانين الطبيعة أحياناً تحدث بتوسط قوى طبيعية أخرى لا نعرفها، كما حدث في انفلاق الذرة، فلا وجه لردها وإنكارها جملة، وهذه القوى مجهولة لنا مع أنها مكنونة في الطبيعة العظمى وليس بمستبعد تأثيرها في حين ما، وفي صورة ما.

ولهذا ليس من العلم والعرفان إنكار كل ما نسمعه عن المعجزات بدعوى أنها مخالفة لقوانين الطبيعة بدون بحث وتدقيق، بل إن الإنكار يدل على الجهل والطغيان! أما ترى ـ رعاك الله ـ كيف أن الماء في تجمده وسيلانه شذَّ عن قوانين الطبيعة، بل خرقها خرقاً؟! وذلك خلافاً لما عليها الأجسام الأخرى كلها، من انبساط في الحرارة، وانقباض بالبرودة، إلا الماء فإنه ينبسط ابتداءً من أربع درجات فوق الصفر، وكلما تقدم نحو الصفر زاد انبساطاً! فلا مانع من عدِّ المعجزات شذوذاً [بل خوارق] كذلك!.

أما الطريق الثاني للمعجزات فهي طبيعية ليس فيها خرق للنواميس الكونية، بل تأتي المعجزات حسب السنن الكونية والقوانين العامة على أساليب علمية بحتة، كما جاء الإنسان بهذه المعجزات العلمية أخيراً عُدَّت كخوارق للعادات، فهذه السفن الهوائية التي تشق السماء شقاً بسرعة عظيمة لمسافات بعيدة تستغرق آلاف الأميال، وهذه المخابرات والمكالمات بين شخصين يبعد الواحد عن الآخر آلاف الأميال، وهذه الحفلات والخطب و . . . التي نسمعها وحتى نراها من بعد آلاف الأميال عن طريق المذياع والتلفزيون، وهذه الطائرات التي تطير دون سائق من تلقاء نفسها . . . وغير ذلك كثير من مدهشات العلم، هل كنا نصدق بها قبل ظهورها؟! كلا؛ ولَكُنّا اتَّهمنا قائلها بالجنون! ولكن تحقق كل ذلك وسيتحقق في المستقبل القريب والبعيد من معجزات العلم، ما تدهش الألباب؛ أليس من الحصافة العقلية والتفكير الصحيح أن نعتقد بما جاء من المعجزات في القرآن الكريم؟! وهذه معجزات العلم الحديث تبهر أبصارنا وبصائرنا!.

وختاماً نزين هذا البحث بما جاء به البحاثة العلامة سعيد النورسي في تفسيره العظيم في هذا الصدد، في تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

قال رحمه الله: «اعلم أن هذه معجزة آدم، تحديت بها الملائكة، بل معجزة نوع البشر في دعوى الخلافة: (إن في القصص لعبراً)، ثم إني نظراً إلى (أن لا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين)، ومستنداً إلى أن التنزيل كما يفيدك بدلالاته ونصوصه ـ كذلك بإشاراته ورموزه ـ لأفهم من إشارات أستاذية إعجاز القرآن في قصص الأنبياء ومعجزاتهم ـ التشويق والتشجيع للبشر على التوصل للوصول إلى أشباهها. كأن القرآن ـ بتلك القصص ـ يضع أصبعه على الخطوط الأساسية، ونظائر نتائج نهايات مساعي البشر للترقي في الاستقبال الذي بُني على مؤسسات الماضي الذي هو مرآة المستقبل؛ وكأن القرآن يمسح ظهر البشر، بيد التشويق والتشجيع، قائلاً له: اسعَ واجتهد في الوسائل التي توصلك إلى بعض تلك الخوارق، أفلا ترى أن (الساعة) و(السفينة) أول ما أهداهما للبشر ـ يد المعجزة!

وإن شئت فانظر إلى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

وإلى : ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سبأ : ١٠].

وإلى ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ﴾ [سبأ : ١٢] أي : النحاس.

وإلى قوله تعالى : ﴿ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة : ٦٠].

وإلى : ﴿ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى﴾ المائدة : ١١٠].

ثم تأمَّل، فيما مخضه تلاحق أفكار البشر واستنبطه! من ألوف (فنون)، ناطق كل منها بخواص وصفات وأسماء نوع من أنواع الكائنات. حتى صار البشر مظهرَ : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ .

ثم تفكَّر فيما استخرجه فكر البشر، من عجائب الصنعة : من (السكة الحديدية)، و(الآلة البرقية) وغيرهما. . . بواسطة تليين الحديد، وإذابة النحاس، حتى صار مظهر ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ الذي هو أم صنائعه! وفيما أفرخته أذهان البشر : من (الطائرات) التي تسير في يوم شهراً! حتى كاد أن يصير مظهرَ ﴿ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ : ١٢].

وفيما ترقَّى إليه سعي البشر، من اختراع الآلات والعصي، التي تضرب في الأرض الرملة اليابسة فتفور منها عين نضاخة، وتصير الرملة روضة. حتى أوشك أن يصير مظهر ﴿ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ [البقرة : ٦٠]، وفيما أنتجته تجارب البشر، من خوارق الطب التي حقق أن يبرئ الأكمه والأبرص والمزمن بإذن الله، ترى مناسبة تامة، تصحح لك أن تقول : تلك مقاييسها، وذكرها يشير إليها، ويشجع عليها.

وكذا؛ انظر إلى قوله تعالى : ﴿ يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ [الأنبياء : ٦٩].

وإلى قوله تعالى : ﴿ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يوسف : ٩٤].

وإلى : ﴿ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ [سبأ : ١٠].

وإلى : ﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [النمل : ١٦].

وإلى قوله تعالى: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾ [النمل: ٤٠].

ثم تأمَّل: فيما كشفه فكر البشر: من مرتبة النار التي لا تحرق، ومن الوسائط التي تمنع الإحراق! وفيما اخترعه من الوسائل التي تجلب الصور والأصوات من مسافات بعيدة، يحضرها إليك قبل أن يرتد إليك طرفك! وفيما أبدعه فكر البشر، من الآلات الناطقة بما تتكلم، وفي استخدامه أنواع الطيور والحمامات، وقس عليها لترى بين هذين القسمين ملائمة يحق بها أن يقال: في هذه رموز إلى تلك!» انتهى.

* * *

المبحث السابع

الحياة والموت

١ ـ الحياة:

لم يتمكَّن العلم أن يعرف سر الحياة؛ ولكن الإنسان ليشاهد أثرها في هذه الدنيا؛ فالحياة النباتية مثلاً تتوقف على التربة والماء والهواء والحرارة والضوء. فهذه العوامل الخمسة بتفاعلها الكيميائي والفيزيائي تنبت البذرة أوالنواة، وتأخذ بالنمو والازدهار.

وإذا نظرنا إلى البذرة قبل وضعها في التربة نراها ميتة لا حياة فيها، ولكنها تحيا وتنمو بعدما تتفاعل كيميائياً وفيزيائياً مع العوامل الخمسة المذكورة آنفاً كما في قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ [الأنعام: ٩٥].

ولم يتوصل العلم حتى الآن ـ ولن يتوصل أبداً ـ إلى أن هذه العوامل لماذا وكيف أحيت هذه البذرة بعد موتها؟! ورُبَّ قائل يقول: إن هذه البذرة التي نراها في حكم الميتة ظاهراً أنها كامنة فيها الحياة؛ مهما كانت جامدة صلبة، ومهما مرَّ على جمودها مدة طويلة، فعندما تمسها وتتفاعل معها تلك العوامل من تربة وماء وهواء وحرارة وضوء، تظهر الحياة فيها ظهوراً جلياً بعدما كانت مختفية فيها، ولكن إذا جارينا القائل فيما زعمه في ذلك يجب أن نسأله: ما هو العامل الذي جعل الحياة أن تكمن في تلك البذرة أو النواة لمدة طويلة؟! فلا يمكن الإجابة على هذا السؤال من وجهة علمية قطعياً، أجل إن التربة والماء والهواء كل منها زاخر بالحياة لما فيها من ملايين (البكتريا) والجراثيم الحية، على الرغم من أن التربة الصلبة، والماء السائل، والهواء الغاز، كأنها ميتة ظاهراً لا حياة فيها، وهذه البكتريا تموت منها في كل لحظة من لحظات الزمن ملايين، في حين تحيا في كل لحظة منها ملايين، وبعد هذا نسأل: كيف تظهر إلى الحياة هذه الملايين من البكتريا، وكيف نشأت أول جرثومة حياتية على وجه الأرض؟ فالعلم سيبقى حائراً وصامتاً، ولن يطلع على هذا اللغز من الحياة!!.

٢ ـ الموت:

الحياة نعمة، والموت رحمة. إن الخليقة تابعة لقانون أصلي شامل، كما أن سير العالم ودوامه وتسلسله وامتداد نوع الإنسان وتطوره تابع لقواعد خاصة ناشئة من ذلك القانون، ومن مستلزمات هذا القانون: أن حياة ذوي الأرواح ورفاهيتها على ظهر الكرة الأرضية قائمة على إزهاق حياة المخلوقات الأخرى، وربما قامت على إزهاق أرواح أفراد من نوعها، فيهزم القوي الضعيف ويهلكه في هذا القتال! إن هذه الحالة التي تبدو مكروهة في بادئ الأمر هي مقتضى الطبيعة وسبب دوام الحياة، وقيام الحياة على الممات حقيقة ثبتت عند المفكرين بالتحقيق والحساب، وهذا هو النظام الطبيعي لهذه الدنيا التي هي في حكم ذرة في الكون!

أيها القارئ الكريم: اعلم أن ما ينتج زوج من الذباب العادي خمساً وعشرين مليوناً من الأولاد والأحفاد في العام الواحد، وإذا قدر عدم موتها فإن ما ينتج في خمسة أعوام($١٠^{٣٥} \times ٣٢^{٣}$) أي: يكون مدلول (٣٥) صفراً إلى يمين العدد (٣٢)، وإذا قدر حجم ذبابة مليمتراً مكعباً (وهو في الحقيقة أكبر منه)؛ فيحدث من تراكم بعض هذا العدد فوق بعضه بلا فاصل حجم أكبر من الشمس التي هي أكبر من الكرة الأرضية مليوناً وربع المليون مرة!!

يضع حي من الأحياء الدورية ثلاثين بيضة مرة واحدة، وينتج سبعين بطناً في العام الواحد، فيبلغ مقدار ما ينتجه في عام ($١٠^{١٠٢} \times ٢٥$) أي: حاصل (١٠٢) صفراً إلى يمين العدد (٢٥)، ولو فرض حجم الحي ميكروناً (الميكرون واحد من مليون من المتر) مكعباً؛ فالحجم الناتج من تراكم بعضها فوق بعض بلا فاصل يكون مكعباً في ضلع ما يقرب من ثلاث تريليونات سنة ضوئية!! وتناسل الأحياء المائية والنبات وتكاثرها على هذه الصورة!!.

ويفهم من هذا أنه إن لم يكن الموت؛ فتناسلُ الحيوان والنبات يجعل الحياة مستحيلة، ويبيد ملك الخليقة، فلهذا تقوم الحياة على الموت، وعلى الموت غير الطبيعي، وتجري وفرة التناسل على نظام خطير من الأحياء الدنيئة والنبات، ولهذا تتم الموازنة بكون الصغار طعاماً للكبار.

إنما قصدنا بهذه الأرقام تزويد أرباب التأمل والبصيرة من القرّاء الكرام

بفكر إجمالي، ومثال علمي عن عظمة الخليقة وحكمتها البالغة، وعن النكت الدقيقة حول قانون الطبيعة، فالنتيجة إذن أن الحياة في هذه الدنيا قائمة على الموت، فلولا الموت لما كانت حياة، فالموت إذن رحمة، فيلزم التسليم لإرادة الله الحكيم العليم، الذي قدر الحياة على الموت لأسباب خفية غير مفهومة بعد!![1].

* * *

(١) الدين والعلم، للمشير عزت باشا التركي، المترجم إلى العربية.

المبحث الثامن

الدلائل على وجود الروح

ابتلي العالم البشري بأناس لا يعرفون من الكون إلا المادة على ظواهرها، ولا يعترفون بحقائقها الروحية المعنوية، بل ينكرون أنَّ لكلٍّ شيء عرضاً وجوهراً، بل يعتقدون بما ظهر منه فقط دون جوهره، والمقصود بالعرض ما ظهر وعرف من الشيء، والمقصود بالجوهر حقيقة الشيء وماهيته؛ وهو روحه.

ويعترف علماء الفلك الطبيعيون: بأن حقيقة الأشياء هي حقيقة عقلية أو روحية، وأن الظاهرة المادية ما هي إلا نتيجة للاختيار وشرود الفكر من الوحدة الروحية التي تكمن وراءها!.

ويقول المشير أحمد عزت في كتابه (الدين والعلم): «إذا حقق الأمر تحقيقاً عقلياً وفلسفياً؛ فإن احتمال وجود الروح و خلودها أقوى، فمنذ ثلاثة أرباع القرن كان الكيمياء العضوي والكيمياء المعدني، منفصلاً أحدهما عن الآخر، ويظن تركيب المواد العضوية النباتية من ذرات غير ذرات المواد المعدنية، ثم اتضح بعد الاكتشافات الأخيرة أن المواد العضوية النباتية والحيوانية ليست مغايرة للمواد المعدنية، وأنها مركبة غالباً من الأيدروجين والأوكسجين والآزوت والكربون والفوسفور، وأن عظماء الكيميائيين قد اعترفوا متواضعين متدينين بأن لا يمكن إيجاد بيضة جرثومة، أو عضلة من أصغر العضل، أو عصب، أو تركيب ورقة بسيطة صالحة للنشوء والنماء، واعتقدوا بوجود قوة معنوية للحياة لا نستطيع إدراكها، ونظراً للعجز عن إيجاد مادة عضوية ذات حياة مع أن أجسام النبات والحيوان الظاهرية مركبة من مواد، ويمكن تحليل المادة وتركيبها كيميائياً يلزم بالضرورة الاعتراف بوجود قوة خفية من أسرار الخلقة في النبات والحيوان، أما بناء الماديين قضيتهم على أساس احتمال كشف ذلك السر في المستقبل فخليقة بالرفض منطقياً، وإذا سميت هذه القوة الحيوية بالروح فمن أي شيء يلزم جرحها!» انتهى.

فالإنسان ذو البصيرة النفَّاذة يعتقد بحقائق الأشياء من آثارها، وإن كان لم يتمكن من إدراك ماهيتها، ونأتي بما يلي بأهم تلك الآثار التي توصلنا إلى الاعتقاد بوجود الروح:

أولاً: منها الخوارق العقلية والفكرية المتمركزة فينا، فلا يعقل أن تكون هذه القوى نتيجة تفاعل كيميائي وفيزيائي فحسب كما يقول به بعض المتفلسفين، وإلا لكان بإمكان العلم أن يتوصل إلى إيجاد هذه القوى عن طريق المعامل الكيمياوية والفيزيائية!.

ويكفي أن نأخذ من تلك القوى في الإنسان: القوة الذاكرة مثلاً؛ فالدماغ الإنساني ـ وهو عبارة عن غدة مخية ـ كأنه سجل تاريخي يشبه المكتبة، فمئات الأحداث والوقائع والمشاهدات والمسموعات قد سجلت تسجيلاً في إحدى مراكز الدماغ؛ حيث انطوت فيه على أنها نظمت تنظيماً منسقاً، فإذا أراد الإنسان أن يتذكر شيئاً ما ولو مرَّ عليه عشرات السنين؛ راجع تلك المكتبة الدماغية والتقط منها ما شاء، وتصفحها فيتذكّر ذلك الشيء، بصوره ووقائعه كما هو؛ فهل هذا الدماغ بأعصابه وتعرجاته وتلافيفه وتفاعله الفيزيائي والكيماوي فحسب، كوَّن هذه القوة الخارقة العجيبة؟! كلا ثم كلا! فلا بد من قوة روحية ومعنوية لا نعرف ماهيتها هي التي أوجدت هذه القوة المدهشة في الدماغ حسب قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٨٥].

ثانياً: ومن الأدلة على وجود الروح ما ظهر في السنين الأخيرة عن طرق فنية للاتصال بأرواح الموتى ومكالمتهم، وأخذ الأخبار عنهم؛ حيث استفاضت هذه الظاهرة وشاعت[1].

ثالثاً: ومن الأدلة الحاسمة على وجود الروح (التنويم المغناطيسي) الذي شاع وذاع كما هو معروف لدى كثير من الناس، فلا يعقل أن إنساناً غاب عن وعيه تماماً يجيب عن أسئلة لا يمكن أن يطلع على أسرارها فيما لو كان واعياً.

---

(١) ومن المعلوم الآن أن هذا الاتصال لم يكن مع عالم أرواح الموتى، وإنما كان اتصالاً بالجن. انظر للتوسع: كتاب (وازن الأرواح) للشيخ الدكتور عبد الحليم محمود رحمه الله. (ن)

رابعاً: والدليل القاطع على وجود الروح (التخاطر عن بعد) الذي يدعى بـ (التليباثي)، ومن الأمثلة الخارقة الباهرة التأريخية لهذه الظاهر العجيبة حادثة عمر بن الخطاب الشهيرة، إذ وقف يصلي بالناس في المدينة المنورة، ثم إذا به فجأة يقول: (يا سارية الجبل الجبل)، فسمعه (سارية) وهو يحارب في إيران، وانتفع بنصيحته فانتصر على عدوه، مع أنه كان يفصل بينهما ألوف الأميال.

خامساً ـ (الأحاسيس الخفية) لدليل واضح أيضاً على وجود الروح: فكيف أحس أن أمراً ما سيحدث بعد قليل، ثم يحدث ماتوقعت على نحو من الإيحاء، وهذا واقع لا نكران فيه لكثير من الناس!!.

سادساً ـ (الحلم التنبؤي) أكبر دليل على وجود الروح: فما هو السر العجيب الذي يطلع به الإنسان على الغيب، فيرى ما لم يقع بعد على طريقة الرمز حيناً وبعض تفاصيله أحياناً، بل بكل تفاصيله الدقيقة في بعض الأحيان بحسب درجة الحلم من الصفاء الروحي والقدرة على الاستشفاف، إنه من أسرار الخالق العظمى التي لم يكشف بعد عنها لبني الإنسان. وهذه الظاهرة العجيبة كثيراً ما وقعت لغير قليل من الناس الذين يعترفون بها مستغربين!!.

سابعاً: فلنقرأ ما يقوله العالم الفلكي الطبيعي (كميل فلاماريون) الفرنسي، وذلك بما وصل إليه بمجهوداته التي جاوزت نصف قرن إلى النتائج التالية:

أ ـ الروح موجودة في هوية حقيقية منفصلة عن الجسم.

ب ـ ولها خواص لم يكتشفها العلم بعد.

ج ـ وهي تقدر على التأثير من بعد دون توسط الحواس.

د ـ وفي الطبيعة عناصر روحية مؤثرة، ولكن أصلها وحقيقتها مجهول.

هـ ـ والروح تستمر بعد الجسم المادي وتستطيع القيام ببعض المظاهر عقب الموت.

مثال واضح للدلالة على وجود الروح:

وتقريباً للأذهان يمكن أن نشبه الروح نسبة للإنسان كنسبة التيار الكهربائي لجهاز الراديو، إن سيال التيار أو المجرى الكهربائي هو العامل في تشغيل جهاز

الراديو؛ فإذا وقع خلل في جهاز الراديو فالتيار الكهربائي لا يمكن أن يؤثر على الراديو ويشغله، إلا إذا كان الجهاز صحيحاً، وكذلك الروح نسبة للإنسان، يتوقف تأثيرها على جهاز الإنسان، صحيحاً كان أو سقيماً أو عاطلاً بالمرة! فتعتقد أيها الإنسان بوجود التيار الكهربائي من آثاره، مع أنك لم تتمكن أن تحسه مادياً، ولا يمكن أن تراه فهو من القوى الخفية لا تعرف حقيقتها! فكيف لا تعتقد بوجود روح لك آثارها بادية عليك، وإن كنت لم تطلع على حقيقتها! ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧].

وإتماماً لهذا البحث: من المفيد أن نقتبس مما جاء في مجلة (ريدرز دايجست) أخيراً في هذا الصدد لنكون أكثر بصيرة وإيماناً في ذلك.

(الدوس هكسلي) اشتهر بمؤلفاته العلمية عن سر الحياة، وخاصة عن الروحيات التي تطرق لها في كتبه ومقالاته، وهو يكاد يكون حجة في الظواهر الروحية العجيبة والقوى الخفية في الإنسان.

يقول (هكسلي): إن هناك قوى كامنة في بعض الناس تجعلهم يرون أو يشعرون بما لا يراه أو يشعر به غيرهم. وقد أخذ بهذا الرأي الآن حتى أكثر العلماء شكاً في تلك القوى الخاصة الكامنة التي لا تعتمد على الحواس المعروفة التي يشترك فيها كل الناس.

إن هذه القوى العجيبة تبدو غالباً في صورة من ثلاث:

الأولى: قراءة الأفكار واستشفاف ما يدور في أذهان الآخرين.

والثانية: رؤية أشياء وأحداث تجري في أماكن بعيدة من طريق غير طريق البصر.

والثالثة: إدراك الحوادث التي تقع في الغد القريب والبعيد.

ويُعد الدكتور (ج.ب. راين) الأستاذ في جامعة (ديوك) أكثر العلماء المعاصرين عناية بدراسة هذه الظواهر الروحية، وقد أمضى في هذه الدراسة نحو خمسة وعشرين عاماً، وأصدر أخيراً كتاباً اسمه (عالم جديد للعقل)، قال في مقدمته: «إن العالم الجديد الذي أريد أن أتكلم عنه ليس في الواقع جديداً إلا بالنسبة لأبناء هذا العصر. فجميع هذه الظواهر الروحية ـ التي تعد في نظرنا خارقة

للقوانين الطبيعية ـ كانت معروفة للإنسان منذ العصر البرونزي، وظلت أمراً مسلماً به حتى أوائل القرن الثامن عشر، عندما بدأ لفيفٌ من المتعلمين يشكون ويشككون في وجودها، حتى أصبحت من الأعراض التي ترشح صاحبها لمستشفيات الأمراض العقلية!).

وفي سنة ١٨٨٢م أسس جماعة من العلماء الإنكليز المعروفين جمعية أطلقوا عليها اسم (جمعية البحوث الروحية)، وأصدروا صحيفة هي [الآن] في عامها الثاني والسبعين؛ لتسجيل الدراسات الدقيقة التي تمت في هذا الميدان، وظلت هذه الجماعة تعمل وحدها حتى سنة ١٩٣٠م عندما أُنشئ قسم لهذه الدراسات في جامعة (ديوك) بإشراف الدكتور (راين)، وقام هو ومعاونوه بتجارب ـ أشرفوا عليها بأنفسهم ـ؛ أثبتت أن لبعض الناس حاسة ـ أو حواس ـ غير الحواس الخمس يستطيعون بها أن يحققوا وجود أشياء تبدو لغيرهم وهماً وخيالاً!.

ويقول (هكسلي): إننا ما نزال ـ برغم تقدم العلوم ـ نجهل التفاعلات الكيميائية التي تجري في المخ، ولسنا نعرف تماماً لماذا يجعلنا ندرك الوردة ـ مثلاً ـ حمراء زكية الرائحة؟! ونحن لا نعرف أيضاً ما هي الذاكرة؟! وكيف يختزن فيها العقل ما يريد أن يختزنه، وكيف يستعين بها وقت الحاجة؟! فهل ننكر قوة الإدراك وملكة الذاكرة ـ كما ينكر بعض الناس تلك الظواهر الروحية ـ لأننا لم نجد لها تفسيراً؟!.

هناك أشياء كثيرة يعوزها التحليل والتفسير؛ فما هو النوم المغناطيسي مثلاً؟ إن الحالة الذهنية لشخص منوم تنويماً مغناطيسياً يختلف اختلافاً كبيراً عن حالة الشخص نفسه وهو في يقظته. ومع ذلك، فإننا عندما نصور المخ بالرسام الكهربائي نجده في الحالتين متشابهاً.

فهل لذلك من مغزى أكثر من الطبيعة البشرية أعمق من أن نحيط بجميع حقائقها، أو أننا لم نصل إلى كثير من هذه الحقائق؟.

ولعلَّ! (وليم جيمس) كان على صواب عندما صور الطبيعة حولنا بعقل مفكر جبار، يتسلل منه قدر يسير إلى جمجمة كل إنسان، فيزهو بما أصبح في حوزته من قوة قادرة على التفكير والخلق والابتكار... ولا حرج في هذا، ولكن

المضحك أن يحاول بهذه القوة اليسيرة أن يُفسِّر جميع غوامض (العقل الجبار) الذي يحيط به، فإذا أخفق في تفسير شيء أنكره وراح يشكك الناس بوجوده!.

ويرى (هنري برجسون) رأياً آخر، فهو يعتقد أن العقل البشري ـ في ذاته ـ يدرك كل شيء وفي أي مكان، بغض النظر عن المسافة أو الزمن. ولكننا نمنعه ـ بالفطرة ـ من الشرود و (الغرق) في بحار المعرفة اللامتناهية، في سبيل المحافظة على كياننا، وتسخيره لخدماتنا بأن نقيم حوله الحواجز، وفي ضوء هذه النظرية، تكون الظواهر الروحية وليدة ثغرة في هذه الحواجز!.

ويقول (هكسلي) أخيراً: إن الباحثين لا يشكون الآن في هذه الظواهر الروحية، ولكنهم يسعون إلى كشف طرق لإظهار تلك القوى وتنميتها والتحكم فيها. وما دامت في الإنسان قوى تستطيع أن تعمل بغير الاستعانة بالحواس وأعضاء الجسم المرئية، فإن الخلود يصبح شيئاً منطقياً وتصبح الحياة أكبر مما تمليه علينا النظريات المادية والقوانين الطبيعية التي نعرفها.

هذا ما يقول به العلماء الغربيون في وجود الروح... أيها الشباب المسلم المتعلم، فلنكن على بصيرة من أمرنا!.

* * *

المبحث التاسع

الحياة بعد الموت

قال تعالى: ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [المؤمنون: ٣٥ ـ ٣٧].

ما أشبه اليوم بالبارحة! إن الملحدين اليوم يقولون ـ كما نطقت به الآية ـ ما قال به المشركون أمس؛ من دون أن ينظروا إلى ما حولهم من الآيات الباهرات التي يزخر بها الكون، والدالة دلالة واضحة على كيفية الحياة والبعث بعد الموت.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾ [الحج: ٥ ـ ٧].

ذكرنا في بحث عنوانه (الحياة والموت) أن العالم يزخر بالحياة وخاصة بما فيه من ملايين البكتريا والجراثيم الحية التي تموت منها في كلِّ لحظة من لحظات الزمان ملايين، في حين تحيا منها في كل لحظة ملايين، وبعد هذا نسأل: كيف تظهر إلى الحياة هذه الملايين من البكتريا أو الخلايا؟! فالعلم سيبقى حائراً وصامتاً! وإليك أيها القارئ الملاحظات التالية:

أولاً ـ النشأة الأولى:

إن الذي أنشأ الحياة لأول مرة على هذه الأرض كان أهون عليه أن يجعل الحياة تتطور وتستمر على النشأة الأولى، وأن يحيي الموتى منها بالطريقة التي

يحيا فيها النبات اليوم أو البكتريا بعد موتها، أو بطريقة ما أخرى لا يعلمها إلا علاّم الغيوب، ومما يسترعي الانتباه ويُحيِّر العقول في هذا الصدد أن عضلة القلب تقوم في كلِّ ثانية واحدة بالقضاء على عشرة ملايين من كريات الدم الحمراء، وتحل محلها مثلها عدداً من الكريات الشابة! تأمل أيها القارئ الكريم هذه المعجزة الخارقة في الحياة والموت، والكون يزخر بأمثالها!.

يقول تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، و﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، و﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، و﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [قٓ: ١٥].

ولمَّا كان هذا الموضوع له خطورته من حيث البعث بعد الموت، من المفيد أن نسهب فيه إسهاباً على الطريقة العلمية لإزالة الشك في ذلك، وخير ما قرأت في هذا الصدد ما جاء في كتاب (في سنن الله الكونية) الطبعة الأولى للدكتور العلامة (محمد أحمد الغمراوي) في موضوع (التمثيل اليخضوري) للنبات في الصفحة (٢١٣) وما بعدها؛ فبعدما ذكر التمثيل اليخضوري للنباب وتغذيته، ومفعول ثاني أوكسيد الكربون والأوكسجين في الهواء للتغذية، وكذلك الضوء، وغير ذلك من المواد لإنماء النبات كما جاء مفصلاً في علم النبات، أخذ يُبيِّن على ضوء ما قدمه بقوله:

«وإنك تستطيع في نور ما قدمنا لك أن تفهم من معنى الآيات القرآنية التي جاءت في صدد ذلك ما لم تكن تستطيع أن تفهمه من قبل، تستطيع في نور ما ذكرنا لك عن الإنبات أن تكون أفهم لمعنى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: ٦٣]. وفي نور ما ذكرناه عن تعلق حياة الإنسان بحياة النبات؛ أن تكون أفهم لمعنى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح: ١٧ ـ ١٨]. وفي نور ما ذكرناه لك عن حياة النبات وطاقة الحيوان؛ أن تكون أفهم لمعنى قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧١ ـ ٧٤]. لكننا نريد مع ذلك ألا نترك هذا الباب حتى ننظر معك في

آيتين اثنتين لن تجد صعوبة في فهم إشارتهما الواضحة إذا استحضرت ما قدمنا لك من الحقائق، فالأولى آية (الأنعام)، والثانية آية (يس).

كلتا الآيتين تنبه إلى أثر التمثيل اليخضوري في الحياة، إلا أن آية (يس) تؤكد فيه ناحية الطاقة، وآية (الأنعام) تؤكد فيه ناحية النمو.

أما آية (يس): ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠]؛ فمفتاح معناها: وصف الشجر بالأخضر، وترتيب النار على خضرة الشجر، ومتى يعرف أثر الخضرة في نمو الشجر وفي بناء كيانه الخشبي على الأخص، وفي اختزان ما في ذلك الكيان من طاقة تبدو ناراً عند الاستيقاد؛ لا يجد صعوبة في إدراك سر ترتيب النار على الخضرة، أو تبين عظمة الآية وبلاغتها وإعجازها، ومن لم يعرف هذا يقف أمام هذا الترتيب الغريب، وراح يتلمس للآية توجيهاً، فيذهب بها في غير وجهها، على أن هناك قرينة قوية قرآنية تعين أن نفهم الآية الكريمة على هذا الوجه الذي ذكرناه، ألا وهي قرينة السياق، إن تلك الآية الكريمة إنما سيقت رداً على منكر البعث، بعث الإنسان بعد أن يصير عظماً رميماً: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٧٨ ـ ٨٠]. فلا بد أن يكون صلة بين معناها ومسألة البعث.

كما لا بد أن يكون هناك حجة فيها على منكري البعث، أما الصلة فظاهرة من أن الآية متصل موضوعها اتصالاً وثيقاً بحياة النبات وإنشائه حياً نامياً قوياً، بعد أن كان بذرة أو نواة لا نماء بها ولا حياة، وتزداد الصلة بأمر البعث وضوحاً باتضاح الحجة التي في الآية على منكر البعث، والتي تقوم على أن جميع نماء الشجر ومادته وطاقته بعد خروج أول ورقتين خضراوين من البذرة أو النواة، إنما هو آت من مواد أولية هي نواتج تعفن الشجر بعد موته أو احتراقه، أي من مواد تشبه من كل الوجوه ذلك العظم الرميم الذي استبعد المُنكِر الجاحد أن يحييه الله مرة أخرى، بل إن ذلك المنكِر لم يُشر إلا إلى جزء من نواتج التعفن، تعفن الإنسان أو الحيوان، ألا وهو العظم الرميم، في حين أن هناك ـ كما عرفت ـ نواتج أخرى للتعفن غير العظم؛ مثل ثاني أكسيد الكربون، وبخار الماء، جهلها ذلك المنكر، فلم تخطر له على بال.

أما الآية الكريمة فقد أشارت إشارة واضحة يفهمها العالمون إلى ظاهرة تشبه ظاهرة البعث تمام الشبه؛ لأنها بالفعل ظاهرة بعث للنبات بعد أن صار بالتعفن أو الإحراق بخار ماء وثاني أكسيد الكربون ورماداً وأملاحاً؛ هي في الحقيقة التي تقابل العظم الرميم الذي ذكره الجاحد، فكأن الآية الكريمة تقول لذلك المُنكِر: إن الذي يبعث الشجرة بعد أن فنيت ويخلقها مرة أخرة من نواتج تعفنه، وتحوله إلى عظم رميم...».

إلى أن قال: «فالشجر كله خشبه وثمره، والزرع كله ورقه وحبه يخلقه الله سبحانه مرة بعد أخرى من نفس المواد التي خُلِقَ منها أولاً، والتي إليها يعود، بل الإنسان والحيوان يخلقهما الله سبحانه مرة بعد أخرى في هذه الحياة من نفس المواد التي خُلِقَا منها، والتي إليها يعودان بعد الموت.

ولكن الفرق بين الخلقين أن النبات يخلق من تلك المواد مباشرة، وهذه هي الحكمة في إقامة الحجة به، وأما الحيوان والإنسان فيخلقان منها بواسطة النبات، فالقرآن ينبّه مستبعدَ البعث إلى البعث الذي يجري بين يديه وأمام عينيه، صحيح أن البعث الجاري أمام الإنسان هو بعث النوع فيما يتعلق بالإنسان، ولكنه فيما يتعلق بالنبات وبغير الإنسان من الحيوان أقرب ما يكون إلى بعث الفرد، إذ ليس للفرد النباتي أو الحيواني شخصية مستقلة ممتازة كما للفرد الإنساني، ولعلَّ هذه حكمة أخرى في إقامة الحجة على مُنكِر البعث، يلفت نظره إلى بعث النبات، ومهما يكن الأمر في هذا؛ فإن في بعث الأنواع الجاري حول الإنسان ما يكفي لإفحام مُنكِري البعث، لأن موضع الإنكار في هؤلاء ليس بعث الفرد أو بعث النوع، ولكن هو مطلق البعث، هو إمكان خلق الحي من الميت، وتحويل نواتج تعفن الميت إلى حي، فأراهم الله في القرآن أنَّ هذا ليس ممكناً فقط، بل هو الحقيقة الواقعة التي تقوم عليها الحياة وتدور» انتهى.

ثانياً ـ نظام الكون:

إن نظام الكون بقواه المتكافئة وشذوذ الإنسان عن ذلك أدبياً يحتمان بعثه بعد موته ليتم العدل، وليحق الحق الذي قامت السموات والأرض عليه، فالكون قائم على نظام التكافؤ والتعادل في القوى، وقدّر كلَّ شيء فيه تقديراً حكيماً موزوناً ومقروناً بالمساواة المطلقة، ويشذّ عن هذا النظام العام الشامل الإنسان

من وجهة أدبية، أي: من حيث التكافؤ والتعادل بين أفراده من وجهة عقلية وفكرية، ومن وجهة المساواة المطلقة مادياً وأدبياً، خلق الإنسان على فطرة واحدة، ولكن بعد ولادته يأخذ الاختلاف يدبُّ في قابليات أفراده مادياً ومعنوياً.

ولا نغالي إذا قلنا: إن هذا الاختلاف في المواهب يبلغ درجة الاختلاف في الملامح الوجهية بين أفراده، كما أنك لا تجد أحداً يشبه الآخر في ملامحه الوجهية وحتى بين التوائم، كذلك لا تجد أحداً يشبه الآخر في قابلياته المادية والروحية والفكرية، والعوامل لذلك كثيرة، أهمها: الأسرة، ومنها الوراثة، ثم البيئة والمدرسة، ونوع الغذاء، ونوع العمل، ولا ننسى الغدد في الإنسان، وخاصة منها الغدد الصماء، ودرجة تأثير كمية الهرمونات التي تفرزها (قلة أو كثرة) على مقدرات الإنسان (صعوداً أو هبوطاً)، فاختلف بعضهم عن بعض في المدارك والمواهب.

فحياة الدنيا إذن قامت على هذا الاختلاف الذي كان ولا يزال العامل الأكبر في تسخير بعضهم بعضاً من حيث قابلياتهم المختلفة، فاستقامت الحياة على وجه الأرض. وبذلك تقدمت المدنية وحصل العمران؛ فلولا هذا الاختلاف، أي: لو كانت قابليات الإنسان ومواهبه متساوية؛ لما كان هناك مسخِّر ومسخَّر، ولما كان هناك كفاح ونضال وتنافس، ولاستحالت الحياة على الأرض.

قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

هكذا شاءت حكمه الخالق في هذا الاختلاف الذي يدفع البشر حتماً إلى التعاون في ضروب الحياة المادية والأدبية، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾ [هود: ١١٨ ـ ١١٩].

وما أروع ما جاء في الآية: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾ [هود: ١١٩]، وجاء في تفسير محمد فريد وجدي في ذلك قوله: «لأجل الاختلاف خلقهم، ليتم الإبداع المنتظر لهذا العالم».

ولكن هذا الاختلاف وإن كان يحقق حكمة الخالق في ازدهار الأرض

وعمرانها؛ فهو ينافي نظام الكون القائم على التعادل في قواه! ولأجل أن يتحقق التوازن والتساوي المطلقين، وبعبارة أخرى: الحق والعدل الكاملين؛ لينسجم الإنسـان أخيراً مع نظام الكون أيضاً لا بـد من حيـاة أخرى بعد الموت تحقيقاً للتكافؤ الذي قام الكون عليه!.

ثالثاً ـ عشرة براهين أخرى حكمية فعقلية تدل على البعث بعد الموت:

اطّلعت عليها أخيـراً في تفسـير قولـه تعالى: ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤] من تفسير (إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز) للإمام العلامة بديع الزمان سعيد النورسي المدفون في تركية؛ قال رحمه الله:

«اعلم أن مآل هذه الآية هو المقصد الرابع من المقاصد الأربعة المشهورة؛ وهو مسألة الحشر. ثم إنا قد استفدنا من نظم القرآن عشرة براهين عليها، ذكرناها في كتاب آخر، فناسب تلخيصها هنا، وهي: أنّ الحشرَ حقٌّ:

١ ـ لأنّ في الكائنات نظاماً أكمل قصدياً.

٢ ـ وأن في الخلقة حكمة تامة.

٣ ـ وأن لا عبثية في العالم.

٤ ـ وأن لا إسراف في الفطرة: والمزكّي لهؤلاء الشواهد، الاستقراء بجميع الفنون (العلوم)، التي كل منها شاهد على نظام نوع موضوعه.

٥ ـ أن في كثير من الأنواع: مثل اليوم والليلة وغيرهما قيامة مكررة نوعية.

٦ ـ جواهر استعداد البشر يرمز إلى الحشر.

٧ ـ عدم تناهي آمال البشر وميولهم، يشير إليه.

٨ ـ رحمة الصانع الحكيم تلوح به.

٩ ـ لسان الرسول الصادق ـ عليه الصلاة والسلام ـ يصرّح به.

١٠ ـ بيان القرآن المعجز في أمثال: ﴿وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا﴾ [نوح: ١٤]، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] ـ يشهد له.

تلك عشرة كاملة، مفاتيح للسعادة الأبدية، وأبواب تلك الجنة.

أما بيان البرهان الأول ـ فهو: أنـه إن لم ينجد الكائنـات إلى (السـعادة الأبدية) لصار ذلك النظام الذي أتقن فيه صانعه اتقاناً تحيّر فيه العقول ـ صورة ضعيفة خادعة، وجميع المعنويات والروابط والنسب في النظام هباءً منثوراً، فليس نظام ذلك النظام إلا اتصاله بالسعادة، أي أن النكت والمعنويات في ذلك النظام إنما تترابط في عالم الآخرة، وإلا لانطفأت جميع المعنويات، وتتقطع جميع الروابط، وتتمزق كل النسب، ويتفتت هذا النظام! مع أن القوة المندمجة في النظام تنادي بأعلى صوتها: أن ليس من شأنها الانفضاض والانحلال.

وأما البرهان الثاني ـ فهو: أن تمثال العناية، الذي هو الحكمة التامة، التي هي رعاية المصالح والحِكَم في كلِّ نوع، بل في كلِّ جزئي، بشهادة كلِّ الفنون (العلوم) ـ يبشر بقدوم (السعادة الأبدية). وإلا لزم إنكار هذه الحكم والفوائد التي أجبرتنا البداهة على الإقرار بها، إذ حينئذ تكون الفائدة لا فائدة، والحكمة غير حكمة، والمصلحة عدم مصلحة، وإن هذا إلا سفسطة!.

أما البرهان الثالث ـ المفسر للثاني، فهو: أن الفن (العلم) يشهد أيضاً أن الصانع اختار في كلِّ شيءٍ الطريق الأقصر، والجهة الأقرب، والصورة الأخف والأحسـن، فيدل على أن لا عبثية، فيدل على أنه جدي حقيقي، وما هـو إلا بمجيء (السعادة الأبدية)، وإلا لتنزل هذا الوجود منزلة العدم الصرف، وتحول كل شيء عبثاً محضاً ـ سبحانك ما خلقت هذا عبثاً ـ.

أما البرهان الرابع ـ الموضح للثالث فهو: أن لا إسراف في الفطرة بشهادة الفنون (العلوم). فإن تقاصر ذهنك عن إدراك حكم (الإنسان الأكبر): وهو العالَم، فأمعن النظر في (العالم الأصغر) وهو الإنسان. فإن (فن منافع الأعضاء): قد شرح وأثبت: أن في جسد الإنسان ـ تقريباً ـ ستمئة عظم، كلٌّ لمنفعة، وستمئة ألف عصب، وهي مجاري الدم، كلٌّ لفائدة، ومئة وأربعة وعشرون ألف مسامة وكـوة للحجيرات التي تعمل في كلٍّ منها خمس قوى: من الجاذبة والدافعـة والممسكة والمصورة والمولدة؛ كلٌّ منها لمصلحة! فإذا كان (العالم الأصغر) وهو الإنسان كذا؛ فكيف يكون (العالم الأكبر) ـ أي: العالم والكون ـ أنقص منه؟! وإذا كان الجسد الذي لا أهمية له بالنسبة إلى لبه كذا؛ فكيف يتصور إهمال (جوهر الروح)، وإسراف كل آثاره، من المعنويات والآمال والأفكار؟ إذ لولا

(السعادة الأبدية) لتقلصت كل المعنويات، وصارت إسرافاً! فبالله عليك؛ أيمكن في العقل أن يكون لك جوهرة قيمتها الدنيا، فتهتم بصدفها وغلافها، حتى لا [تخلي] أن يصل الغبار إليه، ثم تأخذ الجوهرة فتكسرها شذر مذر، وتمحو آثارها؟ كلا ثم كلا؛ ما تهتم بالغلاف إلا لأجل ما فيه.

وأيضاً إذا أفهمتك قـوة البنيـة في شخص، وصحـة أعضائه واسـتعداده استمرار بقائه وتكمله؛ أفلا تفهمك الحقيقة الثابتة الجارية في روح الكائنات، والقوة الكاملة المومية بالاستمرار في الانتظام، والكمال المنجز إلى التكمل في النظام، مجيء (السعادة الأبدية) من باب الحشر الجسماني؟ إذ هي المخلصة للانتظام عن الاختلال والواسطة، لتكمل وانكشاف تلك القوة المؤيدة.

أما البرهان **الخامس** ـ والحدس الرامز إلى المقصد؛ فهو: أن وجود نوع قيامات مكررة نوعية في كثير من الأنواع يشير إلى القيامة العظمى.

وإن شئت تمثل الرمز في مثال؛ فانظر في (ساعتك) الأسبوعية، فكما أن فيها دواليب مختلفة دوارة متحركة، محركة للإبر والأميال، العادّة واحدة منها (للثواني)، وهي مقدمة ومخبرة لحركة إبرة (الدقائق)، وهي معدة ومعلنة لحركة ميل (الساعات)، وهي محصلة ومؤذنة لحركة الإبرة التي تعد أيام الأسبوع، فإتمام دورة السـابقة تشـير بأن أختها اللاحقـة تتم دورها ـ كذلـك إن لله تعالى (ساعة) كبرى، دواليبها الأفلاك تعد أميالها الأيام والسنين، و عمر البشر، وبقاء الدنيا نظير (الثواني والدقائق والساعات والأيام في ساعتك). فمجيء الصبح بعد كلِّ ليلة، والربيع بعد كلِّ شتاء بناء على حركة تلك (الساعة) يشير إشارة خفية، ويرمز رمزاً دقيقاً بتولد صبح ربيع الحشر من تلك الساعة الكبرى..

إن قلت: إن القيامة النوعية، لا تحشر الأشخاص بأعيانهم، فكيف ترمز بالقيامة الكبرى لعود الأشخاص هناك بأعيانهم؟.

قيل لك: إن شخص الإنسان كنوع غيره، إذ نور الفكر أعطى لآمال البشر وروحه سعة وانبساطاً بدرجة وسعت الأزمنة الثلاثة، لو ابتلع الماضي والمستقبل مع الحال ـ لم يمتلئ آماله، لأن نور الفكر صير ماهيته علوية، وقيمته عمومية، ونظره كلياً، وكماله غير محصور، ولذته دائمية، وألمه مستمراً! أما فرد النوع الآخر، فماهيته جزئية، وقيمته شخصية، ونظره محدود، وكماله محصور،

ولذته آنية، وألمه دفعي، فوجود نوع قيامات في الأنواع ـ كيف لا يشعر بالقيامة الشخصية العمومية للإنسان؟!.

أما البرهان السادس ـ الملوح، فهو: عدم تناهي استعدادات البشر، نعم: إن تصورات البشر، وأفكاره التي لا تتناهى، المتولدة من آماله غير المتناهية، الحاصلة من ميوله غير المحصورة، المزروعة في جوهر روحه، الذي كرَّمه الله تعالى؛ كلٌّ منها يشير فيما وراء الحشر الجسماني بإصبع الشهادة إلى (السعادة الأبدية)، وتمد نظرها إليه. تأمل!.

أما البرهان السابع ـ المبشِّر، فهو: أن رحمة الرحمن الرحيم تبشر بقدوم أعظم الرحمة، أعني (السعادة الأبدية)، إذ بها تصير الرحمة رحمة، والنعمة نعمة، وبها تخلص الكائنات من النياحات المرتفعة، من المأتم العمومي المتولد من الفراق الأبدي، المصيِّر للنعم نقماً، إذ لو لم يجئ روح النعم (السعادة الأبدية) لتحولت جميع النعم نقماً، وللزم المكابرة في إنكار الرحمة الثابتة بشهادة عموم الكائنات بالبداهة وبالضرورة؟!.

فيا أيها الحبيب الشفيق العاشق! انظر إلى ألطف آثار رحمة الله: أعني المحبة والشفقة والعشق! ثم راجع وجدانك ـ لكن بعد فرض تعقب الفراق الأبدي، والهجران اللايزالي عليها ـ كيف ترى الوجدان يستغيث، والخيال يصرخ، والروح يضجر، من انقلاب تلك المحبة والشفقة اللتين هما اللطف وأحسن أنواع الرحمة أعظم مصيبة عليك وأشد بلاء فيك، أفيمكن في العقل أن تساعد تلك الرحمة الضرورية لهجوم الفراق الأبدي، والهجران اللايزالي ـ على المحبة والشفقة؟ لا؛ بل من شأن تلك الرحمة أن تسلط الفراق الأبدي على الهجران اللايزالي، والهجران اللايزالي على الفراق الأبدي، والعدم عليهما!.

وأما البرهان الثامن ـ المصرح؛ فهو: لسان محمد ﷺ الصادق المصدوق، ولقد فتح كلامه أبواب (السعادة الأبدية). على أن إجماع الأنبياء ـ من آدم إلى خاتمهم ـ عليهم السلام على هذه الحقيقة؛ حجة حقيقية قطعية على هذا المدَّعى! ولأمر ما اتفقوا.

وأما البرهان التاسع ـ فهو إخبار القرآن المعجز؛ إذ التنزيل المصدق إعجازه

بسبعة أوجه، في ثلاثة عشر عصراً ـ دعواه عين برهانها، فإخباره (كشاف) للحشر الجسماني، ومفتاح له.

وأما البرهان العاشر ـ المشتمل على ألوف من البراهين، التي تضمنها كثير من الآيات: مثل ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ المشير إلى (قياس تمثيلي). وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ المشير إلى دليل عدلي... وغيرها، فلقد فتح القرآن في أكثر الآيات كوَّاتٌ ناظرة إلى الحشر:

أما القياس التمثيلي المشار إليه بالآية ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾، فانظره من وجود الإنسان، فإنه ينتقل من طور إلى طور: من النطفة إلى العلقة، ومنها إلى المضغة، ومنها إلى العظم واللحم، ومنه إلى الخلق الجديد، ولكلٍّ من الأطوار قوانين مخصوصة، ونظامات معينة، وحركات مطردة، يشف كل منها عن قصد وإرادة واختيار.

ثم تأمل في بقائه، فإن هذا الوجود يجدد لباسه في كلٍّ سنة، ومن شأنه التحليل والتركيب، أي: انقضاض الحجيرات وتعميرها، يبدل ما يتحلل من المادة اللطيفة الموزعة على نسبة مناسبة الأعضاء، التي يحضرها صانعها بقانون مخصوص؟ ثم، تأمل في أطوار تلك المادة اللطيفة الحاملة لأرزاق الأجزاء ـ كيف تنتشر في أقطار البدن انتشاراً تحير فيه العقول! وكيف تنقسم بقانون التقسيم المعين على مقدار حاجات الأعضاء! بعد أن تلخصت تلك المادة بنظام ثابت، ودستور معين، وحركة عجيبة ـ من أربع مصفانات، وانطبخت في أربعة مطابخ. بعد أربع انقلابات عجيبة! المأخوذة تلك المادة من القوت، المحصل من المواليد المنتشرة في عالم العناصر، بدستور منتظم، وقانون معين!.

وكلٌّ من القوانين والنظامات في تلك الأطوار يشف عن سائق وقصد وحكمة؛ كيف لا ولو تأملت في قافلة تلك المادة اللطيفة، في ذرة مثلاً، مستترة في عنصر الهواء، تصير بالآخرة جزءاً من سواد عين (الحبيب)؛ لعلمت أن تلك الذرة وهي في الهواء، معينة، كأنها موظفة مأمورة بالذهاب إلى مكانها الذي عُيِّن لها! إذ لو نظرت إليها بنظر فني (علمي) تيقنت: أن ليست حركتها (اتفاقية عمياء، بتصادف أعور)، بل تلك الذرة ما دخلت في مرتبة، إلا عملت لقوانينها المعينة، وما سافرت إلى طبقة، إلا وهي تساق بحكمة عجيبة منتظمة، مع أنها لا تنحرف

قطعاً مقدار ذرة عن هدف مقصدها.

والحاصل: أن من تأمل في النشأة الأولى؛ لم يبقَ له ترددٌ في النشأة الأخرى، ولقد قال النبي ﷺ: «عجباً لمن يرى النشأة الأولى، كيف ينكر النشأة الأخرى»[1].

وأما الدليل الذي لوَّحت به الآية ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾: فاعلم أنّا كثيراً ما نرى الظالم الفاجر الغدار في غاية التنعم، ويمر عمره في غاية الطيب والراحة، ثم نرى المظلوم الفقير المتدين الحسن الخلق ـ ينقضي عمره في غاية (الضيق والفتك والذلة والمظلومية) ثم يجيء الموت فيساوي بينهما، وهذه المساواة ـ بالنهاية ـ ترى ظلماً، والعدالة والحكمة الآلهيتان، اللتان شهدت عليهما الكائنات منزهتان عن الظلم، فلا بد من مجمع آخر ليرى الأول جزاءه، والثاني ثوابه، فتتجلى العدالة الإلـٰهية».

* * *

---

(١) لم أجده. (الناشر)

المبحث العاشر

الركون إلى الآخرة دون الدنيا ليس من الإسلام في شيء

إن الاعتقاد بالآخرة هو من أركان الإيمان، فمن لم يعتقد بالآخرة، فهو كافر وخارج عن دائرة الإسلام والإيمان، ولكن من يعلل نفسه بتلك الأماني، باعتقاده بالدار الآخرة فقط، راضياً حياة كلها بؤس وشقاء، فهو مارق أيضاً عن الدين الإسلامي.

فلقد علمت أيها القارئ الكريم مما جاء في هذه الرسالة (بصائر الاطمئنان) أن الإسلام يريد من المسلمين أن يكونوا في الذروة من الحياة المدنيـة الراقيـة المتطورة! فيعتبر الإسلام الحياة في الدنيا كفاح ونضال: (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً)هذا دستور الإسلام. فإن المسلمين لـو علموا أن بؤسهم وشقاءهم في هذه الحياة إنما هو متأتٍّ من فساد النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي المتَّبَع عندهم، خلافاً لما جاء به الإسلام، اتكلوا في زواله على الآخرة فقط، بل لسَعَوْا إلى إصلاحه بما يردع الظالم عن ظلمه ويخلص البائس من بؤسه، [وينشل] الشقي من شقائه، ويوزع مرافق الحياة على الناس توزيعاً عادلاً بحسب كفايتهم وقدرتهم على العمل الصالح المفيد، كما جاءت الشريعة الإسلامية الغراء بها. فلو أنهم سمعوا إلى ذلك لكان لهم من تعليل النفس بالآخرة، ولتوصلوا حتى الآن إلى شيء من سعادتهم في هذه الحياة![1]

* * *

---

(١) لا بأس هنا من التذكير بقوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]. (الناشر)

المبحث الحادي عشر

نوع النعيم والعذاب في الآخرة

يقول الهدّامون: إن القرآن قد أسرف في وصف النعيم في الجنة باللذائذ الحسية والشهوات الجسمانية التي لا تأتلف مع الروحانية، دون أن يتفكروا في أن القرآن الكريم يخاطب الجمهور من الناس الذين لا يشعرون باللذات الروحية بقدر شعورهم باللذات الحسية!.

وأحسن ما قرأت في هذا الصدد ما جاء في مجلة (لواء الإسلام) العدد (١١) من سنتها الرابعة للأستاذ (عبد الوهاب حمودة)، تحت عنوان (نعيم الجنة ما هو؟) نقتبس منه ما يلي ليكون القارئ على بصيرة من هذا الموضوع.

قال حفظه الله: «اختلف الباحثون في فهم هذا النعيم وإدراك لذائذه؛ ففريقٌ ذهب في كل هذه الملذات وأسباب النعيم مذهب الحقيقة، وأنها مادية جسمانية كملذات الدنيا وأسبابها المعهودة لنا، ومستندهم في ذلك ظاهر الوحي والأحاديث وصلاحية قدرة الله تعالى على خلق كل ما أخبر به في وحيه دون تأويل ولا تحوير[1]، ثم أوغلوا في المادية كما صورت لهم خيالاتهم وخيلت لهم أوهامهم، ففصَّلوا وأسهبوا وأسندوا ذلك إلى أحاديث منكرة يخترعونها ويصنعونها، ثم ينقلها القصاص في سمرهم لترويج بضاعتهم على العامة، ويربحون ويكسبون، ولا يهمهم بعد ذلك (ربح الدين أم خسر)».

وبعد ما جاء بأمثلة كثيرة لأحاديث موضوعة لهذا الفريق من الناس قال: «هذا الوقوف الممعن عند الماديات، والتمسك الشديد بالحسيات؛ جعل كثيراً من المستشرقين والمتربِّصين للإسلام بالمرصاد يأخذون على المسلمين ولوعهم بالشهوات الجسمانية، ويعيبون على أوصاف الجنة ونعيمها باللذائذ الحسية، يقول: (كاردي فو) في دائرة المعارف الإسلامية: (إن وصف الجنة هو وصف

---

(١) تحوير: تحريف.

حسي)، ويقول صاحب كتاب (الدين و العلم) المشير المتقاعد عزت باشا: (وأكبر طعون الرهبان والفلاسفة على الدين الأمثل متوجهة إلى أن القرآن ذكر ثواب الآخرة في صور جد حسيّة، وفي صور شهوانية على زعمهم).

وهناك فريق ثانٍ وقف في الطرف الثاني فتغلبت عندهم الرموز والإشارات الباطنية؛ وهم طائفة من الصوفية والباطنية، فكلامهم يشعر بأن للأكل والشرب ولحم الطير والفاكهة والخمر واللبن والأكواب والحور والولدان والأساور والستور والوسائد والفضة والذهب واللؤلؤ، معاني أخرى وراء ما يستفاد منها لغة، وأن هذه المعاني هي المقصودة في الخطاب الإلٰهي، وبذلك أرجعوا النعيم الجسماني إلى نعيم روحاني».

وبعد ما ذكر أمثلة كثيرة على دعوى الصوفية والباطنية من رموز وإشارات لتأويل ما جاء في القرآن من النعيم الجسماني قال: «ومحصل القول: إن الفريق الأول مقلدون، جحدوا في فهم آيات القرآن في نعيم الجنة على ظاهر ألفاظ اللغة، ووقفوا عند قشورها، وغفلوا عن لبابها وما اعتاده أهلها في تخاطبهم من التفنن في ضروب التمثيل، ومختلف أساليب الكنايات. والفريق الثاني هم الصوفية أرباب الأذواق، والشطحات، والباطنية، أهل الرموز والإشارات؛ أطلقوا أنفسهم من كل قيد لغوي، وتجاوزوه بشيء لا علاقة له بأساليب اللغة وفنون بيانها، وكلا الفريقين في شطط!، وهناك فريق ثالث؛ وهو الفريق الذي يَعْتمدُ في فهم آيات القرآن الكريم في وصف نعيم الجنة وملذاتها المختلفة على لباب اللغة العربية وفن التخاطب بها، فإن ذلك هو الحبل الوثيق والعروة التي لا انفصام لها ـ هذا الفريق يقول: إن نعيم الجنة منه ما هو مادي، ومنها ما هو روحي معنوي، وأنا إلى هذا الفريق أميل.

وأدلة هذا الفريق هي: أن العقائد الدينية والتعاليم السماوية منحتها العناية الإلٰهية للبشر لأجل حملهم على الإيمان بالله وطاعته والحق والعدل، لينتظم حالهم وتتوفر سعادتهم، ومن تلك العقائد والتعاليم عقيدة الإيمان بحياة آخرة أبدية، رغب فيها وحض عليها بضروب مختلفة من أساليب التحبيب والترغيب، فوصف مظاهرها ووسائلها ما وصف في آيات القرآن الكريم في عدة سور، كلٌّ ذلك ليشوِّق النفوس ويستنهض الهمم، ويحفِّز العزائم إلى البر والعمل الصالح،

فأخذ الوحي الإلـهي يصف للمخاطبين تلك اللذائذ وأصناف النعيم، مفرغاً ذلك الوصف في التراكيب والأساليب التي اعتادوها في تخاطبهم، ودرجوا عليها في تلاحن كلامهم، وذلك لعجز فطرتهم وضعف استعدادهم عن فهم تلك الملذات الأخروية، وتعلقها بالكنه والحقيقة، فضرب لها مثلاً ملذات الدنيا ووسائل اجتلابها، وأسباب الشعور بها من مثل: الحور واللحم والخمر واللبن والفاكهة والحرير، من أكبر ملذات الدنيا، ووسائل الترف فيها عند البشر عامة، وعند العرب المخاطبين بالوحي لذلك العهد خاصة.

ولا نبعد عن الصواب إذا قلنا: إن الشرع قد نقل الكلمات الدالة على المسرات من معناها اللغوي الدنيوي إلى معنىً اصطلاحيٍّ جديد أخروي، فنقل كلمات الخمر واللبن ولحم الطير والحور والولدان من معانيها المعهودة في الدنيا إلى معانٍ أخرى؛ وهي وسائل اللذات والمسرات التي تكون في الجنة، وإنما فعل الشرع ذلك تفادياً من وضع كلمات جديدة لهذه المسرات الأخروية ليست من لغة العرب المخاطبين ولا يفهمونها، والحكمة تقضي أن لا يخاطبهم إلا بما يفهمون لتنهض الحجة عليهم!.

يقول الأستاذ الإمام محمد عبده في تفسير سورة الغاشية من جزء عم: «إن عالم الآخرة ليس فيه نمو أبدان، ولا تحلل مواد على ما يكون للأحياء في هذه الحياة الدنيا، بل ذلك عالم خلود وبقاء، واللذائذ فيه لذائذ سعادة، والآلام فيه آلام شقاء، فكلُّ ما يقع في ذلك العالم؛ فإنما بينه وبين ما يقع في عالمنا وجوه مشابهة لا وحدة متجانسة، فما جاء في هذه السورة وغيرها من الأكواب الموضوعة والوسائد المصفوفة، والبسط المبثوثة، وغير ذلك مما نراه في بيوت أهل النعمة؛ فإنما جاء القرآن لتصوير النعمة واللذة والرفاهية، وإلا فنعيم تلك الدار الآخرة ما يشبهه في هذه الدار نعيم».

ويقول صاحب كتاب (العلم والدين) رداً على المعترضين على أوصاف القرآن للجنة: «يبدو أن رجال الطبقات العليا من هؤلاء المعارضين يقومون بمثل هذا الطعن مقارنين الطباع البشرية في كلِّ زمان ومكان بإدراكهم وعرفانهم، ولا يفكرون في أن القرآن لا يخاطب الفلاسفة والحكماء والخاصة وحدهم، وإنما يخاطب الجمهور كذلك، بل ماذا يتصور سكان بريطانيا وفنسيا من أقطار

أوروبة المتمدنة في هذا العصر لذة ونعيماً أكثر مما ذكر بله البدو من الأعراب قبل ثلاثة عشر قرناً؟!».

ثم بعد ما جاء بآيات قرآنية تدل دلالة واضحة على أن نعيم الجنة لا يقتصر على المحسوسات، بل إنه يتناول المعنويات والروحيات أيضاً قال: «وهذا يدلنا على أن أهل الجنة طبقات ومراتب كما تراهم في الدنيا، فمن الناس لا يفهم معنى رضوان الله تعالى، ولا يكون باعثاً له على ترك الشر ولا على فعل الخير، وإنما يفهمون معنى اللذات الحسية التي جربوها، فكانت أحسن الأشياء موقعاً في نفوسهم، فهم فيها يرغبون ولأجلها يعملون».

ثم انتقل إلى بعض أقوال المستشرقين من المنصفين في هذا الصدد قال: «ويقول (سيل) في مقدمة ترجمته القرآن: «إن من يكرمهم الله من أهل الجنة يجعلهم ينظرون إلى وجهه» وهذه الكرامة هي التي يقول عنها الغزالي: إنها الزيادة الموعود بها في القرآن في سورة يونس ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦]، وهي اللذة التي ينسى عندها أهل الجنة نعيمهم، وهذا إذا لاحظناه ففيه دحض لدعوى من يزعم أن المسلمين لا يقولون بلذات روحية في الآخرة، بل يقصرون سعادة الصالحين على التمتع بلذات جسمانية ومتع مادية».

ويقول (هانري دي كاسترو) في كتابه (الإسلام خواطر وسوانح): «وقعت الديانة المسيحية بين مذهبين متناقضين: فمن قائل: إن السعادة الأخروية إنما هي حالة نفسية مرجعها طهارة القلب، والمشابهة بين الخالق والمخلوق، ومنهم من يقول: بل هي غير ذلك أمر مادي محسوس، وأما الإسلام فلم ينظر إلى الآخرة نظرة الدين المسيحي، فلو رجعنا إلى القرآن لنتلو الآيات التي نزلت في بيان سعادة الأخيار في تلك الدار؛ لوجدناها في أول الأمر تصف جنات عالية قطوفها دانية؛ إلى غير ذلك من تلك الأوصاف التي لها أكبر الأثر في نفوس العرب المنزلة عليهم، وهذا هو السبب في أن النبي ﷺ كان يأتي بمثل ذلك حيناً بعد حين، وهو تكرار ربما يغيب سره عن عقول الغربيين لعدم تعودهم عليه، ولكنه كان يؤثر كثيراً في نفوس سامية من أمة العرب، إذ هو في الواقع أسلوب في الخطاب له منزلة رفيعة عندهم، على أن في القرآن نفسه آيات كثيرة جاءت تصف السعادة الأخروية خالية من التشبيه والاستعارات والرموز والكنايات، بل صيغت فيها

الحقيقة سافرة لا تقبل تأويلاً، فلا يقول بأن المسلمين لا يعرفون سعادة ولا نعيماً مما وعدهم به القرآن غير ما كان مادياً شهوياً، إلا من غفل عن تلك الآيات، ومال إلى تغيير أصل الكتاب، وقلب الحقائق التي تُليت فيه، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢]، وقد قال المفسرون في ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾: إن الله يتجلى على عباده الصالحين، فتكمل سعادتهم ويتم بذلك نعيمهم»[١] انتهى ما اقتبسناه من مقال الأستاذ (عبد الوهاب حمودة).

ويقول صاحب كتاب (الدين والعلم) في هذا الصدد: «ولكن خواص الأمة يفهمون منها ما يتصورونه من نعيم علوي في الآخرة، ويعتقدون بأن النفس لا تدري ما قدر لها من نعيم وملاذ خفية، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، والأمنية الأخروية لعظماء المسلمين هي تجلي نور جمال الله، وقد عبر سالكو الطرق العلية عن السعادة الحقيقية الأخروية بالفناء في الله، ولكن ما التأثير الذي يتركه مثل هذا التبشير في العوام؟!».

أما العذاب فهو على غرار ما جاء في النعيم: حسي وروحي أيضاً، وأظن القارئ الكريم يتفق معي في الرأي بأن العذاب الروحي أقسى وأمرّ من العذاب الحسي، ولذلك إذا فرضنا أن الأجسام لا تبعث ولا تعود إلى الحياة؛ فالروح حية خالدة، فيقع عليها العذاب والنعيم حتماً؛ فويل كل الويل لتلك الروح التي تبقى في عذاب مرير، وطوبى ثم طوبى لتلك الروح التي تنعم بنعيم خالد!.

رُبَّ سائل يسأل: (إن الله كتب على نفسه الرحمة، ووسعت رحمته كل شيء) فالعذاب الأخروي الأبدي على الشكل الذي نعرفه من الآيات القرآنية للظالمين والمخالفين وغير المؤمنين، يتنافى مع رحمته تعالى وربوبيته، فكيف نوفق بين الرحمة والعذاب الخالد؟.

فقد أجاب على ذلك عظماء الأمة الإسلامية؛ نجمله فيمايلي:

---

(١) ما وعد الله به المؤمنين والمؤمنات من الجنات والمساكن والرضوان. هو الفوز العظيم وحده الذي لا يعادله فوزٌ آخر. (الناشر)

أولاً ـ نظراً إلى مضامين الآيات القرآنية المتعددة؛ أن الغاية من الخلق والأمر هي الرحمة، والرحمة الإلـٰهية أوسع من كل شيء، وأسبق على الغضب الإلـٰهي، ولو كان العذاب أبدياً لكان منافياً للرحمة، وهي الأصل في الخلقة، وبما أن العذاب قد خلق لغاية محمودة كزجر النفوس؛ فلا تبقى حكمة في إدامته بعد أن تتم الغاية، والأفعال الإلـٰهية لا تكون منافية للحكمة.

ثانياً ـ قيد العذاب في آيات كثيرة بالمشيئة الإلـٰهية، والمشيئة السبحانية مقترنة بالحكمة والرحمة بالطبع، والآية الكريمة: ﴿لَّبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابًا﴾ [النبأ: ٢٣] مؤيدة لهذا الرأي؛ أي أنها تدل على حصول العذاب في مدة معينة، وليست الآيات الكريمة خاصة بالموحدين. وفي القرآن آيات كثيرة تبين الخلود في النار، بيد أنه ليست فيه آية واحدة تتضمن خلود النار نفسها، ومعنى الخلود المكث المديد ولا يفيد الأبدية، وبالعكس من ذلك جاءت آيات كثيرة تنبئ عن نعيم الجنة وتصفها بصفات الخلود والأبدية؛ نحو قوله تعالى: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ [هود: ١٠٨]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ [صٓ: ٥٤]، وقوله تعالى: ﴿لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾ [فصلت: ٨] أي غير مقطوع، وقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾ [الأحزاب: ٦٥]، وغيرها، وبما أن النعمة مقتضى الرحمة فينبغي أن تكون غائية وأبدية.

ثالثاً ـ لقد ورد في القرآن مرات أن الله لا يخلف وعده، وليست فيه إشارة واحدة دالة على عدم خلفه في وعيده، والرجوع عن الوعيد كرم، والله أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين.

* * *

المبحث الثاني عشر

موقف الإسلام من نظرية التطور

قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الدهر: ١]. طالما سمعنا من بعض المتعلمين والمثقفين من يقول: إن الدين الإسلامي ينكر التطور، ويؤمن بالخلق المستقل خلافاً لنظرية (داروين) في تطور الأحياء الدالة على تسلسلها في خلقها من أدنى إلى أرقى فأرقى، قاصدين بذلك تشكيك المسلم في دينه وقرآنه. ولذلك وجب علينا أن نقدم إلى القراء الكرام في هذا الصدد ما يزيل شكوكهم وتطمئن به قلوبهم.

أولاً ـ نظرية التطور في الميزان:

نأتي بما قال به فطاحل العلماء في نقد نظرية التطور:

أ ـ الأستاذ (جوليه): يقول: إن مذهب داروين ومذهب لامارك يستويان في القصور؛ فإنهما لا يقران التحول من الحياة المائية إلى الحياة الأرضية، ولا التحول من الحياة الأرضية إلى الحياة الهوائية. ثم يقول: فكيف استطاع الحيوان الزاحف وهو سلف العصفور أن يناسب البيئة التي ليست له، ولا يمكن أن تكون له إلا بعد أن يتحول من صورة حيوان زاحف إلى عصفور، وكيف يستطيع أن تكون له حياة هوائية قبل أن تكون له أجنحة نافعة. أما مسألة الحشرة فإنها أشد استحالة من ذلك. فهل هناك أية علاقة من جهة علم الحياة بين الدودة وبين الحشرة الكاملة التي تنقلب إليها، لأن الحشرة اعتادت الحياة الدودية تحت الأرض وفي المياه، فكيف تصل شيئاً فشيئاً إلى إيجاد أجنحة لجسمها تصلح لحياة هوائية بعيدة عنها، بل مجهولة لها!.

ب ـ (فون باير): وهو من أقطاب الفيسيولوجية ومؤسس علم الأجنة، يقول: إن الرأي القائل بأن النوع الإنساني متولد من القردة السيمانية هو بلا شك أدخل الرأي في الجنون، قاله رجل على تاريخ الإنسان!.

ج ـ (دوفري) : يقول : إن التحولات الفجائية هي القاعدة في عالمي الحيوان والنبات، وقد أعلن هذه الحقيقة (جوهر) و(سان هيلر) و(كوب)، وثبت أن التطور الفجائي للأنواع الكبيرة الرئيسة كالزواحف والطيور وذوات الثدي كان في الأرض الجيولوجية، ومتى ظهرت حصلت على صفاتها كاملة!!

د ـ (الدكتور جوستاف جوليم) : يقول : يكفي لإبطال النظريات الداروينية أن يتأمل الإنسان الحشرة؛ فإنها ظهرت في أقدم عصور الحياة الأرضية، وثبتت أنواعها في جميع الأحوال؛ فهي تناقض ما ذهبوا إليه من التحولات المستمرة البطيئة، وتناقض التطور بفعل الفواعل الخارجية، فإنها تنقلب داخل الشرنقة من حال الدودية إلى حال حشرة طائرة، ولا تأثير لشيء عليها من الخارج، كما أن الهوة عميقة بين الحال الأول وهي الدودية، والحال الثانية وهي حال الحشرة، وهي هوة تضيع فيها ـ ولا كرامة ـ جميع النظريات الداروينية واللاماركية، فالحشرة أدت شهادة حسية لبطلان مذهب داروين، كما أثبت عجزه في تفسير غرائزها العجيبة المحيرة للعقول!.

هـ ـ (دو كاتر فاج) : يقول : إن القرابة في التأريخ للإنسان عن القرد معدومة. لأن الإنسان في العهد الحفري الرابع وجد مشابهاً لنا في الصورة، مع أنه كان يجب أن يكون أقرب إلى أسلافه القردة كما يزعمون!.

ثم قال : إننا لا نستطيع أن نعتبر ولادة الإنسان من القرد أو من أي حيوان آخر من الأمور العلمية!.

و ـ ويقول المشير أحمد عزت باشا التركي رحمه الله في كتابه (الدين والعلم) : «إذا لم يظهر التطور التدريجي فرقاً في نوع ذوي الأرواح وفي شكله في خمسة آلاف سنة أو عشرة آلاف أو مئة ألف أو مئتي ألف من السنين؛ فلا يسلم العقل بتحول الجرثومة من (بروتوبلازما) إنساناً في خمسمئة مليون من السنين. وأما فرضية نشوء الإنسان من تطور القردة فليست مبنية على أساس[1]. فالشمبانزي

---

(١) فرضية نشوء الإنسان من تطور القردة ليست مبنية على أي أساس علمي عقلي أو منطقي، بل هي فرضية مناقضة للدين وللعلم وللعقل وللمنطق. (الناشر)

وهـو أذكى أنواع القردة ما استطاع إلى الآن أن يتعلم كلمـة واحدة من لسـان الإنسان؛ على حين أن أدنى من نوع الإنسان الأسترالي والزنجي المتوحش إذا دربوا من صغرهم يمكنهم أن يتعلموا لسان المتمدنين من الناس، ويعرفوا الصنائع، بل يمكنهم أن يتعلموا كثيراً من العلوم وحتى الفلسفة، فعلى هذا هناك فاصل عظيم بين الطبقـة السفلى للإنسـان والطبقة العليا للقرد، فلو كان هذان النوعان مـن الحيوان من سلسلة واحدة لم تبقَ الحدود البدائية، وتختفي المراتب المتوسطة دون أن تترك أثراً مع أنها يلزم أن تدوم أكثـر منها، ولِمَ لَمْ يشـتمل قانـون بقاء الأصلح على الحدود البدائية، وانحصر اشتماله على المراتب المتوسطة؟ وكثيراً من علمـاء التاريخ الطبيعـي لا يقـرون بالعلاقـة النوعيـة بين الإنسـان والقرد للاعتبارات التالية:

١ ـ لأن غذاء القرد الطبيعي الفواكه، وأسنان الإنسان وأجهزته الهضمية صالحة لأكل كل شيء، وهو على قول المؤرِّخين: لم يعش الإنسان في الزمان الأول إلا على اللحم ولو كان لحم أبناء نوعه، وكيف يقبل العقل أن ينشأ نوعان مختلفان في أصل غذائهما إلى هذا الحد إلى بعضهما من بعض.

٢ ـ لأن الزاوية الوجهية للإنسان تتراوح بين الثمانين وخمس وثمانين درجة، في حين أن الزاوية الوجهية للقردة (٢٦) درجة، وهكذا الزاوية الوجهية لسائر الحيوانات أو أكثر بقليل.

٣ ـ لأن ثقل مخ رأس الإنسان يتراوح ما بين (١١٠٠ ـ ١٣٠٠) غرام، أما ثقل مخ رأس القرد (أورانج أوتان) فهو (٥٠٠)غ مع أنه أكبر من الإنسان حجماً. وعدم حاجة أولاد القردة حين ولادتها إلى المعونة وسرعة نموها؛ تدل على أنها من البهائم طبعاً.

إنه وإن سُلِّم بأن القرد أشبه الحيوان بالإنسان من جهة البنية والصورة؛[1] بيد أنه من جهة الذكاء أبعد عنه من كثير من الحيوانات.

ولما تبيَّن بأمثال هذه الملاحظات والتدقيقات الأخيرة بطلان أقوى أدلة

---

(١) نذكِّر بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، وقوله: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].

مروِّجي التطور ومنها: (أن الجنين يتحول في رحم أمه إلى أشكال شبيهة بأجنة الحيوانات التي مثلها الإنسان حين تطوره)؛ فقدت أهمية نظرية التطور التي وصفها (لامارك) و(داروين)، وبالغ فيها (هيغل) ومن ساهمه.

إن قانون التطور سائر في العالم، ولكن المستبعد هو تطور جرثومة من تلقاء نفسها في الكرة الأرضية المحدد عمرها حتى تصير إنساناً. ووجود القانون لا يغني الإنسان عن الاحتياج الفطري إلى البحث عن واضعه!» انتهى.

وعدا ذلك هناك اعتراضات كثيرة وجيهة أيضاً ضد نظرية التطور؛ وهي:

١ ـ (في وحدة الأصل أو تعدده) في نظرية التطور، بأن هل نشأ في أول الأمر أنواع متعددة تكاثرت ذراريها وتفرعت إلى الأنواع الحالية؟! وفي هذه الحالة يكون من اللازم أن نرسم عدة أشجار من أشجار النسب.

٢ ـ (الجهل بالقوى التي تسبب التطور): فيستنبط بعض العلماء من قلة ما نعلمه عن القوى التي تكون الأجسام: أن نظرية التطور ليست وطيدة الأركان، وعلماء التطور يسلمون بأن موضوع هذه القوى ما زال معقداً؛ فلا يعرفون في يقين إلى أي حد يؤثر كل من الانتخاب ووراثة أثر الاستعمال وعدم الاستعمال والتغيير الوراثي في بلاسما الجرثومة

٣ ـ (السبب الأصلي لترقّي الكائنات الحية في مدى تاريخ الجماعة): أي أن يشاهد في شجرة النسب ترقي النقص والاكتمال التدريجي في الحيوانات، وذلك ما يبدو في ازدياد عدد الأعضاء وصيرورتها أعظم إحكاماً وترتيباً في وصفها، وأكثر تناسقاً في أداء وظائفها، وأبلغ تعقداً ومقدرة على القيام بالأعمال كما يبدو في كبر حجم الجسم، وهذا الكبر المطرد في بطء يدفع بالجسم كله إلى الترقي؛ فما هي الأسباب لهذا الترقي؟ أليس من المفروض أن نذكر وجود أسباب داخلية عجيبة لا نعرف ماهيتها تدفع بالجسم إلى مدارج الرقي؟.

وإن كانت الكائنات الحية الراقية متطورة عن أخرى منحطّة؛ فلم لا تصبح جميع القردة أناسي؟! على الرغم من مرور ملايين السنين على وجودها؟!.

٥ ـ قد أبدى بعض علماء الوراثة تشككهم في أحكام الصيغة التي صيغت بها نظرية التطور، فهم يقولون: إن مسألة نشوء الأنواع هي مسألة نشوء الأجسام

الوراثية، ويعترف أنصار التطور أن طبيعة الأجسام الوراثية ما تزال مستغلقة عليهم (فيما يتصل بحياتها وموتها، وفيما يكنه تأثيرها أهو كيميائي أم طبيعي، وميكانيكي أم ديناميكي؟!).

٦ ـ واحتج خصوم التطور بأن معلومات أنصار التطور عن النمو والتطور تعد ناقصة، ما جهلوا السبب في عقم الحيوانات المتهجنة العقيمة، المولود كلٌّ منها من أبوين مخصبين تمام الإخصاب!.

٧ ـ كيف يستمر التطور مطرداً مع أن الآلاف من الأجسام الوراثية مستقل أحدها عن الآخر؟! مع أن هذا أو ذاك منها يتغير بين آن وآخر أو يختفي تماماً!.

٨ ـ ويأخذ بعض العلماء على المذهب الدارويني بما يقرره في الكفاح من أجل الحياة، فهم يسلمون ـ أي: خصوم المذهب الدارويني ـ بأن المزايا العضوية تكسب صاحبها الغلبة في الكفاح من أجل الحياة، عندما تكون أحوال المكافحة متماثلة، بيد أن تلك الأحوال قلما تكون كذلك. فعندما تبذر البذور في الحقل يموت بعضها دون أن يكون أردأ من بعضها الآخر، وعندما تقصد الأسماك المفترسة إلى أسراب (الرنجة) التي تتجمع في مواسم التزاوج؛ لا تكون أفراد الرنجة التي تقع فريسة لها أقل كفاية من الأفراد الناجية، وإنما يحدث مصادفة أن تكون في أثناء الهجوم في مواقع مسيئة قليلة التوفيق!.

٩ ـ ثم يأخذون على الداروينيين مقالاتهم في تقدير أثر الانتخاب الطبيعي المتوالي، إذ يعزون إليه ما بلغته الأعضاء المعقدة من الأشكال الراقية، ثم يضربون مثلاً أرجل الذئب أو جناح الطير أو غير ذلك من الأعضاء التي يعرضون أنها كانت موجودة من قبل!.

١٠ ـ (عدم كفاية أشجار النسب): لا شك أن أشجار النسب ما تزال بعيدة عن بلوغ درجة الكمال، ولا تزال هناك أمور لم يقطع فيها تماماً برأي.

فهذه الاعتراضات والنقدات ضد نظرية التطور التي ذكرناها آنفاً تبدو كلها وجيهة، ولم تفند تفنيداً علمياً مقنعاً من قبل أنصار التطور!.

وأحسن ما قرأت في صدد ذلك ما جاء في محاضرة الأستاذ العلاّمة الشيخ سامي صادق اللبناني، فقد اتبع الحق والحقيقة والإنصاف في بياناته عن نظرية

التطور؛ نقتبس منها ما يلي بتصرف:

قال حفظه الله: إن علماء هذا العصر لا يزالون في ظلمات من العماية والعجز عن إدراك حقائق الأشياء، والدلائل على ذلك فيما يلي:

١ ـ يقول الطبيعيون: إن الضوء سيال يجعل الأجسام مرئية، فهذا التعريف لم يبين لنا حقيقة الضوء، وكذلك لم يتفقوا على السبب المولد للضوء، فقد ذهب بعضهم إلى أنه ينشأ من الشمس مباشرة، وذهب البعض إلى أنه منتشر في الكون، وأنه مثل الصوت، يصل إلى العين بالتموجات التي تحدثها الاهتزازات المكتسبة من ينبوع الضوء نفسه، وصاحب الرأي الأول هو العلامة (نيوتن) وسمى ذلك طريقة التشعع، وصاحب الرأي الثاني هو العلامة (ديكارت) وسمى ذلك التماوج، ووافق على هذا (نيوتن) وسـمى ذلك طريقة التشعع، وذكر الرأي الثاني أنه الضوء، وسرعته قلَّ من يدركها أو يتصورها، وكلُّ ذلك يدلنا على أنهم لا يزالون يجهلون حقيقة الضوء تمام الجهل مع أنه ظاهرٌ للعيان.

٢ ـ وقال العلماء: إن بين الأجزاء الفردة مسام يظن أنها مملوءة بسيال لطيف جداً، حائز للصفة المطاطة وفاقد للعطالة، والعطالة في اصطلاحهم: محافظة الجسم على الحالة التي هو فيها، فإن كان متحركاً فبقاؤه على الحركة، وإن كان ساكناً فعلى السكون. وهذا السائل هو ما يسمونه (بالأثير)، وقالوا: إنه سيال مالئ الفراغ تام الاتصال، غير مرئي، ولا محسوس، ولا قابل للوزن، وفي حركته تحصل الحرارة والكهربائية والمغناطيسية، وهو ينفذ بين أجزاء الأجسام الفردية، ولا فرق بين صلب ومائع وغازي، ولا يعرف بأية حاسة من الحواس، ومع ذلك لا يجوز إنكاره بالنظر إلى الحوادث المشاهدة، وإلى حالة العلم الحاضر!.

٣ ـ وقال العلماء: إن الكهربائية قوة عظيمة تتولد من احتكاك الأجسام بعضها ببعض؛ وهي سلبية وإيجابية، أو جاذبة ودافعة؛ فمن الأجسام ما كانت كهربائية سلبية، ومنها ما كانت إيجابية، فالاحتكاك يولد الحرارة، وهي تولد النار، وعنها ينشأ النور.

٤ ـ وقالوا: إن المغناطيس هو معدن أكثره من الحديد، وفيه خاصة جذب المعادن وخصوصاً الحديد، وفرقوا بين الجسم الممغنط والجسم المكهرب؛ إن الأول يجذب بعض الأجسام من غير أن يطردها بعد حين، وأن الثاني يجذبها

جميعاً ثم يطردها، ويختلف أحدهما عن الآخر بأن الكهربائية تنتقل من جسم إلى آخر وهو ما لا يفعله المغناطيس.

٥ ـ وقد عللوا سقوط جسم نحو مركز الأرض بأن للأرض قوة جاذبية تجذب كل جسم إليها، وهذه هي الجاذبية العامة في عرف الطبيعيين، ولم يعرفوا حقيقتها حتى الآن!.

فترى أيها القارئ مما ذكر من الأمثلة الكونية التي أجمع علماء العصر: أن حقائق تلك الأشياء لا تزال مجهولة لديهم، وأن الذي دفعهم إلى القول بها هو تعليلهم للحوادث الطبيعية ليس غير. وما دامت الأشياء المعدودة من الحقائق الثابتة في نظر العلم الحديث لا تزال للأخذ والرد والنقد والتمحيص؛ فالأجدر بفكرة (دارون) وأمثالها؛ وهي مما اختلف فيه؛ أن تكون قابلة لمثل ذلك.

فنظرية النشوء والارتقاء لاتزال ظنية وقابلة للأخذ والرد والجدال والحوار. غير أن هذه النظرية لا علاقة لها بالدين[1]، وأن للمرء أن يعتقدها أو ينكرها أو يقف موقف المتردد منها.

فقد وردت آيات في القرآن عن خلق الإنسان لم تبين لنا أدوار حياته وتقلبه وحالة فطرته وما طرأ عليه. ومن ذهب من علمائنا إلى أن الإنسان لم يشتق من غيره، وإنما خلق مستقلاً؛ فإنه يستدل (بإذا) الفجائية الواردة في آية: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم: ٢٠]، فإنهم يقولون بأن هذه المفاجأة دالة على أن الإنسان لم يمر على المعدن والنبات والحيوان، بل خلق من التراب مباشرة، ورأى القائلون بهذا القول الإمام الرازي صاحب التفسير المشهور وناقشوه فيما ذهب إليه؛ بأن (إذا) الفجائية كثيراً ما وردت في القرآن وفي كلام الفصحاء. ألا ترى أنه وردت في آية ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [يسٓ: ٧٧]، مع أنك ترى بين (كون) الإنسان نطفة وبين جداله طبقات كثيرة، علقة، فمضغة، فعظماً، فخلقاً آخر، فطفلاً، فمراهقاً، فشاباً، ففتى وهنا يكون الخصام.

على أن آية: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾

---

(١) بل هي مضادة للدين ومعتقداته. (الناشر)

قد تشير إلى النشوء والارتقاء من وجهين: الأول كلمة (ثم) التي تفيد معنى التراخي، وهو مخالف للمفاجأة! والوجه الثاني أن آية: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ لا تفيد كلمة (إذا) فيها معنى المفاجأة لما بيّناه!.

إن علماء العصر إزاء فكرة النشوء والارتقاء هم ثلاث فرق:

فرقة قد وصلت من الإعجاب بها إلى حدٍّ يكاد يفوق الوصف؛ فهذه الفرقة أطرت على هذه الفكرة وقدستها، وحملت حملة عنيفة على الأديان جميعها، وقد زعمت أن القائلين بها مضطرون إلى إنكار الصانع عزَّ وجلّ، في حين أن (دارون) نفسه قال في كتابه (أصل الأنواع): (أرجِّح بدليل التمثيل أن أصل كل الأحياء التي عاشت على الأرض صورة واحدة أولية، نفخ الخالق فيها نسمة الحياة)!.

والفرقة الثانية قد حملت على القائلين بهذه الفكرة حملة عنيفة شعواء، وطعنتهم طعنة نجلاء، وصوَّرتهم بصورة قبيحة شنعاء. ومن بين هذه الفرقة علماء أعلام منا لهم مكانتهم الدينية! فلم يجادلوا بالتي هي أحسن على طريقة علمية كما أمرهم القرآن!.

أما الفرقة الثالثة فهي بين الفرقتين، وقد بحثت في هذه الفكرة بحث المدقق المجرد عن كل ما يسمى تعصباً، فأوصلها بحثها إلى أن (داروين) قضى بأن أنواع المخلوقات متولدة كلها بعضها من بعض بالانتخاب الطبيعي، وتولدها هذا إنما قال به بعد بحوث كثيرة أمضى فيها عشرين عاماً! وقد بنى فكرته على أربعة أشياء أو أربع سنن، وهي: الانتخاب الطبيعي، وتنازع البقاء، وبقاء الأصلح، والوراثة، هذه هي الفكرة القائلة بالنشوء والارتقاء، وهي لا تصادم الفكرة القائلة بوجود قوة مبدعة لهذه الكائنات الباهرة! فإن القول بأن أفراد الأنواع ناشئ بعضها عن بعض بتأثير سنن طبيعية معلومة ليس مما يقبل في وقت استحكمت فيه حلقات التقليد، فاتفقوا جميعهم على القول بالخلق المستقل. ولولا فئة من العلماء الدينيين أخذت تبحث في نصوص الكتاب المقدس بصورة يؤيدها العلم؛ لبقيت الأغلال والقيود متحكمة في رقاب البشر وأرجلهم حتى اليوم.

على أن الرغم من كلٍّ ما سبق بيانه؛ فإن لأنصار التطور أدلة قوية[1] أيضاً على التطور العضوي، تعزز فكرة النشوء والارتقاء بصورة عمومية، ومن تلك **الأدلة القوية:**

١ ـ علم التشريح المقابل.

٢ ـ الأعضاء الأثرية.

٣ ـ التصنيف الطبيعي للحيوانات.

٤ ـ الأدلة من علم الأجنة.

٥ ـ الأدلة من فحوص الدم.

٦ ـ الأدلة من علم المتحجرات، وهذه أقواها.

٧ ـ الأدلة في التوزيع الجغرافي للحيوانات.

وهذه الأدلة كلها مفصلة في كتبهم تفصيلاً تكاد لا تدع للشك مجالاً في حقيقتها، لأنها تستند على اختبارات وتدقيقات علمية بحتة.

فإذا دققنا وقارنا بين ما جاء به أنصار التطور، وبين ما جاء به خصومهم فيما ذكرناه آنفاً؛ يتبين لنا أن هناك غير قليل من الاختلاف بين العلماء فيما يتعلق بنظرية التطور، ولكن هذا الاختلاف لا يتناول أساس التطور، بل تفاصيل العوامل التي لعبت دوراً مهماً في تسيير وجهة التطور وتعليلها، إذ لا يوجد بين علماء الحياة في العصر الحاضر من ينكر كلياً حقيقة التطور، وحتى إن أهم خلاف كان قائماً بين الطرفين فيما إذا كان الإنسان قد نشأ من القرد أو مستقلاً عنه، قد زال الآن تقريباً، إذ إن الغالب من جمهور العلماء اليوم يؤيدون بنتيجة أبحاثهم العلمية الأخيرة بأن الإنسان قد نشأ وتطور مستقلاً في شجرته دون شجرة القردة! وهذه العالمة الإنكليزية المعاصرة (دوروثي ديفدسن) تصرح في كتابها (الإنسان) بقولها: «**إنه ليس هناك أسخف من الرأي القائل بأن الإنسان تحدر من القرود!**».

---

(١) هم يروونها أنها قوية. (الناشر)

ثانياً ـ إن في التطور يد الله القادر المتعال:

إن بعض أنصار التطور يقولون: إن التطور في الأحياء نشأ عن الطبيعة المادية البحتة، كما إنهم يقولون بحيوانية الإنسان، وينكرون إرادة الخالق في هذا التطور، ويجاريهم في هذا الاعتقاد من كانت على بصيرته غشاوة ليست لها قدرة على النفاذ إلى روح الحقيقة.

لأن قطع الصلة بين الإنسان وخالقه على أساس أن الطبيعة هي التي تشرف على الحياة في الأرض، وهي التي تتدخل في عملية النشوء والارتقاء، وأنها هي في آخر الأمر التي خلقت الإنسان ومنحته أعضاء جسمه وغرائز نفسه؛ ما هي إلا مغالطة مضحكة! فسر نشوء الحياة على ظهر الأرض، والسر الذي يجعل الأحياء تتشبث بالحياة وتتطور تبعاً لذلك لمواجهة ما يحيطها من ظروف، ثم السر الخفي في قدرتها على هذا التطور العجيب؛ كل ذلك لدلائل ناصعة على وجود خالق حكيم عليم مسيطر على القوى الطبيعية، ومسيرها حسب مشيئته بقدرته الخارقة.

فهذا (فرانكلين) العالم الأمريكي المتخصص في علم الحيوان في كتابه (سير التطور البشري) يقول: «إن تطور الإنسان من غير استمرار من قوة معنوية تقدمه في الطريق المرسوم للرقي من الحيوانية إلى الإنسانية، يستحيل كما يستحيل في مطبعة جمع كتاب من تمثيليات (شكسبير) بإلقاء الحروف كيفما اتفق بدون تفكير، وليس من شك في أن التطور أوجد الإنسان لا من المصادفات البحتة ـ كما يزعم قاصرو العقل ـ بل هو تطور كانت فيه من أوله إلى آخره يد الله القادر المتعال». هذه تذكرة من رجل عالم للذين ليس لهم اختصاص في علم من العلوم، وينتهزون الفرص للإنكار كلما سمعوا من الروايات الصادرة من عقول الحمقى!.

ثم هذا (والاس) شيخ علماء الطبيعة، وشريك (داروين) في كتابه (عالم الأحياء) يقول: «إن وجود هذه الأحياء يستلزم:

أ ـ وجود قوة خالقة مرشدة مدبرة، أوجدت المادة على أسلوب يجعل حصول هذه التنوعات من الممكنات.

ب ـ وجود عقل مرشد لأنه لا بد من الإرشاد في كل درجة من درجات النشوء.

ج ـ لا بد لهذه القوة الخالقة من غاية ترمي إليها فيما خلقته ودبرته في هذا الكون الوسيع طوال هذه العصور الجيولوجية الغابرة والحاضرة، وعندي: إن هذه الغاية هي الإنسان خلاصة المخلوقات، وبذلك نفسر كثيراً من غرائب النشوء والخلق، والإنسان هو المخلوق الذي يفهم شيئاً من نواميس الطبيعة، ويستقصي أفعالها، ويدرك قيمة القوى التي فيها، ويستنتج وجود العقل المتسلط عليها.

وهذا (لامارك) أيضاً يسلم بوجود الله، وينسب إليه وجود الهيولى المركب منها الكون.

وهذا (سبنسر) مع تأييده لـ (داروين) في مذهبه في النشوء والارتقاء يسأل نفسه: ما هي القوة التي يتحتم بقاؤها؟ أهي تلك القوة التي تؤثر في عضلاتنا والتي تشعر بها حواسنا؟ كلا! بل هي تلك القوة المطلقة المجهولة المستقرة وراء الصور والمشاهدات، وراء تلك التطورات الطبيعية من الأحياء.

ونحن مع عدم إمكاننا أن ندركها فإننا نتأكد من أنها أبدية، لم تتغير ولن تتغير، كل شيء زائل؛ أما هي فباقية أبد الآبدين، وهي علة العلل، وعنده ـ أي: سبنسر ـ أن الاعتقاد السائد في ماهية الارتقاء الطبيعي ليس يقف عند حد الإبهام والغموض، بل هو خطأ لا تنتابه الحقيقة ولا هو من الحق في قليل ولا كثير.

ثالثاً ـ نظرية التطور تتناول الكون كله:

شاء الخالق عزَّ وجلّ أن يوجد الكون بأسره على سنن وقوانين التطور، ولو شاء لأوجده على صورة غير تطورية بأن يخلقه خلقاً آنياً في لحظة واحدة، أن تتعلق إرادته بأي شيء فيقول له: كن، فيكون حتماً في الحال، ولكن شاءت حكمة الخالق جل وعلا أن يجعل سنة التطور تتناول مظاهر الكون بأكمله.

١ ـ التطور الفلكي: فإذا نظرنا إلى الأجرام السماوية وكيفية نشوئها في دراستنا علم الفلك، نعلم أنها قد نشأت وتكونت على طريقة تطورية، قد تبلغ مراحلها في مدارج التطور مئات الملايين بل المليارات من السنين، وهذه حقيقة لا شك فيها.

إذ إن علم الفلك قائم على المشاهدات والرصدات عن طريق آلات دقيقة علمية متقنة، وخاصة عن طريق (المطياف) الذي يحلل أطياف النجوم ويقدر

عمرها، هل هي حديثة التكوين نسبياً أو قديمة التكوين؟ فيقدر ما بلغ النجم من مرحلة في تطوير تكوينه.

وعلم الفلك يقرر: بأن العوالم الشمسية المنتشرة في الفضاء الذي لا يدرك منتهاه تكونت من سدم وهي سحب، أو بتعبير آخر: غازات أو دخان على حدِّ تعبير القرآن الكريم، متكونة من ذرات صلبة مختلفة الحجم والمعدن، ثم تطورت تلك السدم في مراحل قد تبلغ آلاف الملايين من السنين؛ فتحولت إلى نجوم تختلف حرارة سطحها بين (٣٠,٠٠٠) درجة مئوية من النجوم البيضاء الضاربة إلى الزرقة، و(٦٠٠٠) درجة من النجوم الصفراء، و(٣٠٠٠) درجة مئوية من النجوم الحمراء، والأولى شابة فتية حديثة التكوين، والثانية كهلة مثل شمسنا، والثالثة بلغ بها العمر عتياً؛ حيث بلغت الشيخوخة وقد بردت بعض النجوم فذهب ضوؤها.

وفي هذا الفضاء الخارق توجد الآن كثير من السدم، وهي أمهات العوالم الشمسية في طريق تطورها ستولد عوالم شمسية، والشمس بعد ولادتها تتطور، وقد تتمخض بطريقة ما فتلد أولاداً تدعى بالسيارات تدور في فلكها حول أمها، وكل سيار يمر أيضاً بمراحل التطور قد يبلغ مئات الملايين من السنين، وفي تطوره هذا قد يتمخَّض عن ولد أو أولاد له تدعى بالأقمار التي تدور في فلكها حول أمها السيارة أيضاً، وهكذا إن التطور الفلكي يتناول الأجرام السماوية كلها.

٢ ـ **التطور الأرضي والجيولوجي**: فأما الأرض أمنا وهي بنت الشمس جدتنا؛ فبعد ولادتها من الشمس أخذت في مدارج التطور أيضاً، فمر عليها مئات الملايين من السنين حتى بلغت ما هي عليها الآن في صلاحيتها للحياة، وهذه حقيقة لا شك فيها، إذ إن دراسة طبقات الأرض وصخورها المختلفة، والانطباعات والآثار العضوية التي وجدت فيها، وغير ذلك من الدراسات العلمية في المياه المحيطية والغازات الجوية، دلت دلالة واضحة على كيفية تطورها، فالصخور خاصة ما هي إلا سجل تاريخي لعمر الأرض، فأبعدها عمقاً أكبرها عمراً، وإذا استقرأنا الطبقات الصخرية في جميع القارات نرى نظاماً لهذه الطبقات من حيث قدم التكوين وحديثه، وفي كثير من هذه الطبقات الصخرية نعثر على متحجرات للنبات وللحيوان، وإذا تتبَّعنا هذه المتحجرات من الطبقة

السفلى حتى الطبقة العليا التي نعيش عليها؛ نجدها توافق موكب التطور، فإذا استثنينا صخور الدهر القديم البركاني التي لم يظهر فيها أثر للحياة، لأن الحياة لم تكن قد نشأت بعد لحرارة الأرض الهائلة التي لا تسمح للحياة؛ فإن صخور الدهور الأخرى قد تحجرت فيها، أو انطبعت فيها الآثار العضوية التي تدل دلالة ظاهرة على تطور الأحياء من أدنى إلى أرقى فأرقى.

وإن العلماء قدروا عمر الأرض على ضوء تلك المتحجرات فقالوا: إن عمر الأرض منذ أخذت قشرتها تتكون بما لا يقل عن (٢٠٠٠) مليون سنة، في هذه المدة تطورت في تكوين قشرتها وفي توزيع اليابسة والماء فيها، وفي مناخها، وفي حياتها النباتية، وفي حياتها الحيوانية.

وقد قسم العلماء هذه المدة في مدارج تطورها إلى أربعة أزمنة جيولوجية؛ كل زمن استغرق ملايين السنين؛ وامتاز كل زمن عن الآخر بنوع من النباتات والحيوانات.

٣ ـ **التطور العضوي**: ظهر مما سبق أن التطور تناول مظاهر الكون بأسره من فلكي وأرضي؛ فلا بد أن يتناول الحياة العضوية أيضاً كما تبين من دراسة الصخور في القشرة الأرضية، والانطباعات والآثار العضوية التي وجدت فيها. إذ جعل الله التطور سنة طبيعية في هذا الكون، شمل شمولاً عاماً كل مظاهره: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

٤ ـ **التطور البشري والاجتماعي**: إذا استقرأنا التاريخ، نرى أن البشرية منذ ظهورها حتى الآن أخذت تتطور أيضاً في مدارج تفكيرها وعقليتها وحياتها الاجتماعية منذ العصور الحجرية القديمة حتى الآن، ولا تزال البشرية آخذة بالتطور في معارج تفكيرها. وتبعاً لذلك أخذ التشريع يتطور أيضاً بصورة عامة نظراً إلى تطور مدارك الإنسان.

رابعاً ـ موقف الإسلام من نظرية التطور الفلكي والجيولوجي:

الإسلام جاء على الفطرة، يتواءم مع سنن الطبيعة. فالقرآن جاء بآيات أيدت تأييداً كاملاً (التطور الفلكي والجيولوجي) بكل ما فيهما من معانٍ، فقال الله في سورة فصلت: ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ

أَندَادًاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ [فصلت: ٩ ـ ١٢]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ﴾ [الأعراف: ٥٤].
واليوم المذكور من الآيتين الكريمتين ما هو إلا يوم الخليقة الذي يستغرق مئات الملايين من السنين، فاليوم يعبر عن دهر أو زمن جيولوجي كما أسلفنا في تطور الأرض إلى أزمنة جيولوجية يختلف كلُّ زمن عن الآخر في مظهره الجيولوجي وفي حياته النباتية والحيوانية، فكلُّ زمن جيولوجي، أو بتعبير القرآن: كلُّ يوم يستغرق ملايين السنين. وهذا يدل دلالة واضحة على مدارج التطور في هذه الحقب الطويلة.

أما فيما يتعلق في كيفية تكوُّن العالم الشمسي؛ فقد اتفق العلماء على: أن العالم الشمسي ـ كما أسلفنا ـ كان كتلة سديمية واحدة، فانفصل بعض أجزاء الكتلة تدريجياً بطريقة ما، فتكونت منها السيارات التي أخذت تدور حول والدتها الشمس بتأثير جاذبيتها، والقرآن الكريم جاء بهذه الحقيقة أيضاً قبل (١٤) قرناً؛ حيث قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ ﴾ [الأنبياء: ٣٠]؛ أي: كانتا كتلة واحدة ففصلناهما!.

نشأة الحياة في نظر القرآن والعلم:

فقد تعرض القرآن الكريم أيضاً لبدء الحياة في هذه الأرض؛ فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [النور: ٤٥].
وهذا الذي قرره القرآن منذ قرون وأجيال، يقرره العلماء الآن، إذ يقولون: إن أول حيوان وجد في هذه الأرض إنما وجد في الماء في صورة خلية ضئيلة جداً، تحمل سر الحياة القابلة للنمو والتكاثر والتطور... وبتكاثر هذه الخلية الضئيلة كثر ما يعيش في الماء من الأحياء... وتطورت هذه الأحياء فصارت أنواعاً وأجناساً وفصائل، وظلت تعيش في الماء ما شاء لها الله، ثم بدأ بعضها يدرج منه

إلى وجه الأرض ويعيش عليه. . . وتأقلم ذلك الذي درج إلى سطح اليابس، وتكاثر وتطور، فكان منه ما نعرف من أنواع الحيوان، وما لا نعرف مما انقرض نسله وغير عهده. ذلك ما يقرّره القرآن ويقرِّره العلم عن بدء الحياة في هذه الأرض. وهو تقريرٌ يدلُّ على أن الأرض عرفت كثيراً من أنواع الأحياء المائية والبرية قبل أن تعرف هذا الإنسان الذي يسكنها الآن بما لا يحصيه إلا الله من الدهور. . فلما خلق الله سبحانه آدم كانت الأرض حافلة بأصناف النبات والطير والدواب.

موقف الإسلام فيما إذا تحققت نظرية التطور:

يقول الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار رحمه الله: «فإذا وصل أصحاب نظرية داروين إلى الأدلة القاطعة التي تجعل هذه القضية بديهية تساوي في بداهتها: السماء فوقنا، والأرض تحتنا، كان لزاماً علينا أن نؤوّل القرآن ليوافق الواقع كما هي القاعدة القائلة: إن القرآن يؤخذ على ظاهره بدون تأويل، إلا إذا منع من ذلك مانع فيعمد إلى تأويله»[1].

ويجيب على ذلك الأستاذ الفاضل (البهي الخولي) في كتابه (آدم) بقوله: «إن ذلك لو حصل؛ فإن مرونة آيات الكتاب الكريم ـ وأعني بالمرونة سعة آفاقها ـ تغنينا عن التأويل الذي يتوقعه أستاذنا الكبير رحمه الله، أو على الأقل سيكون التأويل من القلة بحيث لا يبلغ الدرجة التي يتصورها القارئ من عبارة الأستاذ التي نقلناها».

ثم يقول: «ومن رجع إلى الآيات التي تتحدث عن بدأ خلق الإنسان؛ يقتنع بما نقول. . ونكتفي عن إيرادها كلها بايراد قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٦ ـ ٩]؛ فالمرونة التي ترى في هذه الآية الكريمة وغيرها كفيلة بإقرار العقيدة التي أرساها الدين في قلوبنا، ولا خوف عليها بما يأتينا به هؤلاء».

---

(١) انظر الحاشية (١) في ص١٧.

(أما الآيات الأخرى التي يدل ظاهرها على التطور)[1] فهي قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ [الحج: ٥]، ثم قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٤]، وقوله تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ [نوح: ١٣ ـ ١٤] أي: خلقكم طوراً بعد طور كما جاءت في ذلك المعاجم اللغوية والتفاسير الموثوق بها، والإسلام يحثُّ معتنقيه على النظر في كيفية الخلق وتطوره عن طريق دراسة الأرض وطبقاتها الجيولوجية بقوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

قلنا: إن التطور شمل كلَّ مظاهر الكون دون استثناء مادة منه، والعلم أماط اللثام عن الوحدة في التكوين العام، وهذا ما جاء في قوله تعالى: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ ۖ ﴾ [الملك: ٣].

(الشريعة الإسلامية فيما تتعلق بالمعاملات جاءت على سنة التطور) أيضاً؛ بدليل الأحكام الواردة في الآيات القرآنية والسنة النبوية المتعلقة بالتشريع، وما جاء به فقهاء الأمة الإسلامية في مدونات مذاهبهم الفقهية، حتى أصبح الدين الإسلامي في معاملاته منسجماً مع الحياة الاجتماعية المتطورة دائماً.

ولذلك امتاز هذا الدين القويم امتيازاً عظيماً على الأديان الأخرى، بأنه حدد الأسس العامة وترك الحرية للتطور والتقدم ضمن نطاقها، فالدين الإسلامي إذن تقدمي تطوري بكلٍّ ما في الكلمة من معانٍ.

---

(١) هذه الآيات دلالة على معجزة خلق الإنسان، ومروره بأطوار، وليس ظاهرة تطور. ارجع إن شئت إلى كتاب طريق الإيمان للشيخ عبد المجيد الزنداني، تجد أقوال علماء الغرب. طباعة دار وحي القلم بدمشق. (الناشر)

وبناء على ما قدمنا: (إن نظرية التطور لا تمس القرآن الكريم فيما يتعلق بخلقة آدم) إذا ما علمنا أن آيات كريمة جاءت في القرآن كرم الله فيها الإنسان، وفضَّله على سائر مخلوقاته، وسمَّاه (خليفة) وقال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وسخَّر له ما في السموات والأرض، ومنحه من المواهب العقلية والفكرية التي خولته مكان السيطرة في هذا الكون يسخره لمنافعه.

معجزة القرآن في خِلقة الإنسان:

من قرأ علم الطب وعلم التشريح يقف دهشاً حائراً فيما جاءت به الآيات الكريمة في خلق الإنسان من معجزات باهرات لم يطلع عليها العلماء إلا بعد ما تقدمت العلوم في العصر الحديث: وذلك:

أ ـ خلق الإنسان من طين أو تراب: قد تحقق ذلك بالتحليل الكيميائي، فإذا أخذنا قبضة من تربة زراعية خصبة، وأجريت عليها عمليات التحليل الكيميائي، وجدناها تتركب من (١٦) عنصراً، وكذلك الحال في أنسجة جسم الإنسان؛ فهي تتركب من هذه العناصر التي تحتوي عليها التربة الزراعية، والتي توجد في جميع النباتات والحيوانات.

ب ـ في كيفية تطور الجنين في بطن أمه؛ وقد ثبت بالفحص الطبي والتشريحي عن طريق مخترعات حديثة.

ج ـ في معنى (قرار مكين): وهذا ثبت علمياً، يطول شرحه، ومعروف عند الأطباء.

د ـ في معنى (في ظلمات ثلاث) في قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ [الزمر: ٦] وثبت عن طريق الفحص العلمي الحديث أنها ثلاثة أغشية متداخلة!.

هـ ـ إن الخِلْقة جاءت على أطوار، قد خلق الإنسان من سُلالة!! أدَرَس النبي ﷺ علم الأجنَّة؟! أدَرَس علم التشريح فعرف هذه الحقائق العجيبة التي لم يأت بها العلم والعلماء المختصون إلا بعد جهد جهيد؟ وبعد أن ساعدتهم في هذا السبيل هذه الاختراعات الحديثة كالميكروسكوب وأشعة رونتجن وغيرها؟!

كلا! ولكنه كتاب الله المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وهكذا يبدو أن رصيد هذا الكتاب المقدس العجيب الخالد لا يفنى ولا ينتهي، وأن معين العلم والإلهام فيه لا يضمحل ولا يغيض، وإن العلم كلما تقدم سيظل يكشف آفاقاً بعد آفاق، والمعجزة الخالدة(القرآن) ينادي: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

خامساً وأخيراً ـ نظرية التطور، [نظرية عربية إسلامية]:

أظن ـ وإن بعض الظن إثم ـ أن كثيراً من المتعلمين لم يعلموا أن نظرية التطور التي جاء بها (داروين) و (لامارك) ما هي إلا نظرية عربية إسلامية قال بها علماء الإسلام قبل أكثر من عشرة قرون، قبل أن يخلق (داروين) بمئات السنين! فمتى كان علماء الدين الإسلامي ينكرون ذلك ويدعون أن الله تعالى خلق جميع الأشياء في وقت واحد، على ما يزعم الغافلون أو الأفّاكون، وهم ـ أي: المسلمون ـ يرون أن الله بلطف حكمته يخلق الثمر من الشجر، والشجر من النواة، ولا يجعل العنب حلواً إلا بعد أن يجعله حامضاً، ولا يجعله حامضاً إلا بعد أن يجعله مرّاً.

فأنت تجد الكثير من فلاسفة المسلمين كانوا يأنسون بأمثال هذه الفكرة، وكانت تدور على ألسنتهم مسألة التدرج والتطور بعبارات مختلفة، فإن شئت أيها القارئ فاقرأ كتاب (الفوز الأصغر)، وكتاب (تهذيب الأخلاق في الأجسام الطبيعية) للعلاّمة (أبي علي أحمد بن محمد بن مسكويه) المتوفى سنة ٤٢١ هـ؛ تطّلع على أبحاث مسهبة في نظرية التطور، لا تختلف قطعياً عما جاء بها (داروين) و(لامارك) في مذهب النشوء والارتقاء، وفي تطور المخلوقات، ولقد ذكروا أن أول من قال في تدرج الإنسان من الحيوان هو (ابن الطفيل: أبو بكر محمد بن عبد الملك القيسي) الفيلسوف الطبيب؛ له عدة مؤلفات في الفلسفة والهيئة، وهو صاحب الرسالة المشهورة في أسرار الحكمة المشرقية التي سمّاها (حي بن يقظان)، أودعها من أسرار العلوم والحكمة ما دل على تفوق واقتدار، وقيل: إن هذه الرسالة من عمل الرئيس ابن سينا، وأنت تقرأ هذا وأشباهه مما يدل على أن فكرة النشوء والارتقاء كانت قد اختمرت في عقول العرب تقرؤه في مؤلفاتهم،

وخاصة في مصنفات ابن مسكويه الآنفة الذكر[1]، وذلك في أواخر القرن الرابع الهجري!! وبعد هذا كله، فهل يبقى من شك في أن الدين الإسلامي جاء على الفطرة ممثلاً الطبيعة بأجلى معانيها ومظاهرها.

* * *

(١) حتىوإن وجدت إشارات في كتب الأقدمين عن التطور، فهذا ليس دليلاً على صحة فرضية التطور. (الناشر)

المبحث الثالث عشر

مكانة الأرض في القرآن الكريم

١ ـ جاءت كلمة (الأرض) في الآيات القرآنية في زهاء (أربعمئة وخمسين) موضعاً، بمناسبات مختلفة عديدة، وذلك لأن الأرض مهد الإنسان، وهو المخاطب فيها والمقصود منها، وهو خليفة الله في الأرض، وأُنشئ منها، وإليها يعود، ومنها يُبعث مرة أخرى، ويقول تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ﴾ [النجم: ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [هود: ٦١].

وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [الجاثية: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥].

هذه مكانة الأرض العظمى في القرآن. وإن كانت هي ذرة حقيرة نسبة إلى الكون العظيم!.

* * *

المبحث الرابع عشر

موقف القرآن من حركة الأرض

هندسة الكون قائمة على الحركة، فلا سكون في الكون، إذ شاءت إرادة رب العالمين أن تخلق العوالم كلها بهذه الصورة الرائعة؛ التي تجعل كلَّ شيء في هذا الوجود في حركة دائبة؛ من أصغر ذرة في الكون بما في بروتوناتها وإلكتروناتها حتى العوالم الشمسية الجبارة بما في سياراتها ومشتملاتها، فكلّ شيءٍ في هذا الكون العجيب كأنه في دورانه هذا يسبح لله فاطر السموات والأرض، ابتهالاً لجبروته، وهياماً بقدسيته، وخضوعاً لسنته، وخشوعاً في عبادته هذه الصامتة!.

كما جاء في سورة الإسراء قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤]. والأرض كذلك كالأجرام السماوية الأخرى لها حركتان يومية وسنوية، والدلائل عليها قاطعة محسوسة حتى تكاد تكون ملموسة لا تقبل الجدل، وقد أسهب العلماء المعاصرون في الحركتين المذكورتين إسهاباً في كتبهم لا تخفى على من اطلع عليها.

وعلى الرغم من كل ذلك قال بعض المفسرين من علمائنا بثبوت الأرض وعدم حركتها؛ مستدلين بمصدرين:

المصدر الأول: هو ما قاله بعض الشواذ من علماء أوروبة بعدم حركة الأرض.

والمصدر الثاني: بعض الآيات القرآنية المتعلقة بحركة الأرض، والتي فسَّرها بعض العلماء تفسيراً لا يتفق مع الحقيقة والواقع.

أما المصدر الأول: فلا يخلو من أمرين: فإن هؤلاء العلماء (وهم ندرة شاذة) إما قصدوا الدجل لغرض أو مرض في نفوسهم، وإما أنهم ولعوا في حب الظهور ولو على حساب مخالفة الحقائق الواضحة وإنكارها جرياً على قاعدة (خالف تعرف).

أما المصدر الثاني: وهو القرآن الذي استدلَّ ببعض آياته بعض المفسرين على عدم حركة الأرض؛ فنوضحه كمايلي:

١ ـ قال بعض المفسرين: «إن الله ثبت الأرض بالجبال تثبيت الخيمة بالأوتاد، فلا تتحرك، مستدلين بقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥].

وبقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٦ ـ ٧].

وبقوله تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ [النازعات: ٣٢]، فيقول هؤلاء المفسرون: إن هذه الآيات كلها نصت في أن الله ثبت الأرض بالجبال تثبيت الخيمة بالأوتاد، فلا تتحرك، والمَيَدَان لغةً هو التحرك، إذن فلا حركة للأرض كما يزعم الزاعمون».

ونحن نقول: إن الآيات المذكورة جاءت في القشرة الأرضية فقط لا الأرض كلها؛ فالقشرة الأرضية وخاصة سطحها هي مدار الحياة على وجه الكرة الأرضية، وهذه القشرة التي تكون الغلاف الصخري تحيط بالكرة الأرضية، وإن هذا الغلاف رقيق جداً إذا ما قيس بكتلة الأرض العظيمة، فنسبته إلى الكتلة الأرضية كنسبة قشرة البيضة إلى البيضة نفسها، ولكنه على الرغم من رقته وقلة سمكه فهو الأساس في وجود الحياة على الأرض، ولذلك طوقت هذه القشرة بسلاسل، أو بتعبير آخر: بمحاور جبلية ثبتتها تثبيتاً، وصانتها من أن تتمزق وتتحرك، كما جاءت الآيات الكريمة في ذلك لتستقيم الحياة عليها.

وأكبر دليل على أن الآيات الكريمة الآنفة الذكر قصدت القشرة الأرضية فقط لا الأرض كلها: هو قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٩]؛ جاءت الرواسي مقترنة بالإنبات الذي لا يكون إلا في سطح القشرة الأرضية؛ لأنه لا يمكن أن تثبت الأرض كلها بأوتاد الجبال كالخيمة! كما يقول هؤلاء المفسِّرون! وذلك لحجمها العظيم البالغ آلاف الملايين من الأمتار المكعبة، ولثقلها البالغ ستة ملايين المليون المليون طن، أي رقم ٦ يرافقه (١٨) صفراً، ولأنها محاطة بالفضاء من كلِّ جانب غير مرتكزة على ركيزة أو دعامة ما! مع العلم أن أعلى جبال العالم تكاد تكون نسبتها إلى حجم

الأرض كنسبة تضاريس قشرة البرتقالة إلى البرتقالة نفسها.

فالإسلام يحكم العقل في كل شيء؛ فهل يعقل أن جبالاً هذه شأنها كأنها لا شيء نسبة إلى حجم الأرض تتمكن أن تثبت الأرض بها؟! كلا ثم كلا! على أن هناك قوة جاذبة جبارة تتمركز بمركز الأرض تمسك الأرض وما عليها مسكاً لا هوادة فيه، صانت الأرض كلها من اضطراب وميد وتمزيق وتخريق!.

والرواسي لغة: هي الثوابت والرواسخ، فالقوة الجاذبة تعد من الرواسي أيضاً بالنظر إلى الأرض كلها، والجبال تعد من الرواسي أيضاً نظراً إلى القشرة الأرضية فقط(١).

مع العلم أن هذه الموازنة الفذَّة في الأرض وسكونها الظاهري المطلق ـ كما يتراءى لنا ـ هي نتيجة حركتيها! فلو وقفت الأرض عن الحركة لحظة من الزمان لتمزقت وانتثرت في الفضاء! فحركة الأرض إذن: هي التي أدَّت إلى موازنتها والمحافظة على موقعها ومركزها في الفضاء! فحركتها هي التي صانتها من الوقوع على سطح الشمس.

٢ ـ ويستدل بعض المفسِّرين بقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ [يسٓ: ٣٨]؛ على أن الشمس هي المتحركة لا الأرض.

أجل إن الشمس كذلك متحركة، فلا سكون في الكون كما أسلفنا، فالشمس أيضاً لها حركتان:

الأولى: حول نفسها.

والثانية: حول جرم آخر.

ولكنها في نفس الوقت هي مركز لتوابعها التي تدور حولها كالسيارات

---

(١) راجع موضوع (قانون الجذب العام)، وكذلك موضوع (أثر الجبال على الحياة) في كتابنا (بصائر جغرافية)؛ تعلم منهما بصورة واضحة ما قصدت الآية الكريمة من كلمة الأوتاد. وكذلك اقرأ إن شئت موضوعاً عنوانه (الاختلاف في الشروق والغروب)، وآخر عنوانه (ظلال الله)، وآخر عنوانه (الحركة في الكون) تعلم منها حركتي الأرض على حقيقتيهما.

ومنها الأرض، وتنتقل الشمس بالفضاء بسرعة (٢٠) كيلو متراً في الثانية! ساحبة معها أولادها التي ولدتها ومن بينهم الأرض، فلو فرضنا كما يزعم المفسرون أن الشمس في حركتها الظاهرية هي التي تدور حول الأرض كما هو المشاهد، وتكمل دورتها في مدة (٢٤) ساعة كما يتراءى للناس، والأرض ثابتة، لقبلنا أن تكون سرعة الشمس في دورتها اليومية هذه ـ وهي بعيدة عن الأرض (١٤٩) مليون كيلومتر ـ زهاء (١٠٠٠٠) عشرة آلاف كيلومتر في الثانية! فقبول ذلك يتنافى مع قوانين الطبيعة والعقل والمنطق! وعدا ذلك: إن حجم الشمس العظيم الذي يفوق الأرض بمليون وربع مليون المرة، وكتلتها الجبارة التي تفوق الأرض (٣٣٠٠٠٠) مرة، لتدلان دلالة قطعية على حركة الأرض حول الشمس. إذ أنه ثبت بالتجربة والاختبار أن الأجسام تتجاذب بنسبة كتلها طردياً، فكلما كانت الكتلة أكبر قوة جذبها بنسبة ذلك أعظم، ولما كانت كتلة الشمس تزيد عن كتلة الأرض بألوف المرات؛ جذبت الشمسُ الأرضَ وأقسرتها على الدوران حولها.

ثم إذا نظرنا في ليلة غير مقمرة ظلماء إلى النجوم؛ نراها كلها على اختلاف أبعادها التي تقدر بالآلاف والملايين من السنين الضوئية، تكمل دورة واحدة في مدة ٢٤ ساعة من المشرق إلى المغرب؛ حول محور سمائي على استقامة المحور الأرضي الممتد بين القطب الأرضي والنجمة القطبية. أجل قبول هذه الحركة الكونية الظاهرية كما يتراءى لنا حول الأرض التي هي بمثابة ذرة أو هباءة نظراً إلى الملايين من الأجرام السماوية الجبارة، التي كل واحدة منها قد يبلغ جرمها أكبر من شمسنا بملايين المرات لا تتفق مع قانون الطبيعة والعقل إطلاقاً! فلا مفر إذن من قبول حركة الأرض حول نفسها من الغرب إلى الشرق تفسيراً لهذه الحركة الكونية اليومية! والآية الكريمة الدالة على الحركة في الكون إطلاقاً بما فيها الأرض؛ هي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، يفسرها بعض علمائنا تفسيراً غريباً إذ يقولون: «إن التنوين في (كلٍّ) تنوين عوض؛ أي: أن كلاً من الشمس والقمر يسبح في فلك، ولا ذكر للأرض كي يُدَّعى أنها مثلهما تسبح!!».

وهذا تأويل لا مبرر له؛ لأن:

أولاً: ﴿خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ يعود إلى الأرض، إذ يحصل الليل والنهار في الأرض لا في الشمس، فالليل والنهار يمثلان الأرض في الآية الكريمة لا غير.

ثانياً: إن التنوين في ﴿كل﴾ تنوين الكثرة إطلاقاً كما جاء في قواعد اللغة العربية أيضاً، وهو الواقع المتناسق مع سياق الآية، كما أن كلمة ﴿يسبحون﴾ على صيغة الجمع لا على صيغة التثنية تدل على ثلاثة أو أكثر، أما ما يقوله بعض المفسرين: أنه «جاء الجمع في كلمة (يَسبَحُون) باعتبار تعددهما بتعدد المطالع، وحسن هذا الجمع مراعاة للفواصل»، فهو تكلُّف وتعسُّف ظاهران في التفسير، والقرآن يتعالى عما قاله هؤلاء المفسرون في هذا الصدد، فالقرآن يُراعي المعنى أولاً ثم يُراعي الفواصل، فإذا تعارض المعنى مع سجع الفواصل ترك السجع كيلا يقع خلل بما يقصده من معنى، ودليلنا على ذلك آية أخرى جاءت في سورة (يس)؛ وهي قوله تعالى: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٣٩ ـ ٤٠]. فلم تكن الآيات التي جاءت قبل هذه الآية انتهت بواو، ونون، بل التي جاءت بعدها بنيت فواصلها عليها. ثم إن في الآية ﴿ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾ دلّت دلالة واضحة على الأرض نفسها أيضاً. أما ما قيل: أنه «جاء الجمع في كلمة (يسبحون) لتعدد مطالع الشمس والقمر»، فهو تخريج غريب بعيداً جداً عن اللغة والعقل والحقيقة!.

وبعد هذا كله؛ فيجب أن نسأل الذين يعتقدون بعدم حركة الأرض، الأسئلة التالية، نرجو أن يُجيبوا عنها لنعتقد بما يعتقدون!!:

١ ـ بماذا نفسِّر حركة الشمس والنجوم على اختلاف أبعادها حول الأرض ظاهراً بنظام واحد في كل (٢٤) ساعة؛ حيث تكمل دورة واحدة! أو بماذا نُفسر حركتي القمر حول الأرض من الشرق إلى الغرب من جهة، ومن الغرب إلى الشرق من جهة أخرى؟.

٢ـ بماذا نفسِّر حركة الكواكب السيارة شقيقات الأرض حول نفسها وحول الشمس دون الأرض؟!!.

٣ـ بماذا نفسِّر وجوب سير الأجرام السماوية حول الأرض بسرعة لا يمكن أن يتصوَّرها الإنسان لشدة بُعدها عنّا؟!.

٤ ـ بماذا نفسِّر تفلطح جهة القطبين في الأرض وانبعاجها من جهة خط استوائها! مع سكون الأرض؟!.

٥ ـ بماذا نفسِّر اختلاف السرعة على سطح الأرض وهي ساكنة؟!.

٦ ـ بماذا نفسِّر انحراف الأجسام الساقطة إلى الشرق عن استقامة الشاقول خلافاً للقاعدة الفيزيائية مع سكون الأرض؟!.

٧ ـ بماذا نفسِّر تحول البندول عن الخط الذي رسمه (١٥) درجة في كل ساعة عند القطبين، وتحوله (١١) درجة في كل ساعة في لندن، و(٨) درجات في كل ساعة في القاهرة، وهكذا حتى خط الاستواء حيث ينعدم التحول، وذلك مع سكون الأرض؟!.

٨ ـ بماذا نفسِّر انحراف التيارات المائية والهوائية عن اتجاهها الأصلي حسب قانون (فرل) مع سكون الأرض؟!.

٩ ـ بماذا نفسِّر تغير البروج السماوية التي تحل فيها الشمس من شهر لآخر مع عدم حركة الأرض حول الشمس؟!.

١٠ ـ بماذا نفسِّر قانون الجاذبية العام الذي يثبت عن طريق التجربة الميكانيكية التي برهنت على أن قوة التجاذب بين جسمين تتناسب مع (كتلة الأول × كتلة الثاني)/ (مربع المسافة بينهما) مع سكون الأرض؟!.

١١ ـ بماذا نفسِّر سكون الأرض مع زيادة كتلة الشمس على كتلة الأرض (٣٣٠٠٠٠) مرة؟!.

١٢ ـ بماذا نفسِّر حصول الفصول الأربعة من صيف وشتاء وربيع وخريف مع سكون الأرض؟!.

وبالإضافة إلى ذلك من المفيد جداً أن نقدّم للقارئ الكريم دلائل قرآنية أخرى على حركة الأرض؛ ليكون على بصيرة تامة في الموضوع، وهي كما يلي:

١ ـ ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠]، في كلمة الدحو التي جاءت في الآية الكريمة إشارة قوية في معناها اللغوي بأنه تعالى قذف الأرض من مقرِّها، وأنها لا تزال مقذوفة ومندفعة في الفضاء. إذ إن الدحو لغةً: التدحرج، دحاها: أي قذفها ودحرجها، وكل حجر متدحرج تراه يتحرك بحركتين: ذاتية حول نفسه، وانتقالية من مكان إلى آخر.

٢ ـ قال الإمام الرازي في تفسيره: «لا يجوز أن نقول: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ إلا ويدخل في الكلام النجوم من الشمس والقمر؛ ليثبت معنى الجمع ومعنى الكل، فصارت النجوم المذكورة كأنها موجودة لعود هذا الضمير عليها»، ويتضح من قول الإمام الرازي: أنّ ﴿كل﴾ لفظ عام يشمل جميع الأجرام السماوية؛ ومنها الأرض!.

٣ ـ وقال صاحب كتاب (معجزة القرآن في وصف الكائنات) فيما يتعلق بمعنى الآية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]: إنه تعالى استعمل الليل والنهار استعمالاً مجازياً، وقصد بهما لازمين من لوازمهما؛ وهما: الأرضون: سبب الليل، والنجوم: سبب النهار، وقرينة ذلك قوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، وهو حال أو بيان ووصف خلق الأجرام جميعاً، فبناءً على ذلك يكون المعنى المقصود من الآية: أنه تعالى خلق الأرضين (سبب الليل عليها)، والنجوم (سبب النهار على الأرضين)، والشمس والقمر جاعلاً كل منها يسبح في فلك خاص، أي: يجري مع حدوث ذاتية فيه في مسار مستدير.

٤ ـ وقال أيضاً: إنه لولا السرعة في حركة الأرض وفي حركة [الكواكب] السيارات الأخرى في دورانها حول الشمس؛ لسقطت كلها على الشمس بتأثير قوة الجذب، وكذلك لولا سرعة القمر على مداره حول الأرض لسقط على الأرض بتأثير جاذبية الأرض... وهكذا. فإنَّ سرعة أيّ كوكب في دورته بالفضاء حول مركز ما هي التي تصونه من السقوط على المركز الذي يدور حوله، وبالنتيجة يحافظ على مركزه في الفضاء.

٥ ـ وقال أيضاً: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤]: تدلّ هذه الآية الكريمة على أنه يطلب من الليل والنهار الآخر طلباً سريعاً؛ أي: يعقبه دون فاصل، وهذا دليل على كروية الأرض، وسرعة حركة الأرض اليومية.

٦ ـ وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]: وحكمته تعالى في استعمال الليل والنهار في هذه الآية مع قصد السبب في كل منهما، وفي اقتصاره على ذكر الشمس والقمر: أن الناس لا يرون سواهما يتحركان بحركة سريعة ظاهرة في السماء، ولذلك استعمل الليل والنهار

مجازاً وقال: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ كقرينة تدل على المقصود منها.

٧ ـ وقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٧ ـ ٤٠]: يتحدث في هذه الآية الكريمة عن الليل والنهار على الأرض؛ من قرينة قوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾، والسبح معناه في لغة القرآن وفي عرف الفلك: هو جريٌ مقرون بحركة ذاتية في الجسم السابح، أي: أن الجرم يسير في حركتين محوريتين: حول نفسه، وانتقالية بالفضاء حول جرم آخر.

والجريُ معناه في لغة القرآن والفَلَك: هو أن تجري كل مجموعة بسرعة واحدة مشتركة حول مركز ما، كالمجموعة الشمسية كلها...، وهذا ما تقصد به الآية الكريمة الآنفة الذكر؛ أي: أن الشمس والقمر والأرض يجري بعضها مع بعض بسرعة واحدة في الفضاء إلى أجل مسمّى، فوق سبح كل منها في فلكه الخاص دون أن يتقدم أو يتأخر أحدها عن الآخر، أي: أنها تجري كمجموعة واحدة مشتركة (وهي سرعة الشمس في فلكها).

ويقول علماء الفلك: «إن الشمس ـ مع الأرض والقمر وباقي أفراد مجموعتها طبعاً ـ تدور حول مركز من المجرة مرة واحدة في كل (٢٥) مليون من السنين!!».

أعتقد أن في ذلك دلائل قرآنية كافية على حركة الكون عامة، وحركة الأرض خاصة.

* * *

المبحث الخامس عشر

معنى السماء في القرآن

جاءت في القرآن الكريم آياتٌ تعبِّر عن السماء بتعبيرات منوَّعة، فُسِّرت من بعض المفسِّرين تفسيراً لا يتفق مع الواقع والحقيقة والعلم الثابت، ولذلك وتنويراً لأذهان الشباب المتعلّم، وإزالة ما قد يساورهم من الشكوك من الناحية العلمية في نصوص القرآن المجيد؛ وجب علينا أن نبيِّن الحقائق التالية:

أ ـ استدل بعض المفسرين بالآية الكريمة: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤]، على أن السماء ليست الطبقة الغازية المحيطة بالأرض؛ لما تفيده كلمة ﴿بين﴾، من أن هذا الفضاء الذي فوقنا منته بالسماء، وفيه يجري السحاب!! هذا ما يقوله بعض المفسرين لعدم اطّلاعهم على الحقائق العلمية وعلى ما تقصده الآية الكريمة من ذلك.

أولاً: إن استعمال كلمة (السماء) في اللغة العربية يدل على كل ما هو عالٍ، وحتى سقف البيت يعتبر سماء له، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ﴾ [الحج: ١٥]؛ أي: فليمدد بحبل إلى سقف بيته ثم ليخنق نفسه به.. إذن فالهواء سماء كله على اختلاف طبقاته الغازية، والفضاء سماء، والأجرام المنتشرة في الفضاء من نجوم وكواكب ومجرات وسدم كلها سماء بالنظر إلى الأرض؛ لأن كل هذه تحيط بالأرض.

ثانياً: إن الطبقة الغازية المحيطة بالأرض تمتد إلى ارتفاع ما يزيد على (٦٠٠كم) عن سطح البحر، وأما السحاب فلا ينعقد على ارتفاع أكثر من (٦ ـ ٧ كم) عن سطح البحر؛ فما بقي من الهواء ـ أي الطبقة الغازية فوق السحاب ـ هي بمثابة سماء إلى السحاب الذي هو بدوره أيضاً سماء نظراً إلى الأرض!.

ثالثاً: إنَّ القرآن الكريم يؤيد ما ذكرناه في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ [الطارق: ١١]، والرجع: بمعنى المطر اصطلاحاً، وكقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨]؛ ومثل هذه آيات أخرى كثيرة تبيّن إنزال المطر والماء من السماء، والقصد من هذه السماء في الآيات المذكورة الطبقات الهوائية

السفلى القريبة إلى سطح الأرض، إذ إن السحاب يتعقد، والمطر يتكون في الهواء على ارتفاع قليل جداً من سطح الأرض كما بيّناه آنفاً. فإذن كيف نؤلف بين ما قاله بعض المفسِّرين: «من أن السماء ليست الطبقة الغازية المحيطة بالأرض»، وبين هذه الآيات الصريحة التي تُصرِّح بأن الهواء؛ أي الطبقة الغازية سماء[1].

ب ـ ثم قال بعض المفسِّرين: «إنَّ الطبقات الغازية والمجرَّات المختلفة عدَّها من السموات غير صحيح؛ لأن القرآن الكريم وصفها بأوصاف هي من خواص الأجسام ولوازمها؛ كالطي والانشقاق والانفجار» مستدلين بالآية الكريمة: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وبآية أخرى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١].

فالمفسِّرون هؤلاء يتصوَّرون أن السماء كلها كتلة متماسكة صلدة كما هو الظاهر من أقوالهم كلوحة من النحاس مثلاً! على أن الأجرام السماوية كلها صغيرها وكبيرها، والغازات الهوائية كلها هي أجسام لها ما للأجسام من أوصاف ولوازم وخواص؛ تقبل الطي والانشقاق والانفجار، ولا يتنافى هذا المعنى مع نصوص الآيات الكريمة التي ذكروها آنفاً، ولا نعلم أن في لفظة ﴿السماء﴾ لغة ما يشير إلى اشتراط التكتل والصلابة، فلننظر إلى قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: ٢٥]، أي: تقول الآية الكريمة: إن في يوم القيامة تتشقق السماء بالغيوم! وما الغيوم إلا أبخرة وسحب أخف من الهواء، بدليل تصاعد البخار في الهواء، ومع كون الأبخرة والغيوم أرق من الهواء تنشق السماء بها، فأية سماء تعني الآية التي تتشقق بالغيوم؟! فلا بد أن تكون تلك السماء أرق وأدق من الغيوم. فإذن تعبير (الشق) التي جاءت به الآية الكريمة لا كما يتصوره بعض المفسّرين ـ فالقرآن يفسر بعضه بعضاً ـ فإنك قد رأيت كيف أن الآيات تُفسِّر بعضها بعضاً، وسترى ذلك واضحاً!.

جـ ـ قال بعض المفسّرين: «هل للطبقة الغازية أبواب وخزان ـ أي: حراس على تلك الأبواب ـ فقد جاء في الحديث الشريف ذكر أبواب للسماء، عليها خُزّان يفتحونها، والقرآن ذكر هذا أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ

---

(١) فليطالع القارئ الكريم إن شاء موضوعاً عنوانه (المطر في نظر القرآن والعلم) وموضوعاً آخر عنوانه (الرجع والصدع) في كتابنا: (بصائر جغرافية). (المؤلف)

﴿ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ۝ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾ [الحجر : ١٤ ـ ١٥]، وقوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾ [النبأ: ١٩]، هكذا يقول بعض المفسرين، ويستدلُّون بذلك على أن السماء كجدار متماسك له أبواب كما هو الظاهر من أقوالهم.

فهل هناك مانع لغوي من تفسير الأبواب بالمسالك والطرق في هذا الفضاء العظيم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾ [الرحمن: ٣٣]؟! وهذه الطائرات ـ وهي السفن الهوائية البالغة كل منها مئات الأطنان ثقلاً ـ تشق السماء شقاً بسلطان العلم الذي منحه ربنا الكريم إلى الإنسان بما وهبه من قوة الإبداع والاختراع!.

ثم انظر أيها القارئ إلى قوله تعالى: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ﴾ [القمر: ١١]، فإذا فكرت ملياً في هذه الآية تعلم منها أن القصد من كلمة ﴿أبواب﴾ في هذه الآية ما هو إلا كناية عن السحب المتدفقة ماء من السماء.

د ـ وقال بعض المفسِّرين: إنه «لا يصح القول بأن النجوم والمجرات من السموات؛ لأن الله تعالى جعلها زينة للسماء الدنيا، وما به الزينة غير المزين» مستدلين بالآية الكريمة: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]؛ إننا ذكرنا آنفاً أن ما يحيط بالأرض من هواء وفضاء ومصابيح وكواكب ونجوم وغيرها كلها بمثابة سماء للأرض، فألفت نظر القارئ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾ [البروج: ١]؛ أن يتأمل كلمة ﴿ذات﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الحجر: ١٦]؛ وليتأمل كلمة ﴿الناظرين﴾. وأما تعبير (البرج) فيطلق على بضعة نجوم أو أكثر هي على صور وأشكال مختلفة، سمّاها العلماء القدماء وكذلك المعاصرون بأسماء تشابه صورها تقريباً؛ كبرج الحمل وبرج الأسد وغيرهما من الأبراج الكثيرة، وهذه النجوم التي كونت هذه البروج ظاهراً كل منها شمس تبعد عنا بعداً شاسعاً يفوق بعد شمسنا عنا بملايين الملايين من المرات، حتى قدر العلماء بعدها بالسنين الضوئية مئاتها وآلافها وملايينها، فهذه أيضاً عدّها القرآن سماء على بعدها العظيم.

ثم لماذا لا نعتبر الفضاء القريب إلى الأرض نسبياً ـ والأصح المشاهد من

الإنسان ـ هو السماء الدنيا؛ أي: القريبة لنا وقد زينت كما يتراءى لنا بزينة الكواكب، أو كما وصفتها الآية الكريمة المذكورة بأنها زينت بمصابيح، وذلك لبعدها الشاسع عنا نراها كالمصابيح! مع أنها تفوق شمسنا حجماً بملايين المرات؟!.

هـ ـ ثم قال بعض المفسِّرين: «ما أصرح المغايرة بين السماء والنجوم في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾ [الانفطار: ١ ـ ٢]؛ فيعتقد بعض المفسِّرين إن الانفطار الذي جاء في الآية الكريمة لا يقع إلا على جسم صلب كالقشرة الأرضية، أو لوحة صفيح مثلاً! ولذلك قالوا: إن المغايرة ظاهرة وصريحة بين السماء والنجوم لاتّصاف الأولى بالانفطار، والثانية بالانتثار، اعتقاداً منهم أن كلَّ سماء عبارة عن قطعة واحدة متماسكة ومزدانة بالمصابيح، كما هو الظاهر من كل أقوالهم السالفة الذكر، فيتصورون السماء كسقف بيت زين بمصابيح كهربائية!!.

والحقيقة التي لا شك فيها أن الانفطار أو الانشطار يقع على الأجسام الرقيقة أيضاً؛ كالغازات الهوائية وما شاكلها، وحتى يقع على أجسام أكثر رقة من الهواء! مع العلم أن من [الكواكب] السيارات شقيقات الأرض التابعة لعالمنا الشمسي، ومنها السيار (المريخ)، وكذلك سيارات أخرى تابعة إلى عوالم أخرى من الشموس قد تطورت في تكوينها، وتصلبت قشرتها كالأرض، وهي كلها تعتبر كسماء الأرض يقع عليها حادث الانفطار أيضاً يوم القيامة كما يقع على الأجسام الصلبة، وهذا يتفق وما تصوَّره المفسِّرون الذين مرّ ذكرهم!

أما الانتثار فهو يعني: انفراط عقد منظومة الكواكب القائمة الآن في الفضاء!.

و ـ على أن المغايرة في ذلك لا كما يتصوره بعض المفسِّرين؛ بل إنما في الحقيقة تعود إلى أن الكون هو عبارة عن فضاء لا يدرك منتهاه، وهو سماء لأنه يحيط بالأرض إحاطة تامة، وهذا الفضاء الذي يبلغ مئات الملايين من السنين الضوئية وسعة وعظمة؛ (إذا استثنينا ما فيه من الغازات الهوائية، ثم الأجرام السماوية كلها كبيرها وصغيرها)، هو محبوك بمادة متموجة رقيقة لطيفة جداً غير محسوسة ولا مرئية تدعى بالأثير! ومشحون أيضاً بأشعة كونية هائلة غير مرئية

أيضاً، فالمادة المتموجة والأشعة الكونية مسيّرتان بقوى خفية لم تُعرف حقيقتها! وفي هذا الفضاء الرقيق اللطيف تنتشر نجوم وكواكب لا تعد ولا تحصى، تدور في طرائق ومسالك، أو بتعبير آخر في أفلاك خاصة بها لا تحيد عنها! ويهيمن على كل ذلك رب السموات والأرض وما بينهما. فإذن مادة الفضاء غير مادة النجوم والكواكب؛ فلنتأمل ببصيرتنا قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ [الذاريات: ٧]، والحديث الشريف: «إن السماء موج مكفوف»[1]، فكلمة (الحبك) في هذه الآية، وتعبير (موج مكفوف) في الحديث؛ وصفتا الفضاء وصفاً رائعاً ومعجزاً، ومطابقاً للواقع والحقائق العلمية كما بيناه آنفاً!!.

ز ـ ويفهم مما سبق ذكره أن هناك تنوعاً في السموات من حيث اختصاص كل منها بناحية كما جاءت في ذلك الآيات الكريمة!.

١ ـ فهناك **(سماء ذات الرجع)**؛ وهي تتناول الطبقات السفلى من الهواء، حيث يتكون المطر.

٢ ـ وهناك **(سماء ذات الشهب)**؛ وهي تتناول الطبقات العليا من الهواء، حيث تتكون الشهب باشتعال الأجسام والأحجار الساقطة.

٣ ـ وهناك **(سماء الخنس الجوار الكنس)**؛ كما جاءت الآية الكريمة بها، وهي تتناول [الكواكب] السيارات شقيقات الأرض الدائرة حول الشمس، وجاءت هذه الآية بوصف رائع ومعجز أيضاً تنطبق على حقيقتها وحركاتها التي أيدتها العلوم الفلكية.

٤ ـ وهناك **(سماء الطارق النجم الثاقب)** وهي تتناول الكواكب المذنبة الداخلة في منظومتنا الشمسية[2].

---

(١) الحديث: «الرقيع موج مكفوف وسقف محفوظ» رواه الترمذي برقم (٣٢٢٠)؛ وأحمد برقم (٨٤٧٢) في باقي مسند المكثرين. والرقيع: هو اسم السماء الدنيا. وقيل: لكل سماء. وموج مكفوف: أي ممنوع من الاسترسال حفظها الله أن تقع على الأرض وهي معلقة بلا عمد، كالموج المكفوف.

(٢) فليقرأ القارئ إن شاء موضوع الكواكب المذنبة والشهب والنيازك في كتابنا: (بصائر جغرافية).

٥ ـ وهناك (سماء ذات البروج)؛ وهي السماء التي تراها قد زينت بزينة الكواكب.

٦ ـ وهناك (سماء ذات الحبك)؛ وهي تتناول الفضاء كله الذي وصفنا خواصه آنفاً!.

٧ ـ وهناك أخيراً وسابعاً (سماء المراقب والمراصد) التي لا ترى بالعين المجردة!.

فبعد ذلك كله فنقرر هنا: أنه لا يوجد تضارب بين العلم الثابت وبين نصوص الآيات القرآنية إذا فسرت تفسيراً صحيحاً وفهمت مقاصدها ومراميها[1].

وختاماً: أُناشد علماء الدين في أن يتفكروا كثيراً وطويلاً قبل إقدامهم على تفسير الآيات الكونية، وأن يكونوا من عباد الرحمن الذين وصفهم الله في سورة الفرقان بآيات باهرات وخاصة منها قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣]!!.

لأنهم إن فسَّروها على طريقة غير علمية تناقض الحقيقة المتفق عليها، ولا تأتلف مع ما يقصده القرآن الكريم؛ فلا بد أن تؤدي حتماً إلى أن تميل ناشئتنا الإسلامية المتعلمة إلى الشك في صحة ما ورد في القرآن العظيم الشأن على ظاهره، وقد يندفعون إلى الإعراض عنها، نعوذ بالله من ذلك!.

أما (عدد السموات السبع) التي جاءت في بضع آيات من القرآن الكريم؛ فأحسن ما قرأته عنها من حيث الشمول ما جاء في تفسير (إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز) لمؤلفه الإمام العلاّمة الرباني الشهير بديع الزمان سعيد النورسي المولود في تركية ـ قال رحمه الله: «وأما الشريعة فحاكمة بأن الصانع ـ جلّ جلاله ـ خلق سبع سموات، وجعل النجوم فيها كالسماك تسبح، والحديث يدلُّ على أن السماء موج مكفوف!!.

---

(١) فليقرأ القارئ الكريم إن شاء موضوع (عَظَمة الكون)، وموضوع (مواقع النجوم)، من كتابنا (بصائر جغرافية) ليطلع على عَظَمة الكون!.

وتحقيق هذا المذهب في ست مقدمات :

الأول : إنـه قد ثبت فنـاً وحكمة (أي : عن طريق العلوم العصرية) : أن الفضاء الوسيع مملوء من (الأثير) .

والثانية : إن رابطـة قوانين الأجرام العلويـة ، وناشـر قوى أمثال الضيـاء والحرارة ، وناقلها ـ مادة موجودة في الفضاء مالئة له .

والثالثـة : إن مادة الأثير مع بقائها أثيراً ؛ لها ـ كسائر المـواد ـ تشـكلات مختلفة ، وتنوعات متغايرة كتشكلات الماء والبخار والجمد .

والرابعة : إنه لو أمعن النظر في الأجرام العلوية يُرى في طبقاتها تخالفٌ ، ألا ترى أن نهر السماء المسمى (بالمجرة) المرئي في صورة لطاخة سحابية إنما هي (ملايين) نجوم أخذت في الانعقاد ، فصورة الأثير التي تنعقد تلك النجوم فيها تخالف طبقته ، طبقة الثوابت البتة ، وهي أيضاً تخالف طبقات (المنظومة الشمسية) بالحدس الصادق .

والخامسة : إنه قد ثبت حدساً واستقراءً ؛ أنه إذا وقع التشكيل والتنظيم والتسوية في مادة ـ تتولد منها طبقات مختلفة كالمعدن ـ يتولد منه الرماد والفحم والماس ، وكالنار تتميز جمراً ولهباً ودخاناً ، وكمزج مولد الماء (الأيدروجين) مع مولد الحموضة (الأوكسجين) يتشكل منه ماء وجمد وبخار .

والسادسة : إن هذه الأمـارات تـدلُّ على تعدد السـموات ، و(الشـارع الصادق) قال : هي سبعة ، فهي سبعة . على أن (السبع والسبعمئة) في أساليب العرب لمعنى الكثرة ! .

والحاصل : إن الصانع جلّ جلاله خلق من مادة الأثير سبع سموات ، فسواها ونظمها ورتبها بنظام عجيب دقيق ، وزرع فيها النجوم وخالف بين طبقاتها ! .

اعلم أنك إذا فكرت في (سعة خطابات القرآن ومعانيه) ، ومراعاته لأفهام عامة الطبقات ، من أدنى العوام إلى أخص الخواص ؛ ترى أمراً عجيباً ؛ مثلاً :

١ ـ من الناس من يفهم من (سبع سموات) طبقات الهواء النسيمية ، (وثبت بالاختبار أن الهواء مكون من سبع طبقات تختلف الواحدة عن الأخرى بخواصها وصفاتها) .

٢ ـ ومنهم من يفهم منه: الكرات النسيمية المحيطة بأرضنا وأخواتها ذوات ذوي الحياة.

٣ ـ ومنهم من يفهم منه: السبع السيارات المرئية للجمهور.

٤ ـ ومنهم من يفهم منه: طبقات سبعة أثيرية في (المنظومة الشمسية).

٥ ـ ومنهم من يفهم منه: (سبع منظومات شمسية) أولها منظومة شمسنا هذه.

٦ ـ ومنهم من يفهم منه: انقسام الأثير في التشكل إلى طبقات سبعة ـ كما مرَّ آنفاً ـ.

٧ ـ ومنهم من يرى جميع ما يرى: مما زيّن بمصابيح الشموس والنجوم والثوابت، سماء واحدة وهي السماء الدنيا، وفوقها ست سموات أخرى لا ترى.

٨ ـ وحتى منهم من لا يرى انحصار (سبع سموات) في عالم الشهادة فقط، بل يتصورها في طبقات الخِلْقة من العوالم الدنيوية والأخروية والغيبية.

فكلٌّ يستفيض ـ بقدر استعداده ـ من فيض القرآن ويأخذ حصته من مائدته، فإنه يشمل كل هذه المفاهيم» انتهى.

ملاحظاتي:

ومما يؤيد ما ذكره العلاّمة سعيد النورسي آنفاً فيما يتعلق بالأثير في رقم (٦)، وما يتعلق بسماء الدنيا في رقم (٧) من بيانه؛ الملاحظات التالية:

١ ـ جاء في القرآن قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾[الذاريات: ٧]؛ وتقصد هذه الآية ـ والله أعلم ـ من السماء ذات الحبك ـ كما سبق أن ذكرناه ـ هي الفضاء في هذا الكون الوسيع المملوء بمادة الأثير المتعرج المتموج بموجات قصيرة هائلة، ويؤيد هذا الحديث: «إن السماء موج مكفوف»[1]، ويقصد الحديث من هذه السماء مادة الأثير أيضاً، فجاء في معاجم اللغة أنه قال الفرّاء: ﴿الحبك﴾ تكسر كل شيء كالرمل إذا مرَّت به الريح الساكنة، والماء القائم إذا مرت به

---

(١) سبق تخريجه، ص١١٥، حاشية (١).

الريح، فيقصد من كلمة ﴿الحبك﴾ إذن في الآية الكريمة مادة الأثير المتموِّج بموجات قصيرة أدت إلى إيصال الأشعة الكونية المختلفة إلى العوالم.

٢ ـ إن الأثير مع رقته ولطافته المتناهيتين هو أصلب من الفولاذ، بل هو أشدّ صلابة من أية مادة عرفت في الطبيعة، ولما كانت المادة المذكورة تنوعت في خواصها وصفاتها إلى سبعة أنواع، كونت منها سبع طبقات؛ كانت مظهراً لقوله تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢]؛ وذلك لصلابته الشديدة.

٣ ـ تنتشر في هذا الكون العجيب ملايين الملايين من المجرّات أو المدن النجومية كما يعبر عنها علماء الفلك، وكلّ مجرّة من هذه المجرّات لا يقل عدد نجومها عن مئتي مليون نجم، ومن هذه النجوم ـ أي الشموس ـ ما تفوق شمسنا ملايين المرّات حجماً وكتلة، فإذا اعتبرنا مجرتنا التي ينتمي إليها عالمنا الشمسي هي السماء الدنيا المرئية، وفوقها ست سموات أخرى لا تُرى، فكانت هذه السموات السبع مظهراً لقوله تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾، وذلك بما تحتوي كل منها بمجموعها من ملايين النجوم الهائلة من جهة، وبما فيها من شموس جبّارة ماردة، كلٌّ منها تبتلع بضعة ملايين مثل عالمنا الشمسي من جهة أخرى!!.

* * *

المبحث السادس عشر

بصائر الاطمئنان للمرتابين بالقرآن

أيها القارى الكريم! إنك علمت ـ مما سبق بيانه من البراهين العلمية التي لا تقبل الشك ـ أن القرآن وحي من الرحمن، وهو كلام الله الحق الخالد الذي نزل على رسوله محمد ﷺ رحمة للعالمين، والذي جاء ـ كما رأيت ـ بآيات كونية وخوارق طبيعية علمية تحيّر العقول الجبارة، فهو ركن الإسلام الحصين، ومفخرة وعز للمسلمين الذين إذا ساروا على طريقته المثلى وشريعته الحقة العليا، لن يفضلوا على العالم فحسب كما كانوا ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، بل إنهم يوجهون البشرية إلى السلام، وإلى ما فيه خيرها وسعادتها ورفاهها، لأنهم بتنفيذهم ما جاء في الإسلام، يقضوا على ما نراه من التبلبل والتنافس والتناحر بين الأمم التي ستعيش حينذاك متآخية متعاونة، لا سيد ولا مسود، كما أراد الله والإسلام لها.

ولذلك إن شياطين الاستعمار، لمعرفتهم هذه الحقيقة الناصعة، لا يريدون أن تقوم للإسلام والمسلمين قائمة! لتبقى سيطرتهم على الشرق لاستغلال واستثمار ثروته الطبيعية لمصلحتهم فقط! وأن يبقى الشرق مستعبداً، تنخر في جسمه وروحه الآفات الاجتماعية الثلاث (الفقر، والمرض، والجهل).

ومن جرّاء ذلك؛ يسعى الاستعمار سعياً حثيثاً بكل ما أوتي من قوة أدبية وعلمية وفنية بوسائل مختلفة، لإبعاد الشباب المسلم عن دينهم القويم، وتنفيرهم من قرآنهم بأساليب خدّاعة، فاحذرهم أيها الشباب المسلم المتعلم قاتلهم الله، فمثالاً لذلك أذكر ما سمعته وأسمعه من الشباب المسلم مما يتوارد إلى خواطرهم من اعتراضات، أو ما يلقنون بها من ارتيابات على القرآن الكريم.

منها: **أولاً**: يقولون: أن القرآن جاء بمتشابهات ومشكلات، تتنافى مع إعجازه المؤسس على البلاغة.

ثانياً: يقولون: إن القرآن جاء بإبهام وغموض في وصف الكائنات، مما ينافي مسلك التعليم والإرشاد!.

ثالثاً: يقولـون: إن بعض ظواهر الآيات القرآنية جاءت خلاف الحقائق العقلية والعلمية، وهذا ينافي صدقه!!.

وقد أجاب علماء الإسلام على كل ذلك بأساليب شتى يطمئن إليها كل مسلم يحكّم بصيرته وعقله.

ولكن أرجح ما قاله في هذا الصدد الإمام العلاّمة بديع الزمان في تفسيره (إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز) في تفسير الآية: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣] قال رحمه الله: «إنَّ هذه الآية الكريمة تشير إلى أن أُناساً ـ بسبب الغفلة عن مقصود الشارع في إرشاد الجمهور، وجهلهم بلزوم كون الإرشاد بنسبة استعداد الأفكار ـ وقعوا في شكوك وريوب منبعها ثلاثة أمور:

أحدها: أنهم يقولون: وجود المتشابهات في القرآن منافٍ لإعجازه المؤسس على البلاغة المبنية على ظهور ووضوح الإفادة!.

والثاني: أنهم يقولون: إن القرآن أطلق وأبهم في حقائق الخلقة، وفنون الكائنات، مع أنه منافٍ لمسلك التعليم والإرشاد!.

والثالث: أنهم يقولون: إن بعض ظواهر القرآن أميل إلى خلاف الدليل العقلي، فيحتمل خلاف الواقع وهو منافٍ لصدقه!.

أيها المشككون! اعلموا أن ما تتصورونه سبباً للنقص؛ إنما هو شواهد صدق على سرّ إعجاز القرآن...

أما الجواب على الريب الأول: وهو، وجود المتشابهات والمشكلات، فاعلم أن إرشاد القرآن لكافة الناس، والجمهور الأكثر منهم عوام، والأقل تابع للأكثر في نظر الإرشاد، والخطاب الموجه نحو العوام يستفيد منه الخواص، ويأخذون حصتهم منه، ولو عكس لبقي العوام محرومين.

مع أن جمهور العوام لا يجردون أذهانهم من المألوفات والمتخيلات، فلا يقتدرون على درك الحقائق المجردة، والمعقولات الصرفة ـ إلا بمنظار متخيلاتهم، وتصويرها بصورة مألوفة، لكن بشرط أن لا يقف نظرهم على نفس الصورة، حتى يلزم المحال والجسمية أو الجهة. بل يمر نظرهم إلى الحقائق؛ مثلاً: إن الجمهور إنما يتصورون حقيقة التصرف الإلـٰهي في الكائنات بصورة

تصرف السلطان الذي استوى على سرير سلطنته، ولهذا اختار الكناية في: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وإذا كانت حسيات الجمهور في هذا المركز، فالذي يقتضيه منهج البلاغة، ويستلزمه طريق الإرشاد ـ رعاية أفهامهم، واحترام حسياتهم، ومماشاة عقولهم، ومراعاة أفكارهم، كمن يتكلم مع صبي؛ فهو يصبى (أي يتصابى) في كلامه، ليفهمه ويستأنس به.

فالأساليب القرآنية في أمثال هذه المنازل، المرعي فيها الجمهور تسمى (بالتنزلات الإلٰهية إلى عقول البشر). فهذا التنزل لتأنيس أفكارهم، فلهذا وضع صور المتشابهات منظاراً على نظر الجمهور.

ألا ترى: كيف أكثر البلغاء من الاستعارات، لتصوير المعاني الدقيقة، أو لتصوير المعاني المتفرقة؟! (فما هذه المتشابهات إلا من أقسام الاستعارات الغامضة)؛ إذ إنها صور للحقائق الغامضة: أما كون العبارة مشكلاً، فإما لدقة المعنى وعمقه، وإيجاز الأسلوب وعلويته، فمشكلات القرآن من هذا القبيل، وإما لإغلاق اللفظ، وتعقيد العبارة المنافي لبلاغته، فالقرآن مبرأ منه.

فيا أيها المرتاب! أفلا يكون في عين البلاغة، تقريب مثل هذه الحقائق العجيبة البعيدة عن أفكار الجمهور، إلى أفهام العوام بطريق سهل؛ إذ (البلاغة، مطابقة مقتضى الحال)؟! فتأمل.

فأما الجواب عن الريب الثاني وهو: إبهام القرآن في بحث تشكل الخلقة على ما شرحته الفنون (العلوم) الجديدة، فاعلم أن في شجرة العالم (ميل الاستكمال)، وتشعب منه (ميل الترقي)، وميل الترقي كالنواة، يحصل نشوؤه ونماه بواسطة التجارب الكثيرة، ويتشكل ويتوسع بواسطة تلاحق نتائج الأفكار، فيثمر فنوناً (علوماً) مترتبة بحيث لا ينعقد المتأخر إلا بعد تشكل المتقدم، ولا يكون المتقدم مقدمة للمتأخر إلا بعد صيرورته كالعلوم المتعارفة.

فبناء على هذا السر ـ لو أراد أحد أن يتعلم فناً، أو يتفهم علماً، وهو إنما تولد بتجارب كثيرة ودعا الناس إليه قبل هذا بعشرة أعصر، لا يفيد إلا تشويش أذهان الجمهور ووقوع الناس في السفسطة والمغلطة.

مثلاً: لو قال القرآن: «أيها الناس! انظروا إلى سكون الشمس، وحركة

الأرض، واجتماع مليون حيوان في قطرة ماء، لتتصوروا عظمة الصانع»، لأوقع الجمهور، إما في التكذيب؛ وإما في المغالطة مع أنفسهم، والمكابرة معها، بسبب أن حسهم الظاهري، أو غلط الحس، يرى سطحية الأرض وسكونها، ودوران الشمس من البديهيات.

والحال أن تشويش الأذهان، لا سيما في مقدار عشرة أعصر (لتشهي بعض أهل زماننا) منافٍ لمنهاج الإرشاد وروح البلاغة.

يا هذا! لا تظنن قياس أمثالها على النظريات المستقبلية في أحوال الآخرة، إذ الحس الظاهري لما لم يتعلق بجهة منها، بقيت في درجة الإمكان، فيمكن الاعتقاد والاطمئنان بها، فحقها الصريح (التصريح بها)، لكن ما نحن فيه لما خرج عن درجة الإمكان والاحتمال في نظرهم - بحكم غلط الحسي إلى درجة البداهة عندهم - فحقه في نظر البلاغة (الإبهام والإطلاق) احتراماً لحسياتهم، وحفظاً لأذهانهم من التشويش، ولكن مع ذلك أشار القرآن ورمز ولوّح إلى الحقيقة، وفتح الباب للأفكار، ودعاها للدخول بنصب أمارات وقرائن.

فيا هذا - إن كنت من المنصفين - إذا تأملت في دستور (كلّم الناس على قدر عقولهم)، ورأيت أن أفكار الجمهور - لعدم إعداد الزمان والمحيط - لا تتحمّل ولا تهضم التكليف بهذه الأمور، التي إنما تتولد بنتائج الأفكار، لعرفت أن ما اختاره القرآن من (الإبهام والإطلاق) من محض البلاغة، ومن دلائل إعجازه!.

أما الجواب عن الريب الثالث: وهو إمالة بعض ظواهر الآيات إلى منافي الدلائل العقلية، وما كشفه الفن (العلم)، فاعلم: أن المقصد الأصلي من القرآن إرشاد الجمهور إلى أربعة أساسات:

هي: **إثبات الصانع الواحد، والنبوّة، والحشر، والعدالة.**

فذكر الكائنات في القرآن، إنما هو تبعي واستطرادي للاستدلال، إذ ما نزل القرآن لدرس (الجغرافيا) و(الكوزموغرافيا)، بل إنما ذكر جلَّ جلاله الكائنات للاستدلال بالصنعة الإلـٰهية، والنظام البديع على النظام الحقيقي، والحال أن أثر الصنعة والعمد والنظام يتراءى في كلٍّ شيء، وكيف كان التشكل فلا علينا، إذ لا يتعلق بالمقصد الأصلي، فحينئذ، مادام أنه يبحث عنها للاستدلال، ومادام أنه

يجب كونه معلوماً قبل المدعى، ومادام أنه يستحسن وضوح الدليل (كيف لا يقضي الإرشاد والبلاغة) تأنيس معتقداتهم الحسية، ومماشاة معلوماتهم الأدبية، بإمالة بعض ظواهر النصوص إليها؟لا ليدل عليها، بل من قبيل الكنايات ومستتبعات التراكيب، مع وضع أمارات وقرائن تشير إلى الحقيقة لأهل التحقيق.

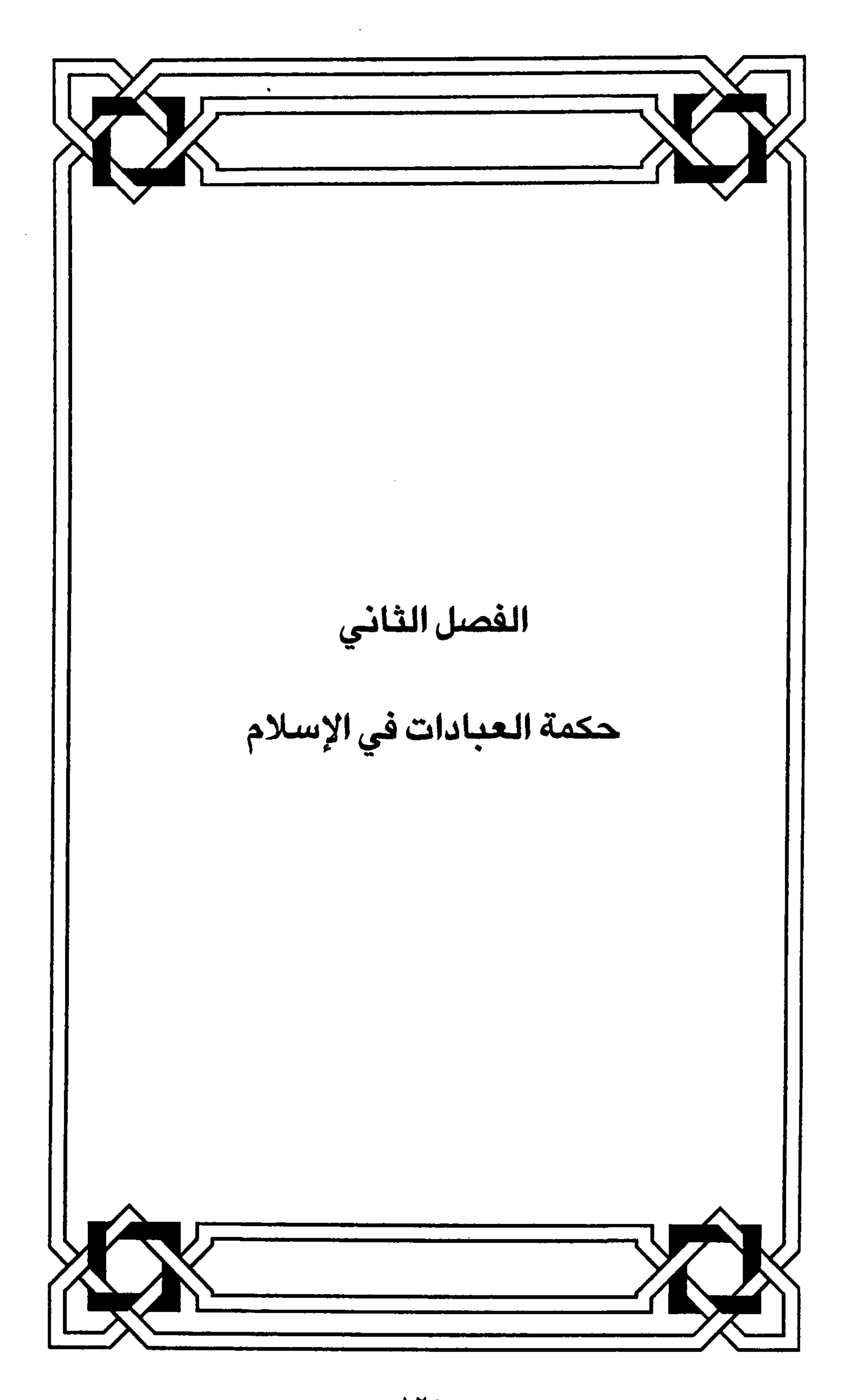
مثلاً: لو قال القرآن في مقام الاستدلال: «أيها الناس، تفكروا في سكون الشمس»، مع حركتها الصورية «وحركة الأرض اليومية والسنوية» مع سكونها ظاهراً، «وتأملوا في غرائب الجاذب العمومي من النجوم، وانظروا إلى عجائب الكهرباء وإلى الامتزاجات غير المتناهية بين العناصر البسيطة، وإلى اجتماع ألوف الحوينات (المكروبات التي لا ترى بالعين المجردة) في قطرة ماء - لتعلموا: أن الله على كلِّ شيء قدير» لكان الدليل أخفى وأغمض وأشكل بدرجات من المدعى، وإن هذا إلا منافٍ لقاعدة الاستدلال!.

ثم: لأنها من قبيل الكنايات لا تكون معانيها مدار صدق وكذب، ألا ترى أن لفظ (قال)، ألفه يفيد خفة، سواء كان أصله واواً أو قافاً أو كافاً؟.

الحاصل: أن القرآن؛ لأنه نزل لجميع الإنسان، في جميع الأعصار، تكون هذه النقط الثلاث دلائل إعجازه.

والذي علم القرآن المعجز: إن نظر (البشير النذير) وبصيرته النفاذة، أدق وأجل، وأجلى وأنفذ من أن يلبس أو يشتبه عليه الحقيقة بالخيال، وإن مسلكه الحق أعلى وأغلى، وأنزه وأرفع، من أن يدلس أو يغالط على الناس.

* * *



الفصل الثاني

حكمة العبادات في الإسلام

تمهيد

من المعروف أن العبادات في الإسلام هي: الصلوات الخمس، والصوم، والزكاة، والحج من استطاع إليه سبيلاً، والجهاد في سبيل الله. وهذه العبادات فرضت على المسلمين لصالحهم وخيرهم في الدنيا والآخرة، فلا ينال الله منها شيئاً، بل تعود على المسلمين بفوائد جمة مادية ومعنوية، ولكن غير قليل من الشباب المسلم المتعلم ينظر إلى هذه العبادات في الإسلام نظرة استخفاف وعدم اهتمام، وذلك عن طريق العناصر الهدَّامة الأجنبية وغيرها التي تحاول كل المحاولة لإقصاء الشباب المسلم عن دينه، فتبث بين الشباب أفكاراً مسمومة فيما يخص العبادات في الإسلام، وإليك البيان.

* * *

المبحث الأول

الصلوات الخمس[1]

يقول الهدّامون: إن الصلوات الخمس بأوقاتها وعددها لا تأتلف مع العصر الحديث والمدنية الراهنة، ولا تتفق مع الحياة الديناميكية الآلية المادية اليوم من حيث هي ـ أي: الصلوات ـ بأوقاتها الكثيرة في الإسلام تقف حجر عثرة في تقدم المدنية من حيث العمل المثمر المنتج، فيما يخص العامل في عمله، والفلاح في مزرعته، والتاجر في متجره، والعالم في بحوثه، والطالب في درسه. ويضيفون إلى تخرُّصاتهم هذه قولهم: إن أوقات الصلوات المفروضة في الأديان الأخرى من نصرانية ويهودية وغيرها قليلة؛ لا تزيد على الوقتين صباحاً ومساءً فقط مما تأتلف مع المدنية العصرية، ولذلك يقولون: إن اليهود والنصارى أكثر مواظبة على صلاتهم من المسلمين الذين لا يتجاوز المواظب منهم الخمسة في المئة أو العشرة في المئة على أكثر تقدير، وذلك لقلة أوقات الصلاة في الأولين وكثرتها في الآخرين، ثم يقول الهدامون: إن الصلاة عند اليهود والنصارى ليست شكلية كصلاة المسلمين في حركاتها المختلفة من قيام وركوع وسجود وقعود، مما لا تتفق مع الخشوع والتوجه إلى الله. هذه اعتراضات الهدّامين لصلاة المسلم!.

أيها الشباب المسلم المتعلِّم! اقرأ بإمعان وبصيرة ما سنبيّنه لك لتعلم أن ما جاء به الهدّامون ليس إلا الضلال، يقصد منه التضليل والتعطيل؛ للقضاء على أهم ركن من أركان العبادات! وإليك البيان:

أولاً: لقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]؛ أي: فرضاً، كل منها في وقتها المعين، وذلك لحكمة بالغة جداً خفيت عن الذين في قلوبهم مرض، وعلى أبصارهم غشاوة. فعدد الصلوات بأوقاتها الخمس ليس عائقاً عن العمل كما يزعمون مهما كان نوع العمل؛ بل إنها منظمة للعمل وحاثة عليه.

---

(١) الصلاةُ فرض، ويجب على كل مسلم أن يؤديها، علم الحكمة منها أم لم يعلم. علم منها فائدة صحية أم لم يعلم. (الناشر)

فالمسلم ينهض من النوم فجراً قبل طلوع الشمس؛ ليقوم بما يفرضه عليه الدين الإسلامي من إقامة الصلاة، وهذا القيام المبكر من النوم يحثُّ المسلم على العمل المثمر، على أن هذه الصلاة ركعتين لا تستغرقان أكثر من دقيقتين يتوجه فيها المسلم نحو خالقه مستعيناً به على إنجاز مهام أموره في عمله كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤]؛ ومن الثابت المسلّم به قطعياً أن المبكر في الاستيقاظ من النوم قبل طلوع الشمس يكون نشيطاً طوال اليوم، خلافاً للذي لا ينهض من نومه حتى بعد طلوع الشمس، فيستحوذ عليه الكسل والخمول، فيزداد الأول نشاطاً في ذهنه وبدنه وصحته فيكون أكثر إنتاجاً، عكس الثاني الذي يقل إنتاجاً لخموله!.

أما صلاة الظهر: فهي تُنذر المسلم بوجوب إنهاء عمله مؤقتاً مهما كان نوعه، وذلك للاستجمام والراحة، إذ إنّ الصلاة المذكورة يدخل وقتها بعد الزوال مباشرة، وقد مرّ على العامل في عمله بضع ساعات لا بد له من الراحة ليستعيد نشاطه، وهذه الصلاة أربع ركعات لا تستغرق خمس دقائق، وهي الفاصلة بين العمل المضني والراحة المطلوبة لكلِّ عمل، والتي تؤدي إلى استرجاع نشاط الإنسان، وبعد فترة من الراحة المقننة يرجع العامل إلى عمله (مهما كان العمل ذهنياً أو بدنياً).

أما صلاة العصر: فهي تُنذر العامل بإنهاء العمل بتاتاً، والركون إلى الراحة، فدلَّ الاختبار العلمي والصحي على أن الإنسان لا يتمكن أن يعمل أكثر من ثماني ساعات، وحتى قررت بعض الدول المتمدنة (٧) ساعات للعامل في اليوم؛ لأن التمادي في العمل أكثر من ذلك يؤدي إلى إرهاق بدني وذهني، مما يضرُّ بصحة الإنسان، فصلاة العصر يحلُّ وقتها قبل الغروب بمدة قليلة، وهذا الوقت هو أنسب وأحسن وقت ينهي الإنسان فيه عمله، ويتفرغ إلى الراحة والترفيه عن نفسه من عناء عمله ذهنياً كان أو بدنياً، فيصلي المسلم في هذا الوقت صلاة العصر أربع ركعات أيضاً لا تستغرق أكثر من خمس دقائق، وبعدها حتى الغروب يسلّي نفسه بهوايات بريئة يهواها تنشط ذهنه وبدنه.

أما صلاة المغرب: فيحلّ وقتها بعد الغروب مباشرةً، وهذا الوقت هو الحد الفاصل بين النهار والليل، بين الضوء والظلام؛ فهي مفروضة في وقت انتهى

النهار فيه بغوغائه، وحياته الصاخبة، وحركته، وشمسه، وضوئه، وفي وقت بدأ الليل فيه بسكونه، وظلامه، وبنجومه، وروعته؛ فلا بد هنا من صلاة تذكر القائم بها بما قدم من أعمال في النهار المنصرم؛ ليحاسب نفسه عما كسب واكتسب من نتائج، وثمرات تعود إليه أو عليه من خير أو شر؛ ليتمسك بالأول، ويتجنب الثاني في غده، كما جاء في الحديث: «من استوى يوماه فهو مغبون، ومن كان يومه شراً من أمسه فهو ملعون»[1]، أي: محروم من التقدم في مضمار الحياة المدنية الحقة، ومطرود من مكرمات المجتمع الأخلاقية. وقد جعلت ثلاث ركعات قد تكون كل واحدة منها رمزاً لما مرّ من صلوات ثلاث: صبحاً وظهراً وعصراً، وما كان تأثيرها المادي والمعنوي في الإنسان.

وبعد الغروب بساعة ونصف الساعة على أكثر تقدير يحل وقت صلاة العشاء: وذلك في مطالع العروض الوسطى من العالم، وما يقرب منها شمالاً وجنوباً، وهذه الصلاة لها مغزى عظيم في الحياة؛ بأنها تدعو المسلم لأن يتهيأ للنوم مبكراً، ليتمكن أن ينهض مبكراً قبل طلوع الشمس لأداء صلاة الفجر، وقد أجمع العلماء وخاصة منهم الأطباء على أنه لابد للإنسان في كل يوم قدره (٢٤) ساعة من نوم لا يقل عن (٨) ساعات يخلد إلى الراحة التامة فيها؛ ليستعيد نشاطه.

وقد قسم العلماء مدة (٢٤) ساعة من اليوم إلى ثلاثة أقسام: ثلثه للعمل، وثلثه للهوايات المسليات المحببة البريئة، وثلثه للنوم. والثابت لدى العلماء: أن نوم النهار لا يعوض من نوم الليل؛ لأن الحياة الصاخبة في النهار تؤدي إلى توتر عصبي يحول دون نوم هادئ، عكس الليل الذي تهدأ الأعصاب فيه أكثر لسكونه نسبياً، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتًا﴾ [النبأ: ٩]، أي: راحة.

ومما هو جدير بالذكر أن صلاة الظهر والعصر لا يجهر الإمام فيهما في القراءة، ويجهر في صلاة الفجر والمغرب والعشاء، وذلك للحياة الصاخبة في

---

(١) الحديث ضعيف، انظره في الآثار المرفوعة (اللكنوي): ١/ ٤٥٧ والتي لا أصل لها في الإحياء: ١/ ٣٧٦، والتمييز لابن البديع، والمصنوع [ملا علي القاري: ١/ ٣١١] والكشف الإلهي للطرابلسي: ١/ ٨٧٩.

النهار، والهادئة في الليل!.

ولا يفوتني أن أذكر أن مجموع فروض ركعات الصلوات الخمس في اليوم كله في مدة (٢٤) ساعة لا تزيد عن (١٧) ركعة لا تستغرق هذه كلها أكثر من نصف ساعة مع تأديتها باعتدال دون إطالة أو تقصير، وجاء في الحديث: «خير العبادة أخفها»[1].

ويجوز للمصلي أن يجمع بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء لضرورة ملجئة، وفي السفر تُقصَر الأربع ركعات بركعتين، وفي حال مرض يحول دون إقامة الصلاة بأوقاتها، أو في حالة خوف من عدو مرتقب، أو في سفر، أو مطر وخاصة عندما يتعذر تقدير الوقت أو فقدانه كما في العروض العليا؛ حيث يكون النهار قصيراً جداً، أو فقدان الليل أو النهار كما سيأتي بيانه؛ ففي كل ذلك يجمع بين الصلاتين في وقت واحد جمع تقديم أو تأخير!.

ومن لم يجد الماء يتيمّم، ومن وجد الماء وغلب على ظنه أن استعماله يمرضه أو يزيد مرضه يتيمّم.

ومن شق عليه أن يصلي قائماً صلى قاعداً، والذين تُعيقهم أشغال ضرورية عن تأدية الصلاة عند حلول وقتها فلهم مجال لأن يؤدوها بين الوقتين المتتاليين، إلا صلاة الصبح التي ينتهي وقتها بشروق الشمس.

هذه وغيرها من الأحكام التي شرعها الإسلام للتخفيف والتيسير ودفع الضرر ورفع الحرج في إقامة الصلاة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، وقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

كيفية تأدية الصلوات الخمس في العروض المختلفة من العالم:

وحتى يكون الموضوع كاملاً وشاملاً؛ من المفيد أن نقسم العالم إلى ثلاثة أقسام؛ لكي نقف على كيفية تنظيم العمل في الحياة البشرية من وجهة عامة نظراً

---

(١) الحديث ضعيف: انظره في ضعيف الجامع: ٢/ ٢٨٩٤.

إلى قصر النهار وطوله، أو فقدانهما في العالم، وما لصلاة المسلم من أثر على ذلك.

أ ـ القسم الواقع بين خط الاستواء و(٤٩) درجة عرض شمالاً وجنوباً، وأقصر نهار أو أقصر ليل في هذه العروض يتراوح بين (١٢) ساعة دائماً في خط الاستواء وبين (٨) ساعات حيث (٤٩) درجة عرض. وأقصر نهار أو أقصر ليل يعودان إلى يومين فقط من السنة؛ وهما يوما الانقلاب الصيفي (٢١) حزيران، والانقلاب الشتوي في (٢١) كانون الأول، وبعد اليومين المذكورين يأخذ النهار أو الليل يتقاربان في الطول حتى يتساويا في (٢١) آذار، و(٢٣) أيلول؛ عندما تكون الشمس عمودية على خط الاستواء، وبعد ذلك يأخذ الفرق بين الليل والنهار بالازدياد حتى يكون أطول ليل وأقصر نهار أو بالعكس، ومن ثم يعودان إلى التقارب فالتساوي وهلم جراً.

وفي هذه العروض في العالم تكون صلاة المسلم منظمة تنظيماً رائعاً للعمل كما ذكرناه آنفاً، وذلك لطول النهار فيها في المواسم المختلفة، وأوقات الصلاة في هذه المنطقة محددة وظاهرة معلومة على طوال أيام السنة، ويتناول هذا القسم أكثر سكان العالم!.

ب ـ القسم الواقع بين (٤٩) درجة عرض وبين (٦٦,٥) درجة عرض شمالاً وجنوباً؛ حيث الدائرتين القطبيتين، وفي هذا القسم من العروض يتراوح أقصر نهار أو ليل فيه بين (٨) ساعات حيث (٤٩) درجة، وبين فقدان الليل أو النهار كلياً حيث الدائرة القطبية في يومي الانقلاب الصيفي والشتوي، ففي باريس مثلاً الواقعة على (٤٩) درجة تقريباً؛ يكون أقصر نهار أو ليل في الانقلابين المذكورين (٨) ساعات كما بيناه آنفاً، وفي لندن الواقعة على عرض (٥٢) درجة (٧,٥) سبع ساعات ونصف الساعة، وفي لينين غراد الواقعة على (٦٠) عرض (٥,٥) خمس ساعات ونصف الساعة، وفي المدن الواقعة على درجة عرض (٦٣,٦٣) (٤) ساعات، وعلى (٦٤,٥٠) ثلاث ساعات، وعلى (٦٥,٤٨) ساعتين فقط، وعلى (٦٦,٢١) ساعة واحدة فقط، وفي (٦٦,٥) حيث الدائرة القطبية يفقد الليل أو النهار تماماً، على أنه يجب أن لا نغفل ازدياد مدتي ظاهرة

الفجر والشفق[1] في هذه العروض.

ففي يوم الانقلاب الصيفي (٢١) حزيران لا يسود الظلام في ليالي المدن والمواقع المذكورة آنفاً؛ ففي باريس عندما يكون أقصر ليل فيها (٨) ساعات، وفي لندن (٧,٥)، وفي لينين غراد (٥,٥) تبقى لياليها من الغروب إلى الشروق مكشوفة الضوء؛ أي: عندما ينتهي الشفق فيها يبدأ الفجر، فلا فاصل من الظلام يفصل بين الظاهرتين المذكورتين؛ ففي نصف الليل في تلك المدن في (٢١) حزيران يمكن أن يقرأ الإنسان كتاباً أو جريدة على ضوء هذه الظاهرة الكونية الباهرة الرائعة.

ثم قصر النهار في هذه المدن في يوم الانقلاب الصيفي بقدر قصر الليل في يوم الانقلاب الشتوي لا يؤثر على كيفية العمل، وذلك بازدياد مدتي الفجر والشفق، إلا أن بعض أوقات الصلاة تنعدم؛ فوقت العشاء ينعدم فيما إذا كان يسود الليلَ كله ظاهرتا الفجر والشفق كما ذكرناه آنفاً، وحينذاك يجمع المسلم بين صلاة المغرب والعشاء عند الغروب، ويصلي الفجر قبل شروق الشمس، ويصلي الظهر بعد الزوال بقليل، ثم يصلي العصر في وقتها، أما إذا كان الليل قصيراً جداً لا يتجاوز الساعة؛ فيجمع المسلم بين صلاة المغرب والعشاء والصبح عند غروب الشمس، ويصلي صلاة الظهر والعصر في وقتهما.

وأما إذا كان النهار قصيراً يبلغ (٦) أو (٥) ساعات؛ فيصلي الفجر قبل طلوع الشمس، ثم يجمع بين صلاة الظهر والعصر بعد الزوال بقليل، ثم يصلي المغرب والعشاء في وقتهما.

أما إذا كان النهار قصيراً جداً لا يبلغ الساعة أو أكثر بقليل أو أقل بقليل؛ فحينذاك يصلي المسلم صلاة الصبح قبل طلوع الشمس، ويجمع بين صلاة الظهر والعصر عند زوال الشمس، ثم يصلي المغرب والعشاء في وقتهما.

وهكذا ترى الصلاة في هذه الحالات أيضاً تمنح فترات للإنسان لتنظيم

---

(١) يقصد من ظاهرة الفجر: انكشاف الظلام من الليل قبل شروق الشمس بمدة، ويقصد من ظاهرة الشفق: بقاء أثر الضوء منتشراً في الفضاء بعد الغروب بمدة، والعامل لهاتين الظاهرتين هو الغلاف الغازي المحيط بالكرة الأرضية.

حياته، أما فقدان النهار في يوم واحد من السنة في الدوائر القطبية فلا تؤثر على تنظيم العمل؛ إذ الليل (٢٤) ساعة فيها يستمر كله في ضوء كالفجر، غير أن أوقات الصلاة فيها تنعدم ظاهراً في هذا اليوم، ولكن من الوجهة الحقيقية الفلكية، هي معلومة؛ إذ إن للمسلم أن يحدد أوقات صلاته نظراً إلى مدة اليوم النجمي، أو بتعبير آخر: نظراً إلى سير النجم الظاهري اليومي حول النجمة القطبية في مدة (٢٤) ساعة، ولما كانت هذه النجوم القطبية القريبة إلى النجمة القطبية أبدية الظهور في دورتها اليومية حول النجمة القطبية؛ فمن اليسير جداً مراقبة سيرها، ولما كانت حركة النجوم الظاهرية من الشرق إلى الغرب عكس حركة الأرض اليومية؛ يقوم المسلم بصلاة الصبح عندما يكون النجم المراقب (مفعول) في الشرق، ثم يجمع بين صلاة الظهر والعصر عندما يجتاز النجم في حركته سمت الرأس، أي: بعد ما يكمل ربع دورته، وعندما يصل النجم في دورته إلى الغرب، أي: عندما يقطع في دورته اليومية نصف فلكه الظاهري يجمع بين صلاة المغرب والعشاء، على أن يضطر المسلم إلى ذلك في يوم واحد من السنة فقط إذا كان موقعه على الدائرة القطبية، وبعد هذا اليوم تأخذ الشمس في الظهور على الدائرة المذكورة، ويبدأ النهار فيها قصيراً جداً لدرجة لا تكاد تطلع الشمس حتى تأخذ بالأفول، ولكن يأخذ النهار فيها يزداد تدريجياً حتى يتساوى الليل والنهار في العالم كله في (٢١) آذار و(٢٣) أيلول (١٢ ساعة نهار و١٢ ساعة ليل)، وبعد ذلك يأخذ النهار بالازدياد، والليل في التناقص حتى ينعدم الليل في الدائرة القطبية؛ حيث يسود النهار فيها مدة (٢٤) ساعة.

وفي هذا اليوم عندما تكون الشمس فوق الأفق مدة (٢٤) ساعة؛ تنعدم أوقات الصلاة ظاهراً، ولكن في الحقيقة الفلكية أوقاتها معلومة محددة؛ لأن الشمس في هذه الحالة تدور فوق الأفق على دائرة كاملة حول الموقع مدة (٢٤) ساعة فعندما تكون في أقرب نقطة للأفق في الشرق يقوم المسلم بصلاة الصبح، وعندما تكون في أرفع نقطة من الأفق وقد قطعت في دورتها ربع فلكها يجمع بين صلاة الظهر والعصر، وعندما تكمل نصف دورتها اليومية حيث تكون ظاهرة على الأفق الغربي يجمع بين صلاة المغرب والعشاء، أما إذا كانت هناك (مِزْوَلَة) أو (ساعة متقنة)؛ فللمسلم أن يقدر أوقات صلاته عن طريقهما.

ومن الجدير بالذكر أن سماء المنطقة القطبية صاحٍ دائماً لا غيوم فيه،

فيمكن مراقبة سير النجوم القطبية في ليلها الدائم، أو سير الشمس في نهارها الدائم.

جـ ـ القسم الثالث من العالم؛ فهو الواقع بين الدائرة القطبية حيث ٦٦,٥ درجة عرض، وبين القطب حيث (٩٠) درجة عرض، وفي عروض المنطقة المتجمدة هذه يبلغ طول النهار أو الليل أكثر من (٢٤) ساعة، فكلما ابتعدنا عن الدائرة القطبية واقتربنا إلى القطب يزداد النهار أو الليل أياماً، حتى يكون كل منهما عدة أسابيع أو عدة أشهر، والسكنى قليلة جداً في هذه المنطقة، ولكن لا يصعب على المسلم في هذه الحالة أيضاً أن يعين وقت صلاته.

فإذا كان الليل يسود المكان أياماً عديدة؛ فيقدّر المسلم وقت صلاته نظراً إلى سير النجوم الظاهرة القريبة إلى النجمة القطبية، كما بيّناه آنفاً، وإذا كان النهار يسود المحل أياماً؛ فيقدّر المسلم وقت صلاته نظراً إلى سير الشمس الظاهري فوق أفقه دائماً كما سبق ذكره آنفاً، وفي هذه الحالة أيضاً تكون الصلاة ناظمة للعمل؛ لأن اليوم الذي يستغرق (٢٤) ساعة (بصرف النظر عن طول النهار والليل وقصرهما أو انعدامهما)، يقسم ثلاثة أقسام: ثلث منه للعمل، وثلث للنوم، وثلث للترفيه عن النفس كما أسلفنا، وقد أجمعت على ذلك المدنيات الحاضرة ومقتضيات الصحة.

و(١٦) ساعة المخصصة للعمل والترفيه يجب أن يتخللها فترات يرتاح فيها الإنسان؛ والصلاة هي التي تعين وتحدد هذه الفترات لصالح الإنسان تحقيقاً لنشاطه البدني والروحي.

فصلاة المسلم إذن تتفق كل الاتفاق مع المدنية العصرية الحديثة التي تدعو إلى الترفيه عن الناس مهما كانت مهنتهم، وذلك بمنحهم فرصاً ووقتاً كافياً كل يوم ليتفرغوا فيه للترفيه عن أنفسهم تنشيطاً لأذهانهم وأبدانهم، ليكونوا أكثر إنتاجاً، وأقدر على الابتكار والاختراع ليفيدوا ويستفيدوا، وتمكنت الدول المتمدنة عن طريق الفرص للترفيه عن الإنسان أن تتقدم تقدماً رائعاً في مضمار الحياة المدنية العلمية والفنية، والإسلام جاء قبل (١٤) قرناً يدعو إلى هذه المظاهر المدنية عن طريق الصلاة كما فصّلناها آنفاً.

أولاً: فالصلاة تُعوِّد المسلم على النظام، وتُوجِّهه إلى حياة هانئة صحية،

وتجنبه الإرهاق في العمل؛ لا كما يقول الهدّامون: إنها تعرقل العمل والتقدم المدني، بل بالعكس هي تتفق كل الاتفاق مع المدنية العلمية التي تتطلب التنظيم في العمل دائماً.

ثانياً: أجمع العلماء ـ والأطباء منهم خاصة ـ أن حياة الإنسان قائمة على الدورة الدموية من حيث درجة نشاطها وتنظيمها، ولقد ثبت لدى العلماء الأخصائيين: أن الأعضاء التي يتناولها الوضوء في الجسم تؤدي إلى تنشيط الدورة الدموية وتنظيمها، ولذلك يشعر الإنسان بعد الوضوء مباشرة بالنشاط، وهي أكبر مزية صحية، وأعظم معجزة علمية كشفت أخيراً في محاسن الوضوء، الذي بالإضافة إلى أنه يطهِّر أعضاء الجسم الخارجية التي يتناولها الوضوء من الأوساخ العالقة بها ينظم الدورة الدموية وينشطها، مما يؤدي إلى حياة كلها نشاط وحيوية.

ثالثاً: أقر علماء النفس أن حياة الإنسان لا تكون هانئة ما لم يصحبها الاطمئنان؛ مهما كان الإنسان غنياً أو فقيراً، فإن لم تكن نفسه مطمئنة، يكون دائماً في حياة قلقة مضطربة وفي عذاب أليم، ولا شيء مثل الصلاة الصادقة التي يؤديها المسلم في خشوع، تجعل حياة المسلم هادئة هانئة، ونفسه مطمئنة دائماً فيعيش في حياة راضية مرضية، لا قلق ولا خوف، ولا جزع ولا هلع، ولا فزع فيها، وهي السعادة! كما في قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢٣].

شدة الجزع عند الشدائد تفقد الإنسان رشده، وتنتهي به إلى اليأس، وإلى ما لا تُحمَد عقباه، وشدة الشح والمنع عن الخير تورث في قلب الشحيح القسوة، وتؤدي إلى بغض الناس له والحقد عليه، واستثنى سبحانه وتعالى المصلين؛ فالمواظب على صلاته صدقاً وإخلاصاً لا يشتد جزعه إن مسه سوء، بل يرجع الأمر إلى قضاء ربه لاجئاً إليه في كشف ما نزل به، ولا يشتد منعه إن ناله خير، أي مال، بل يؤمن بأن هذا من فضل الله عليه، ويشكره على فضله، بعمل الخير والإحسان.

رابعاً: الصلاة الصحيحة الصادقة تطبع المسلم على الحرية والاستقلال والكرامة، إذ إن المسلم في كل ركعة من الصلاة يقرأ فاتحة الكتاب التي تدعوه إلى الخضوع إلى الله وحده، والاستعانة به دون سواه. كما أن اعتقاد المسلم بكلمة التوحيد[1] بأن (لا إلـه إلا الله رب العالمين)؛ هذا التوحيد المطلق يحرر المسلم من العبودية لغير الله!.

خامساً: أقر علماء النفس أن الإنسان يمكن أن يهذِّب نفسه ويجنبها سفاسف الأمور إذا كانت له رغبة صادقة مُلحَّة في ذلك، والصلاة الصحيحة تكفل للمسلم نفساً مهذبة مقرونة بالفضائل، لطلبه مخلصاً في كلِّ ركعة في فاتحة الكتاب هدايته إلى طريق مستقيم حافل بحياة هانئة ونعمة شاملة لا ضلال فيها.

سادساً: من المفروغ منه أن الأمة التي تريد أن تحيا حياة كريمة عزيزة مرهوبة الجانب، يجب أن تتمسك بالوحدة أولاً، وبالنظام ثانياً، وبالمساواة والديمقراطية[2] والحرية ثالثاً، وبإطاعة الزعامة الصالحة رابعاً (لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق).

ولا يمكن أن تتوفر هذه الركائز الأربع في المسلم إلا بصلاة الجماعة، ولذلك فضلت على صلاة الفرد، فترى في صلاة الجماعة الصفوف متراصّة، مستقيمة، متوازية، والأمير في جنب الأجير، والغني في جنب الفقير، مساواة شعبية فذة، وحدة كاملة، نظام رائع، انقياد لزعامة صالحة مخلصة وهو الإمام، وبالإضافة إلى ذلك: التعارف والتودد بين جماعة المصلين، يتفقد بعضهم بعضاً بتعاونهم في الضراء والسراء، في الأفراح والأتراح. فصلاة الجماعة؛ تعوِّد المسلم على حياة اجتماعية مُثلى فاضلة!.

---

(١) لا إلـه إلا الله: تعني أن لا معبود بحق في الوجود إلا الله، والانخلاع من كل ضروب الكفر والشرك والعبودية للمخلوق، والدخول في التوحيد الخالص ظاهراً وباطناً. (الناشر)

(٢) لا ديمقراطية في الإسلام، لأن مصدر التشريع فيها الشعب، بينما مصدر التشريع في الإسلام هو الوحي. والديمقراطية فكر وافد على مجتمعنا. راجع إن شئت كتاب (رؤية إسلامية للديمقراطية الغربية) لمؤلفه عبد المجيد الحافظ، طباعة دار وحي القلم بدمشق. (الناشر)

سابعاً: في الإنسان غرائز حيوانية معروفة تدعو الإنسان إلى الشرور والمنكرات، التي تعود على الإنسان بالوبال والضرر الفادح بدنياً وذهنياً، ولا شيء مثل الصلاة الصادقة التي تخفف وطأة هذه الغرائز، كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. فالصلاة التي لا تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولا تعدل من الغرائز الحيوانية في الإنسان؛ ليست صلاة ولا عبادة، بل هي عادة فقط.

ثامناً: لما كانت الغرائز الإنسانية تمثلها الحواس الخمس الظاهرة والباطنة جعلت أوقات الصلاة خمساً أيضاً مقابل الحواس الخمس المذكورة؛ لتكون الغرائز في حالة اعتدال، لا إفراط ولا تفريط فيها!.

هذه هي حكمة عدد الصلاة وأوقاتها من وجهة مادية ومعنوية.

أما الاعتراض على شكلية صلاة المسلم من قيام وركوع وسجود وقعود، بما لا تتفق مع الخشوع كما يزعم الهدّامون؛ فهو جهل ظاهر في حكمة شكليتها وذلك للأمرين التاليين:

الأمر الأول: فبصرف النظر على أن شكليتها تؤدي إلى رياضة بدنية خفيفة لها فوائد صحية معروفة، فإن شكليتها هي جامعة لكل من أشكال العبادات والتحيات في الأمم التي جاءت قبل الإسلام.

فإذا استقرأنا التاريخ وخاصة القديم منه؛ نرى تحيات الشعوب لملوكها وطغاتها وأصنامها وأوثانها كانت على شكل من هذه الأشكال، فمنها من كانت تحيي ملوكها أو تتعبّد آلهتها قائمةً فقط على أن تكتف يدها تحت صدرها إجلالاً واحتراماً، ومنها من كانت تحيي طغاتها أو تتعبّد آلهتها بركوعها فقط، ومنها: بسجودها فقط وهكذا.

وبقيت هذه العادة متأصّلة في بعض الشعوب حتى بعد ظهور الإسلام، وحتى في يومنا هذا نرى بعض الأتباع من الناس تخفض رؤوسها انحناءً لدرجة الركوع لأسيادها وأمرائها ومشايخها وسلاطينها. فجاء الإسلام ففرض في الصلاة كل هذه الأشكال العبودية لله وحده دون سواه، ومنع الإسلام المسلمين

أن يحيوا بعضهم بعضاً بهذه الأشكال العبودية، وجعل التحية سلاماً ومصافحة[1] فقط.

فشكلية صلاة المسلمين إذن حكمة بالغة، لأنها جمعت تحيات الشعوب القديمة لأسيادها وصور عباداتها كلها لآلهتها، فصلاة المسلم جامعة كل شكل من أشكال عبادات الأديان التي جاءت قبل الإسلام، لأنه خاتم الأديان كما يمثّلها من حيث جوهرها الأصلي يمثّلها أيضاً بأشكال عباداتها، كيلا تكون واحدة من هذه الأشكال والرموز لغير الله تعالى!.

الأمر الثاني: أن الإسلام اعتنى اعتناءً عظيماً في تربية المسلم تربية بدنية وروحية وعقلية في آن واحد؛ إن الصلاة مظهر لنشاط قواه الثلاث المذكورة، وتوجيهها إلى خالقها جميعاً في ترابط واتحاد، ولذلك جعل الصلاة قياماً وقعوداً، وركوعاً وسجوداً؛ تحقيقاً لنشاط الجسد، وجعلها توجّهاً واستسلاماً لله تحقيقاً لنشاط الروح، وفي تلاوته وتدبّره الآيات القرآنية الكونية وغيرها في صلاته تدفعه إلى التفكير في آلاء الله وآياته الخارقة الكونية؛ تحقيقاً لنشاطه العقلي والفكري، كما جاء في الحديث الشريف: «لا عبادة كالتفكر»[2]. وإقامة الصلاة على هذا النحو بفكرة الإسلام كلها عن الحياة واتجاهها بطاقاتها كلها في آن واحد جسماً وروحاً وعقلاً.

وأما شكلية صلاة المسلم بأنها لا تتفق مع الخشوع ـ كما يزعمون ـ فهي خلاف الحقيقة والواقع؛ إذ إن الركوع والسجود في الصلاة الصادقة يرمزان إلى الخضوع والخشوع التامين، بل إن التسبيح في السجود هو بمثابة معراج روحي، يتصل به المسلم بحضرة القدسية الأزلية الأبدية! وجاء في الحديث: «الصلاة

---

(١) الصلاة: ركن من أركان الإسلام، وعماد الدين، وهي صلة بين العبد وربه. وأوقاتها خمسة، وأداؤها، كما ورد في القرآن والسنة، ولا علاقة ولا صلة بينها وبين صلوات الأسبقين.
وتحية الإسلام: السلام، وصيغتها: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.
أما المصافحة: فرسول الله ﷺ يقول: من تمام التحية المصافحة. (الناشر)

(٢) لم أجده. (الناشر)

معراج المؤمن»[1]، إن صلاة المسـلم هي مناجـاة وابتهالات للخالـق ربّ العالمين، فلا تؤثر شكليتها على الخشوع قطعياً فيما إذا كان المصلي بكلٍّ حواسه وجوارحه متّجه إلى الله فاطر السماوات والأرض، ولا يشرك بعبادته أحداً!!.

وبالجملة: إن صلاة المسلم بأوقاتها الخمس لها فوائد جمّة مادية ومعنوية كما بيّناها آنفاً.

* * *

---

(١) بهذه اللفظة لم أجده، وقد ورد: «الصلاة قربان المؤمن» انظره في الجامع الضعيف (٣٦٧) وهي ضعيفة. كما ورد «الصلاة نور المؤمن» انظره في ضعيف الجامع (٣٥٧٥)، وفي السلسلة الضعيفة (١٦٦٠)، وفي كشف الخفاء (١٦١٣).
وأغلب الصيغ بهذه الألفاظ جميعها إما ضعيفة وإما موضوعة، وفي الصحيح ما يغني عن الضعيف والموضوع. (الناشر)

المبحث الثاني

الصوم

الصوم فرضٌ على كلِّ مسلم بالغ الرشد (باستثناء السفر والمرض والحمل والإرضاع والحيض والنفاس والشيخوخة الفانية).

أما حكمة الصوم فهي كما يلي:

أولاً ـ صحية: فثبت لدى العلماء الأخصائيين في صحة الإنسان أن أحسن دواء وعلاج لتقوية المعدة والأمعاء؛ أي: الجهاز الهضمي، هو الجوع الذي يؤدي إلى استجمامها وراحتها واستعادة نشاطها، وثبت أيضاً أن لا دواء لسوء الهضم غير الجوع، أي: الصوم، وكذلك تبيَّن بنتيجة الأبحاث العلمية أن كثيراً من الأمراض لا يزيلها إلا الصوم، وخاصة منها الأمراض المعدوية، حيث ينقّيها من السموم المتراكمة فيها، ثم يفيد الصوم في علاج الأمراض العصبية والجلدية.

وحتى يستفيد المسلم من صومه صحياً يجب عليه أن لا يثقل معدته عند الفطور والسحور، وإلا لا فائدة من الصوم. وجاء في الحديث: «صوموا تصحُّوا»[1]، «الصوم جُنّة»[2]: على شرط تناول الفطور والسحور باعتدال، وأن يكون الصائم دائماً يشعر بالجوع!.

ثانياً ـ اجتماعية: إن الغنيَّ ليشعر بالصوم بأثر الجوع عليه فيعطف على الفقير ويواسيه، وصدقة الفطر: هي عبارة عن تعاون اقتصادي واجتماعي، وتعاطف وتراحم بين المسلمين، مما يؤدي إلى الإخاء والمودة.

---

(١) انظره في تذكرة الموضوعات (٧٠) وفي الضعيفة (٢٥٣) وفي موضوعات الصنعاني (٧٢) وغيرها.

(٢) انظره في الشذرة / ٥٥٤/ وأما رواية الصوم جُنة ما لم يخرقها. فهي ضعيفة انظرها في ضعيف النسائي (١٣١). وإن كان المعنى صحيحاً، ولكنه ليس بحديث. (الناشر)

ثالثاً ـ أخلاقية: لا يقصد من الصوم الامتناع عن الأكل والشرب فقط، بل الصوم عن كلّ منكر وفاحشة ورذيلة، والتمسك بكلّ فضيلة حتى الامتناع عن فاحش القول ليتّصف المسلم بصومه على هذه الصورة بصفة الملائكة!.

رابعاً ـ الرجولة والشجاعة: فالصبر على الجوع طوال النهار من بدء الفجر حتى غروب الشمس الذي قد يستغرق أكثر من (١٥) ساعة أحياناً، وفي موسم الصيف يعوّد المسلم على المشاق والمتاعب فيكون شجاعاً صنديداً في الملمّات، وخاصةً في الحروب دفاعاً عن العقيدة الإسلامية، واستبسالاً[1] في الكفاح في سبيل الحرية والاستقلال.

خامساً ـ إرادة جبارة: أول صفة ينمّيها الصوم في نفس الصائم هي قوة الإرادة، والمسلم إذا تربّت فيه قوة الإرادة يصبح مسيطراً على رغبات نفسه الشهوانية، فلا يكون عبداً لهواه ولا أسيراً لشهواته، كما أن هذه الإرادة الجبارة تجعل المسلم يتَّصف بحزم وعزم عظيمين يتمكّن بهما أن يتغلّب على مصاعب الحياة ومشاكلها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

كيفية تأدية الصوم في العروض العليا من العالم:

إذا كان المسلم في العروض القريبة من المناطق القطبية التي يزيد النهار صيفاً فيها على (١٨) ساعة، حيث (فنلندة) مثلاً، وشعر المسلم بالإرهاق فعلاً إذا صام هذه المدة الطويلة؛ فله أن يصوم على مطالع (مكة)، وكذلك إذا كان الصائم في عروض قطبية يستمر فيها النهار أو الليل أياماً كما ذكرناه في أوقات الصلاة، فله أن يصوم على مطالع مكة أيضاً، وذلك للأمرين التاليين:

الأول: أنَّ مكة قِبلة العالم الإسلامي، فيتوجّه كل مسلم في صلواته الخمس يومياً إلى (مكة) حيث الكعبة المشرفة، ومنها انبعثت الدعوة المحمدية الإسلامية، وهي مهوى أفئدة المسلمين.

الثاني: أنَّ مكة من حيث عرضها الجغرافي لا يبلغ أطول نهار فيها (١٤)

---

(١) استبسالاً في سبيل الله قبل الحرية والاستقلال. (الناشر)

ساعة، فالصائم المسلم في العروض القطبية إذا اتّبع مطالع مكة في صومه فلا يتكلّف ولا يرى مشقة في صيامه.

اقتراح يؤيد عِزَة المسلمين:

وبهذه المناسبة الواجب علينا أن نعرض على العالم الإسلامي اقتراحاً يجب أن يتكاتف المسلمون في إنجازه إذا أرادوا العزّة والكرامة: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]؛ فمن المعلوم أن مكة تقع في قلب العالم الإسلامي اليوم من وجهة جغرافية، فالشرق الإسلامي الأقصى لا يزيد بعداً عن مكة نظراً إلى بُعد المغرب الإسلامي الأقصى عنها، ونظراً إلى الموقع الخطير هذا ومكانتها الدينية: يجب أن يشيد في مكة مرصد على غرار المراصد الكبرى في أوروبة وأمريكة، يجهّز بآلات الرصد الفنية والعلمية والأجهزة اللاسلكية، وبعد إنجازه يكون تحت إشراف هيئتين: ١ ـ هيئة فنية وعلمية، ٢ ـ هيئة دينية (تضم أكابر العلماء من المذاهب الإسلامية كلها التي قد تنصهر في هذا المظهر المهذّب الموحد) من أقطار العالم الإسلامي، على أن يكون المرصد تحت مراقبة الحكومة العربية السعودية، وتشترك في إنشائه الممالك الإسلامية كلها، ويطلق عليه اسم (المرصد المحمدي) تبرّكاً باسم الرسول الأعظم محمد عليه الصلاة والسلام.

ويجب أن يكون هذا المرصد مزوّداً بمحطة إذاعة قوية عالمية مستقبلة ومرسلة، تحوي مذياعاً قوياً جداً، ذات أمواج مختلفة تبث منه إذاعة عالمية إلى العالم عامة، وإلى العالم الإسلامي خاصة تدعى بـ(صوت الإسلام).

تتناول الإذاعة حاضر العالم الإسلامي ومشاكله ومزايا الإسلام ومُثُله العليا، وما كان عليه السلف الصالح، وتوجهه الوجهة الصحيحة الإسلامية من قبل علماء إسلام، أفذاذ بلغات أجنبية مختلفة إنكليزية، وفرنسية، وألمانية، وروسية وغيرها، وخاصة اللغات الإسلامية، ومن وجهة أخرى: تعلن عن طريق هذا المرصد أيام الإسلام التي يحتفل بها المسلمون جميعاً، وهي يوم الهجرة النبوية، ويوم عرفة، ويوم عيد الأضحى، وأول يوم من صيام شهر رمضان، ويوم عيد الفطر، وكلها تذاع إلى العالم الإسلامي، ليوحد المسلمون صيامهم وإفطارهم وحجّهم، ويُقضى على هذا التبلبل اليوم في طقوسهم الدينية، فهل من يسمع وينفّذ؟!.

نعرات بعض المتعلمين ضد الصيام:

إن كثيراً ما نسمع من الذين لا يريدون أن يفهموا الحق والحقيقة، وخاصةً الذين هم يعدُّون من المثقّفين بثرثرة تنمُّ عن التحلّل من كلّ واجبات العبادة! فيقول هؤلاء: إنّ أيام الصوم في الإسلام كثيرة من حيث تستمرُّ طوال شهر رمضان ثلاثين يوماً، وهذا ما يرهق الصائم كثيراً، ولا يتفق مع المدنية الحاضرة! على حدِّ تعبيرهم، لأنه يجعل المسلم الصائم عاطلاً شهراً كاملاً لا يتمكن من العمل الذي يتوقف عليه حياته وحياة أسرته المكلّف بإعاشتها! فنجيب على ذلك:

أولاً: إنَّ صيام ثلاثين يوماً في كلّ سنّة لا يُعدُّ كثيراً إلى ما سبق أن ذكرناه من فوائد الصيام الصحية والمعنوية. فصيام أقل من ذلك لا يجدي نفعاً من وجهته الصحية، لتنظيف الجهاز الهضمي من السموم وتقويته وتنشيطه، وحتى لم يكتفِ المسلمون من السلف الصالح بصيام شهر رمضان، بل إن غير قليل منهم كانوا يصومون يوماً واحداً من كلٍّ أسبوع تطوّعاً، ومنهم مَن كان يصومُ شهري رجب وشعبان أيضاً، لما لمسوا في الصيام من فوائد صحية وأخلاقية واجتماعية، على أنهم مع صيامهم هذا كانوا يزاولون أعمالهم اليومية دون مشقة. ومنهم من كان يصوم طوال عمره مع المواظبة على عمله.

وثبت بالاختيار والتجربة أنّ الإنسان إذا تعوّد على الصوم لا يرى منه أية مشقة، وكثير من الناس مهما كان دينه قد تعوَّد أن يكتفي بوجبتين من الطعام في يومه على مدى حياته، وهو مرتاح وأكثر صحة من غيره، والصائم المسلم أيضاً يكتفي بوجبتين فقط، وجبة قبيل الفجر سحوراً، ووجبة عند الغروب فطوراً، وثبت صحياً وطبياً أنَّ مَن يتّبع في طعامه وشرابه الاعتدال غير الإسراف حسب قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف: ٣١]؛ من حيث لا يأكل حتى يجوع تماماً «والجوع أكثر شهية للإنسان»، وإذا أكل لا يشبع، ويتعوَّد على هذه الحالة؛ يكون أطول عمراً من الذين يسرفون في الأكل والشرب، ولا يصومون لتنقية جهازهم الهضمي!.

ثانياً: أما أن صوم شهر رمضان لا يتفق مع المدنية العصرية من حيث العمل المتواصل المعاشي كما زعموه في الصلوات الخمس؛ فهو قول هراء لا يأتلف مع الواقع والحقيقة، وقد فنّدنا أقوالهم فيما يتعلق بالصلاة، أما فيما يتعلق بالصوم،

فالإسلام لا يريد العسر، بل اليسر دائماً، ولا حرج في الدين الإسلامي، فكل عامل مكلف بمعيشة أسرة، إذا كان عمله شاقاً والصيام يرهقه إرهاقاً يضر بصحته ويمنعه من مزاولة عمله؛ فله أن يفطر ولا إثم عليه[1]، وحتى الذين يطيقون الصيام ولكنهم يرون فيه مشقة؛ لهم أن يفطروا على أن يعطوا فدية طعام مسكين إذا لهم قدرة على الإطعام، وإلا فليس عليهم الفدية[2] أيضاً. واقرأ إن شئت ما يلي من الآيات الكريمة قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤]، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الأعلى: ٨]، والأحاديث الشريفة، جاء في الحديث: «بعثتُ بالحنيفية السمحة»[3]، «يسِّروا ولا تعسِّروا»[4]، «خير دينكم أيسره»[5]، «فإن أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»[6].

هذا هو الدين الإسلامي أيها الغافلون أو المتغافلون![7].

* * *

---

(١) من أين لك هذا: الصيام فرضٌ ـ ولا يُستثنى من الصوم إلا ما استثناه القرآن. (الناشر)

(٢) من أين لك هذا: الصيام فرضٌ ـ ولا يُستثنى من الصوم إلا ما استثناه القرآن. (الناشر)

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده برقم (٢١٢٦٠) في كتاب مسند الأنصار. وانفرد به الإمام أحمد. (الناشر)

(٤) رواه البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم. (الناشر)

(٥) رواه الإمام أحمد في مسنده برقم (١٥٣٧١) في كتاب مسند المكيين، و(١٨٢٠٨) و(١٩٤٥٨) في كتاب مسند البصريين. (الناشر)

(٦) رواه البخاري في صحيحه برقم (٦٧٤٤) في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة؛ وأحمد في مسنده برقم (٧٧٩٧) و(٩١٥٨) في كتاب مسند المكثرين.

(٧) إسلامنا عظيم، ينبغي علينا أن نعرضه كما هو، رضيَ من رضي، وأبى من أبى، أما أن نعرض الشبهات ونرد عليها، فهذا أسلوب لا يليق بإسلامنا، لأنه ليس في قفص الاتهام. فإسلامنا من الله سبحانه وتعالى ولا يحتاج إلى دفاع. أو من يرد الشبه عنه. (الناشر)

المبحث الثالث

الزكاة[1]

لا حاجة لذكر مزايا الزكاة الاقتصادية والاجتماعية، إذ إنها تقضي على الأغنياء أن يخرجوا قدراً معيناً شرعياً من أموالهم ترفيهاً للفقراء لرفع مستوى معيشتهم، لتكون الفروق المالية بين طبقات المجتمع قليلة، لتعيش عيشة رغيدة رفيهة لا حاسد فيها ولا محسود، ولا حاقد ولا محقود، ولا غنى فاحش ولا فقر مدقع!! قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

* * *

(١) الزكاة: ركن من أركان الإسلام، وهي حق للمسلم الفقير من مال المسلم الغني. (الناشر)

المبحث الرابع

الحج

نذكر أولاً قوله تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ ﴾ [الحج: ٢٧ـ٢٨].

أيها القارئ الكريم، تأمل ملياً الآية الكريمة، كيف أنها قدمت ﴿ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾، على ذكر الله، وما هي هذه المنافع؟ تتناول هذه الكلمة السامية الرائعة كل ما يعود على المسلمين بالمنافع المادية والمعنوية من وجهات؟ كثيرة؛ اجتماعية واقتصادية وسياسية وعسكرية وثقافية وعلمية وفنية وروحية وأخلاقية و. . .

فالحج مؤتمر عالمي إسلامي دوري، في كلِّ سنة يجتمع المسلمون فيه في مكان واحد يتذاكرون، ويتباحثون فيما يعود عليهم بالخير في كلِّ مظاهر الحياة المختلفة الآنفة الذكر.

تصور أيها الشباب المسلم هذا الحفل الرائع الذي يضم مئات الألوف من المسلمين، وكلهم في إحرام واحد، فالملوك والأمراء والفقراء والعوام في كسوة واحدة، وفي صعيد واحد لا تميز بينهم، فهذه المساواة الحقة الفذة؛ تتمثلان بأروع مظاهرها في هذا الحشد الإسلامي العظيم، ولكن المسلمين لم يقدروا مع الأسف والألم، هذا المؤتمر العالمي الإسلامي الخطير الذي يدعوهم إلى الوحدة المتماسكة، اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً ليكونوا كتلة رهيبة بموقعهم الخطير في العالم، تملي إرادتها على الأمم الغربية التي استضعفتها واستعبدتها، لينقذوا بلادهم من الاستعباد والاستعمار وليتمتعوا بالحرية والاستقلال.

* * *

المبحث الخامس

الجهاد في سبيل الله

إن الإسلام يدعو إلى السلم؛ فجاءت آيات قرآنية تدل دلالة صريحة على ذلك؛ قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]، ولكنه يدعو إلى السلم المسلح بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠) ۞ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦٠ ـ ٦١]، هذه الآية الكريمة صريحة بأن القوة التي تدعو إليها لا لغاية الحرب والاعتداء على الغير، بل لتوازن القوى ولإرهاب الأعداء فقط، حتى يخشى العدو قوة المسلمين دائماً، فلا تحدثه نفسه بالاعتداء عليهم فيسود السلام. بدليل الآية التي عقبت آية القوة وهي آية السلم بقوله تعالى: ﴿۞ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ أي: أن الأعداء إن لم يعتدوا عليكم وأرادوا السلم فتمسكوا به وهو الغاية.

متى يكون الجهاد فرض عين:

إن الإسلام لا يقرر الحرب إلا للدفاع عن النفس وعن دار الإسلام، إذا انتهكت حرمتها من قبل العدو، وجاس خلالها ليجعل أعزتها أذلة، وليتلاعب بمقدراتها ويستعبد أهلها، ويستغل ثروتها لمصلحته أبشع استغلال، أو دفاعاً عن العقيدة الإسلامية إذا باتت في خطر عن طريق التبشير من قبل أعداء الإسلام، وفي هذه الحالات (كما هي الحالة الراهنة اليوم في العالم الإسلامي) يكون الجهاد فرض عين[1]، فيحتم الإسلام على المسلمين كلهم في هذه الحالة أن يقوموا قومة واحدة، ذكوراً وإناثاً، شيباً وشباناً، وحتى المرضى! بكل ما يملكون من

---

(١) الإسلام في جهاد دائم لا ينقطع أبداً لتحقيق كلمة الله في الأرض، ورجالات الإسلام مكلفون ألا يهادنوا أية قوة ظالمة على وجه الأرض. (الناشر)

قوة جهاداً في سبيل[1] الحرية والاستقلال، وتطهيراً للعالم الإسلامي كله من دنس نفوذ وسيطرة أعداء الإسلام المستعمرين وأذنابهم، وخاصة ربيبتهم (إسرائيل) سرطان العالم العربي والإسلامي.

الإسلام يبيح الحرب لأغراض سامية:

إن الإسلام إذ يدعو إلى القوة ويمجدها مثل قوله تعالى: ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ [هود: ٥٢]، وفي الحديث: «ألا إن القوة الرمي»[2]، «واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»[3]، لا يرمي بهذه القوة إلى الاعتداء؛ بدليل قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠].

جاء الإسلام بإباحة الحرب لأغراض سامية محدودة؛ منها ما هو سلبي؛ وهو دفع العادية ومنع الظلم كما أسلفنا، ومنها ما هو إيجابي؛ وهو الخير العام أو الصالح العام، وجاءت الآية الكريمة التالية بالناحيتين السلبية والإيجابية، قال تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [الحج: ٣٩ ـ ٤١].

الإسلام يحدد المقصود بعد الحرب:

فبيّنت آخر الآية الآنفة الذكر الواجب بعد النصر وحدد المقصود منه، فليس

---

(١) في سبيل الله أولاً. (الناشر)

(٢) رواه مسلم برقم (٣٥٤١) في كتاب الإمارة، والترمذي وأبو داود وابن ماجه وغيرهم. (الناشر)

(٣) رواه البخاري برقم (٢٦٠٧) في كتاب الجهاد والسير؛ ومسلم برقم (٣٢٧٦) في كتاب الجهاد والسير.
ومعناه: ثواب الله، والسبب الموصل إلى الجنة عند الضرب بالسيوف في سبيل الله، ومشي المجاهدين في سبيل الله، فاحضروا فيه بصدق واثبتوا. (الناشر)

توسعاً في الملك كما تفعل الدول المستعمرة، وليس تعجيزاً للآخرين وإنهاكاً لهم، ليضعفوا عن المزاحمة في العيش، ويطردوا من الأسواق وميادين التجارة، ولا لوضع اليد على موارد الثروات وكنوز الأرض، وخامات الصناعة، ليستأثروا بها، ولا علواً واستكباراً في الدنيا لكي تكون أمة أربى من أمة، وجيش أعلى من جيش، ولكن لغاية واضحة محدودة هي: أن يقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، ويأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر.

الإسلام يكافح الظلم أينما كان:

فحيثما كان على وجه الأرض ظلم، فالأمة الإسلامية مكلفة أن تكافحه وتزيل أسبابه، لا لتملك الأرض، وتستولي على المرافق، وتستذل الرقاب، بل لتتحقق كلمة الله في الأرض خالصة من كل غرض، وهذا هو ما يطلق عليه في الإسلام: (الجهاد في سبيل الله)، أي: الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا، لا بإكراه الناس ليكونوا مسلمين! بل بإتاحة الفرصة لهم ليخلصوا من الظلم والذل، ويملكوا حرية الاختيار دون تدخل من القوة الطاغية الضالة، ويستمتعوا بالعدل المطلق الذي يريده لهم الله ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ﴾ [النساء: ٧٦]، وذلك مفرق الطريق بين الجهاد في سبيل الله، والجهاد في سبيل الشهوات![١]

المسلم لا يرضى بالظلم:

الإسلام يهدد الراضين بالظلم[٢]، القاعدين عن مكافحته؛ بسوء المصير في الدنيا والآخرة، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٧ - ٩٩]، إنها إذن جريمة لا ينفع فيها اعتذار، جريمة أن يرضى الإنسان بالظلم بحجة

---

(١) السلام العالمي والإسلام، ص١٣٠. سيد قطب (رحمه الله)

(٢) مبادئ الإسلام الأساسية ثورة حقيقية كاملة، ثورة على الظلم بكل صنوفه وألوانه، وفي كل ميادينه ومجالاته، وثورة على كل ما يساند هذا الظلم أو استبقائه في أي صورة من الصور. (الناشر)

أنه ضعيف في الأرض! والقرآن يسمِّيهم ظالمي أنفسهم حين رضوا لها غير الوضع الكريم الذي أراده الله للناس، ودعاهم إلى تحقيقه بكل ما يستطيعون من جهد.

والدعوة إلى الهجرة دعوة فردية، وليست هي السبيل الوحيد لمواجهة الظلم، فللجماعات سُبلٌ أخرى ذكرناها آنفاً. إنما نريد هنا أن نؤكد استفظاع الإسلام للرضا بالظلم، إلى حد أن المستضعفين حقيقة الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، لا ينالهم إلا الدعاء لهم بالعفو، لا العفو المؤكد الصريح! مع أن عذرهم واضح وضعفهم صادق لا مفتعل، وليس معنى الآية أن الله قد لا يعفو عنهم: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، ولكن المقصود بالتعبير ـ كما قلنا ـ تهويل الأمر حتى لا يقعد عن الكفاح أحد يملك ذرة من القدرة على الكفاح.

أما المستضعفون حقيقة فليسوا متروكين لأمرهم يحتملون الظلم بلا نصير، فالأمة الإسلامية كلها مدعوة للكفاح في نصرتهم، ودفع العدوان عنهم كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ [النساء: ٧٥]، فالظلم لا يقع على طائفة من الناس أو على كثرتهم ثم يسكتون عنه فيرضى الله عنهم، ولن يرضى الله عنهم حتى يكافحوا الظلم ويردوه عن المظلومين[1].

قيمة النفس البشرية في نظر الإسلام:

ينظر الإسلام إلى النفس البشرية نظرة تكريم: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، بصرف النظر عن جنسه ودينه ولونه. ولذلك أحاط الإسلام بتشريعه الإنسان بهالة من الحماية الاجتماعية والصيانة الاقتصادية كيلا يصيبه ظلم أو إرهاب أو فقر أو سوء يهين كرامته، أو ينغص عليه حياته التي يعتبرها الإسلام أثمن ما في الدنيا! لدرجة أنه اعتبر قتل فرد من البشر ـ مهما كان دينه ولونه وجنسه ـ بغير حق ودون مبرر شرعي؛ بمثابة قتل الناس جميعاً، ومن أحيا نفساً فكأنما أحيا الناس جميعاً. قال تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

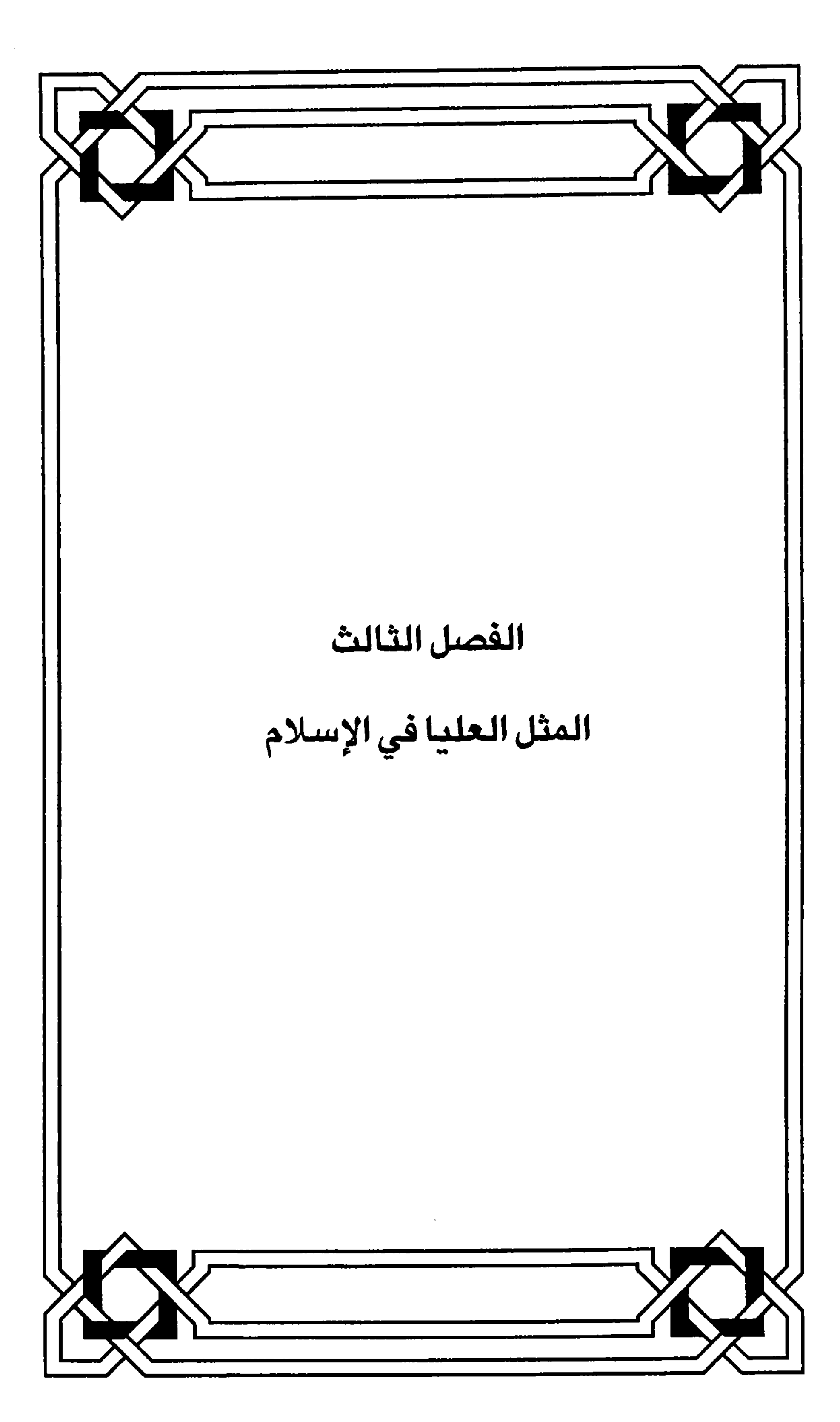
---

(١) ملخص ما جاء في كتاب: (السلام العالمي والإسلام)، لسيد قطب.

انظر إلى سموِّ هذه الآية، وتقدير قيمة حياة الإنسان في الإسلام، ما أعظمها وما أروعها! قارن بينها وبين الذين يبيحون القتل الجماعي بالقنابل الذرية؟!.

رأيت أيها القارئ الكريم أن الإسلام بعباداته الخمس المذكورة آنفاً يرمي إلى المثل العليا، كما أنه يدعو إلى كفاح متصل من أجل حياة رفيعة، هانئة، نشيطة تسودها الحرية والمساواة والعدالة، ويقوم على الإخاء، ويهدف إلى الخير والفضيلة، وإلى الاستقلال والعزّة والكرامة، وإلى النظام والعمل والإنتاج.

* * *



الفصل الثالث

المثل العليا في الإسلام

تمهيد

الإسلام دين المثل العليا، فهو دين المساواة والحرية بكل معانيهما الحقيقية، وهو دين الخير والحق والحب، دين الطيب والطهر، دين الكرامة والمجد، دين القوة والمنعة والحرية والاستقلال، دين الرحمة والإنسانية والإخاء، دين العدل والإحسان، دين السلم والأمان، دين التعاطف والتعاون، دين الوحدة العالمية، دينٌ يسمو به الإنسان إلى الكمال، ولم أقل ذلك اعتباطاً، بل إنما قلتُه معتمداً على القرآن الكريم الحافل بتلك الآيات البيّنات والمبادئ الإنسانية السامية والمعروفة لدى كل من فاز بتلاوة القرآن الكريم، وتدبَّر آياته، والتي ستطَّلع عليها أيها القارئ الكريم في هذه الرسالة:

* * *

المبحث الأول

الإسلام تقدمي تطوري

يقول مَن لا يفهم الإسلام: إنَّ الدعوة إلى الإسلام والعمل بنظامه هو رجوعٌ بالعالم إلى الوراء ألف عام أو تزيد، وهذا هو الرجعية تماماً، فكيف يُعقل أننا نطبّق اليوم نظماً جاءت لأمة عاشت قبلنا بأربعة عشر قرناً، في أرضٍ غير أرضنا وعلى لون من الحياة غير ألوان حياتنا؟! وأين سنّة التطوّر وقوانين التقدّم والارتقاء؟.

ومن الغريب المؤسف المؤلم أن نسمع هذه النعرات تتكرَّر من البعض منا الذين أخذوا ثقافتهم من المدنية الغربية المادية البحتة بأن يقولوا: إنَّ العلمَ لا يُقرُّ الفكرة المطلقة ولا الحقيقة، فكلُّ تشريع أو توجيه مستوحى من المطلق ـ شأن التشريع الديني ـ ليس علمياً، ولا محلَّ له في القرن العشرين، وهو القرن الذي بلغ فيه العلم ما بلغ من التقدم والازدهار، فهذا هو الاستعمار والأصح الاستعباد الفكري والروحي الذي يبثّه صناديد الاستعمار ومبشّريه بين ناشئتنا المثقفة ليصدّوهم عن دينهم الحنيف الذي لا يرضى عن الحرية والاستقلال بديلاً!.

فنقول لأولئك ولهؤلاء: إنَّ الإسلام تقدّمي تطوّري بكل ما في هاتين الكلمتين من معانٍ شاملة؛[1] لأنهم لم يفهموا طبيعة الإسلام الحنيف الذي جاء للناس بفكرة سامية تحدد الأهداف العليا، وتضع القواعد الأساسية، ولا تتورط في الجزئيات، وتدع بعد ذلك للحوادث الاجتماعية والتطورات الحيوية أن تفعل فعلها وتتسع لها جميعاً.

ومن هنا فرَّق العلماء في النظرة التشريعية بين ما هو من قواعد أحكام العبادات والعقائد، وما هو من قواعد أحكام المعاملات وشؤون الحياة الاجتماعية، فأفسح النظر والاجتهاد في الثانية ما ليس في الأولى حتى لا يكون

---

(١) بل قل: الإسلام صالح لكلّ زمان ومكان. (الناشر)

على الناس في ذلك حرج ولا مشقّة: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وإذا كان تاريخ التشريع الإسلامي يحدّثنا أنّ ابن عمر رضي الله عنهما كان يفتي في الموسم في قضية من القضايا برأي، ثم تعرض عليه في الموسم التالي من العام القابل فيفتي برأي آخر، فيُقال له في ذلك، فيقول: ذاك ما علِمْنا وهذا ما نعلم (وكلام نحو هذا).

كما يحدّثنا الشافعي رحمه الله: أنه وضع بالعراق مذهبه القديم، فلما تمصّر[1] وضع مذهبه الجديد؛ نزولاً على حكم البيئة وتمشّياً مع مظاهر الحياة الجديدة، من غير أن يخلّ ذلك بسلامة التطبيق على مقتضى القواعد الإسلامية الكلية الأولى. وأصبحنا نسمع: قال الشافعي في القديم وقال الشافعي في الجديد، ونرى تغيّر رأي الرجل الواحد في القضية الواحدة بحسب الزمان تارة ـ كما فعل ابن عمر ـ وبحسب المكان تارة أخرى ـ كما فعل الشافعي ـ أو بحسبهما معاً[2]، كما سمعنا أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر بعدم قطع اليد في السرقة عام المجاعة![3].

فهل يُقال بعد هذا: إنَّ في الرجوع إلى النظام الإسلامي رجعية وجموداً؟! وليست في الدنيا شريعة تقبل التطوّر وتساير مقتضيات التقدّم، وتتمتَّع بمعاني المرونة والسلاسة والسعة كشريعة الإسلام الحنيف: ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

ثم جاء في الحديث: «لا ضرر ولا ضرار»[4] إذ إن التشريع الإسلامي

---

(١) أي ذهب إلى مصر. (الناشر)

(٢) كان يفتي رحمه الله حسبما كان يصله من الدليل. (الناشر)

(٣) إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يطبق حد السرقة لعدم توفر شروط تطبيقه. ولم يكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليوقف حدا، أو يدعو لوقف العمل بالنص، كما يدَّعي البعض من المغرضين. (الناشر)

(٤) رواه ابن ماجه برقم (٢٣٣١) و(٢٣٣٢) في كتاب الأحكام؛ وأحمد في مسنده برقم (٢٧١٩)، في كتاب مسند بني هاشم؛ ومالك برقم (١٢٣٤) في كتاب الأقضية. (الناشر)

ميقضي دائماً برعاية المصالح العامة، ويقول الإمام الشاطبي: «إن أحكام الشريعة ما شرعت إلا لمصلحة الناس، وحيثما وجدت المصلحة فثمَّ وجه الله».

وعلى ذلك إن القوانين المدنية الحاضرة من اجتماعية واقتصادية وسياسية وغيرها، التي تكفل السعادة البشرية يقرّها الدين الإسلامي كلها ما لم تخالف المصلحة العامة. فالدين الإسلامي إذن يماشي التطوّر ويدعو إليه، كما أنه يدعو إلى التقدّم والازدهار في كل ما يتعلّق بالعلوم المادية الحضارية والمدنية؛ فهو تقدّمي تطوّري كما قلنا آنفاً، مع إرشاده البشر إلى التمسّك بأهداب الفضيلة والمُثُل العليا؛ من: حرية، وإخاء، ومساواة، وعدل، وتراحم، وتعاطف بين البشر قاطبة دون النظر إلى الجنس واللون والدين، فهو يدعو إلى الروح والمادة[1]، وبهما تستقيم البشرية وتطمئن، لا كما هي عليه اليوم المدنية الغربية التي نبذت كل ما يتعلّق بالروح، وتمسّكت بالمادة فقط، حتى آلت إلى الحالة الراهنة التي تنذر البشر بشرٍّ مستطير!.

* * *

---

(١) إن في روح الإسلام من السماحة الإنسانية ما لا يملك منصف أن ينكره أو يراوغ فيه، وهي سماحة مبذولة للمجموعة البشرية كلها لا لجنس فيها ولا لأتباع دين معين. إنما هي للإنسان بوصفه إنساناً، ومن مبادئه هداية البشرية جمعاء، والنهوض بتكاليف في دفع الظلم والفساد عنها. وبهذه المبادئ سار نبينا محمد ﷺ وخلفاؤه الراشدون رضي الله عنهم، والمسلمون الصادقون من بعدهم. (الناشر)

المبحث الثاني

موقف الإسلام من ركائز المدنية الثلاث

من المعلوم أن المدنية والحضارة تقومان على ركائز ثلاث: وهي (العلم، والمال، والعمل). فلننظر مكانة هذه الدعائم الثلاث للحضارة العصرية في الإسلام:

أولاً ـ مكانة العلم في الإسلام:

أجمع علماء الإسلام على أنَّ أول آية افتتح بها القرآن خطابه بها للبشرية هي الدعوة إلى القراءة والعلم، فقال تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ ـ ٥]، وأقسم الخالق سبحانه وتعالى بأدوات العلم والكتابة: ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم: ١]. وقال تعالى: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤]، والقرآن حافل بآيات التدبّر والتفكّر والعلم وبتكريم العلماء وأولي الألباب.. وهو يشير إشارات دقيقة إلى كتاب الكون، تستثير البصائر والأبصار، وتحفِّز الهمم للبحث والكشف ثم الإبداع والاختراع: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

وجاء في الحديث: «العلم أفضل من العبادة وملاك الدين الورع»[1] «طلب العلم ساعة خير من قيام ليلة، وطلب العلم يوماً خير من صيام ثلاثة أشهر»[2]،

---

(١) الحديث ضعيف، انظره في ضعيف الجامع: ٣/٣٨٦٨؛ وذخيرة الحفاظ [ابن القيسراني]: ٣/٣٥٧٨. (الناشر)

(٢) الحديث ضعيف، انظره في ضعيف الجامع: ٣/٣٦٢٤؛ والفوائد المجموعة للشوكاني: ١/٨٨٧؛ والتنزيه للكناني؛ وذيل اللآلي للسيوطي. (الناشر)=

«طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»[١]، «اطلبوا العلم ولو بالصين»[٢]، «الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها أخذها»[٣]، «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد»[٤]، «كونوا للعلم رعاة ولا تكونوا له رواة»؛[٥] أي: لا تكتفوا بنقل العلوم المتداولة وروايتها فقط، بل استقصوا وابحثوا واستنبطوا لتكونوا من المبتكرين المخترعين!.

وقد حدد الإمام ابن حزم حداً أدنى للثقافة يلزم غمار العامة، وجعل الحاكم ملزماً بجعل هذا القدر من التعليم إجبارياً!! بدليل الآية الآنفة الذكر: ﴿اقرأ﴾ بصيغة الأمر، وبدليل الحديث: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»[٦]، جعله فريضة من الفرائض. فالتعليم الإجباري إذن قد قرّره الإسلام قبل أن تفكر به أوروبة بقرون! فليتأمّل المثقّفون منّا هذه البدائع الإسلامية!.

ثانياً ـ مكانة المال في الإسلام:

القرآن حافلٌ أيضاً بمكانة المال والثروة لاستثمارها في صالح الأمة لرفع مستوى معيشتها؛ فقد وصف القرآن المال في بضع آيات منه بكلمة الخير، كقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[العاديات: ٨]، أي: المال، وفي آية أخرى جعل المال قوام الحياة: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء: ٥]، وفي آية أخرى اعتبر المال زينة: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ١٨] فأي وصف أعظم من وصف المال بهذه الأوصاف الثلاثة!.

وقدّم القرآن بذل المال على بذل النفس في كثير من آياته لما للمال من

---

(١) رواه ابن ماجه برقم (٢٢٠) في المقدمة. (الناشر)

(٢) الحديث ضعيف، انظره في ضعيف الجامع: ١/٩٠٧؛ وكشف الخفاء: ١/ ٣٩٧ وغيرهم. (الناشر)

(٣) رواه ابن ماجه في سننه برقم (٤١٥٩) بلفظة: الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، حيثما وجدها فهو أحق بها؛ والترمذي برقم (٢٦١١) في كتاب العلم عن رسول الله ﷺ. (الناشر)

(٤) لم أجده. (الناشر)

(٥) الحديث ضعيف. انظره في ضعيف الجامع: ٣/ ٤٢٨٢. (الناشر)

(٦) سبق تخريجه في الحاشية رقم (١) (الناشر)

أهمية عظمى في ترفيه الأمة وتقدّم المدنية؛ من مشاريع عمرانية وثقافية وصحية وصناعية وعسكرية وغيرها: ﴿وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [الصف: ١١] ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ٤١].

ثالثاً ـ مكانة العمل في الإسلام:

للعمل مكانة عظمى في الإسلام، ولذلك نرى الآيات القرآنية الإخبارية التي جاءت بالإيمان اقترنت كلّها تقريباً بالعمل الصالح، مثل قوله تعالى: ﴿مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٨]، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: ٨٢]، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البيّنة: ٧ ـ ٨].

على أن الأعمال الصالحة التي جاءت في القرآن لا تقصد منها العبادات فحسب؛ من شهادة التوحيد ومن صلاة وصوم وزكاة وحج، بل إنها تعني الأعمال التي تؤدي إلى إسعاد المجتمع الإسلامي من وجهة مادية أيضاً، فيريد الدين الإسلامي من المسلمين المؤمنين أن يكونوا في مستوى يفوق كل مستوى من الأمم الأخرى في كل ناحية من نواحي المدنية؛ من وجهة علمية وثقافية واجتماعية واقتصادية وسياسية وعسكرية؛ حتى يكونوا هم السادة في العالم كما وعدهم الله به ووعده الحق، ولكن لما غفل المسلمون عن ذلك، وقعدوا عن العمل الصالح بمعناه الشامل، ولم يجاروا المدنية العصرية؛ تأخّروا عن موكب الحضارة، فأصبحوا كما نراهم اليوم في مؤخّرة الأمم! لأنهم تمسّكوا بالأقوال دون الأعمال: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف ٢ ـ ٣]، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨]، ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ [التوبة: ١٠٥]، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ [النجم ٣٩ ـ ٤٠].

وجاء في الحديث: «أحبُّ الأعمالِ إلى الله أدومُها وإن قلّ»[1]، «الإيمانُ والعملُ قرينان لا يصلح كلٌّ واحدٍ منهما إلا مع صاحبِه»[2].

معنى التوكل المثابرة على العمل حتى النهاية:

قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

فجاءت الآية بالعزم قبل التوكل. ومن المعلوم أنَّ العمل مهما كان نوعه تسبقه مراحل ثلاث حتماً قبل المباشرة به؛ فالتفكير أولاً، والتصميم ثانياً، والعزم ثالثاً، وبعد العزم فوراً يباشر العمل.

تنبئنا الآية الكريمة: بأننا إذا فكّرنا بنوع من العمل الصالح للمجتمع، وبعد تقليبنا وجهات النظر فيه، واقتنعنا بفائدته للصالح العام؛ أخذنا بعد ذلك بكيفية التصاميم له، وذلك برسم خطط واضحة لإنجازه، واعتقدنا بما لهذه التصاميم والخطط من آثار هامة تساعد على إتمام العمل، عزمنا حينذاك بعد التفكير والتصميم على المباشرة بالعمل فوراً. فالعزم ـ إذن ـ يقترن بالعمل مباشرة.

تأمرنا الآية: بأننا إذا عزمنا على عمل ما (على أن يكون لصالحنا وللصالح العام في نفس الوقت)، وباشرنا به، يجب أن نثابر عليه ونستمر فيه حتى النهاية، دون أن تصدّنا عنه عقبة أو معضلة أو مشكلة أجلّ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾. الله أكبر ما أعظمها! أي: عليك أن تزداد نشاطاً ومثابرة كلما ازدادت العقبات إن كنتَ متوكلاً على الله حقاً.

وهذا الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه يوضِّح لنا معنى التوكل بقوله: «لو أنكم توكّلتم على الله حقَّ التوكُّل لرُزقكم كما يرزق الطيرُ، تغدو

---

(١) رواه البخاري برقم (٥٩٨٣) في كتاب الرقاق؛ ومسلم في صحيحه برقم (١٣٠٣) في صلاة المسافرين. (الناشر)

(٢) الحديث ضعيف، انظره في ضعيف الجامع: ١/ ٢٣١٢؛ وهناك الكثير من الآيات والأحاديث التي تحث على القول العمل، على الإيمان والعمل. (الناشر)

خِماصاً وتروحُ بِطاناً»[1]، يعلّمنا الحديث المذكور أن تكون لنا إرادة جبّارة لا تعرف القهقرى حتى تبلغ الغاية، كإرادة الطير ينطلق في صباحه لا يملك إلا عزماً ماضياً و(توكلاً) حقيقياً، فيلتقط الحب بين المهالك لا يبالي أن يقع في شرك الموت؛ ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، فذلك التوكّل في نظر الإسلام، وتلك العزيمة التي تشرق كالنجم لا يحول شيء دون إشراقه.

فمعنى التوكُّل المجازفة والتضحية والثبات في العمل مهما كانت الصعوبات التي تجابهنا، فيجب اقتحامها والصبر عليها. والصبر الذي جمع أمهات مكارم الأخلاق جاء في القرآن الكريم في نيف وسبعين موضعاً، من ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، فجاء في الآية الصبر قبل الصلاة، ثم جعلت الله مع الصابرين دون المصلين!.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، ومما يؤيد ما ذكرناه في ثمرة الثبات ـ أي: الصبر ـ الذي هو التوكّل بعينه، الآية الكريمة: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، أتت مع القسَم والتوكيد، ولكن الشكر ما هو: أنشكر بألسنتنا فقط ويزيدنا خيراً؟! كلا! بل إنما الشكر هو العمل المتواصل؛ بدليل قوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]، فإن ثابرنا على العمل رغم العقبات لا بد من النجاح: إن الآية تبشّرنا بالنجاح!.

القعود عن العمل هو اليأس ولا فرق بين الكفر واليأس في الإسلام:

فقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، فاليأس هو النكوص عن عملٍ يعود بالخير إلى الصالح العام صدَّتنا عنه عقبة ما! والأعمال لا تخلو من إحدى ثلاث، فإما أن تكون مستحيلة الحصول في نظرنا، وإما متوقَّعة الحصول، وإما متيقّنة الحصول. فإذا رأينا أمراً مستحيل الحصول في نظرنا أعرضنا عنه، وإذا رأينا أمراً متوقَّعاً قد لا نقترب إليه لارتيابنا بحصوله، وإذا رأينا أمراً يسيراً في متناولِ أيدينا عزمنا عليه! وعسى أن تكون القضية معكوسة!

---

(١) رواه أحمد في مسنده برقم (٣٤٨) في كتاب مسند العشرة المبشرين بالجنة؛ وابن ماجه برقم (٤١٥٤) في كتاب الزهد؛ والترمذي برقم (٢٢٦٦) في كتاب الزهد عن رسول الله ﷺ. وقال هذا حديث حسن صحيح. (الناشر)

فلعلّ أمراً مستحيلاً في نظرنا وهو عند اقتحامه والثبات على مشكلاته دون أن يعترينا يأس بحصوله قد يتيسَّر لنا إنجازه، فكيف إذا كان متوقَّعاً أو متيقّناً؟! فعقباتهما أحرى بأن تزيدنا تهالكاً وسعياً لحصولهما والظفر بهما.. وألا ندخل في زمرة اليائسين من روح الله، واقرأ ما قال ابن الفارض في السعي رغم زهده وتصوّفه!:

كن صارماً كالوقتِ في كلٍّ ما عسى وإيـاكَ علـى فهـي أخطـر مـن عسـى

ونختم هذا البحث بحديث: «اعمل لدنياك كأنّك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنَّك تموت غداً»[1]، فهذا الحديث الشريف يمثّل الإسلام تمثيلاً حقيقياً رائعاً من حيث المادة والروح. فالإسلام يمثّل المادة والروح، وبهما تستقيم البشرية، فهذه مكانة العمل في نظر الإسلام.

* * *

(١) الحديث ضعيف، انظره في السلسلة الضعيفة [٨]. والمشتهر [الجبري] (٣٠، ١٠١) ونصيحة الداعي [مجموعة] ٢٨. وإن كان المعنى صحيحاً. (الناشر)

المبحث الثالث

موقف الإسلام من آفات المجتمع الثلاث

الإسلام شريعة الحياة ينظّم شؤون الدنيا، كما يدلّ على السعادة والفوز في الآخرة، فلا عجب أن يكون أفضل نظام جاء بعلاج (الفقر، والمرض، والجهل)، وهي آفات المجتمع، ومصادر الألم والبؤس للناس.

أولاً ـ الفقر:

لقد حارب الإسلام الفقر نظرياً، فجعله قرين الكفر، واستعاذ منه رسول الله ﷺ فقال: «إنّي أعوذ بكَ من الكفر والفقر». وحارب الفقر عملياً، فأوصى بالعمل والكسب فقال تعالى: ﴿ فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ [الملك: ١٥]؛ لأنَّ الفقرَ آفة المجتمع فيؤدي إلى المرض والجهل والمساوئ الخلقية، وهو القاضي على مقومات الأمة والباعث إلى استسلامها وانخذالها وإذلالها. ولذلك كافح الدين الإسلامي الفقرَ بوسائل فعّالة منوّعة لو اتُّبِعت لقضي عليه تماماً، ولما كان هناك تفاوتٌ كبيرٌ بين الطبقات؛ حيث تتمتّع الأقلية بالثراء الفاحش الفاجر غير المستغلّ لصالح المجتمع من جهة، وفقر مدقع وجوع مفزع تتضوّر منه الأكثرية الساحقة من جهة أخرى. فيحتم الإسلام إعطاء الفقير والبائس والمحروم ما يحتاجون إليه، من غذاء وكساء ومأوى ودواء وتعليم وتهذيب، وإعطاءهم ذلك من غير منٍّ ولا أذى، بذلك يزول الشقاء، ويُتمّ الله نعمته على الناس وتسودهم السعادة.

نظرة إسلامية: تقضي بأن تكون المرافق العامة ملكاً عاماً مشاعاً بين الناس جميعاً، وتحديد المرافق العامة متروك أمره للدولة الإسلامية، ولذلك وقع الخلاف على هذا التحديد منذ الصدر الأول للإسلام. فكان من بين أصحاب النبي ﷺ من يقول: كلَّ ما خلق الله مُلكاً مشاعاً ومرفقاً عاماً، ولذلك يجعلون شأن الأرض وما تحتويه شأن الماء والهواء، ولا يجوز تملّك شيء منه! وإنما يقع التملّك على الثمرات؛ ينال منها كلٌّ على قدر سعيه ومجهوده وكان منهم من لا يرون هذا الرأي ويقولون: يجوز تملك الأرض، ويعتبرونها من العروض التي

يقع عليها التبادل. على أنّ الاتفاق بينهم على قاعدة تقضي بأنه يجب على كل إنسان أن يبذل للجماعة كل كفاياته، ويجب على الجماعة أن تبذل لكلّ فرد منها ما يسدّ حاجاته، فلكل مسلم حق في أن ينال من بيت مال المسلمين ما يكفل حاجاته وحاجات مَن يعول ما دام لا يجد عملاً يرتزق منه، أو ما دام العمل الذي يزاوله غير كافٍ لرزقه ورزق عياله!.

وما أروع ما جاء به القرآن في هذا الصدد من آية تمثّل هذه القاعدة بكل معانيها، وهي بعدما تعدّد وسائل الإنفاق لصالح الطبقات الكادحة العاملة الفقيرة للترفيه عنها، ولرفع مستوى معيشتها؛ تأتي بالحكمة الداعية لذلك: ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾ [الحشر: ٧] تأمّل أيها الشباب المسلم! في كلمة ﴿دُولَةً﴾ وما فيها من معانٍ تدلّ دلالة واضحة على أنّ الدين الإسلامي يستنكر كلّ الاستنكار التفاوت الكبير بين طبقات المجتمع، فضلاً عن آياتٍ أخرى منبثة في القرآن الكريم تدعو إلى ترفيه المجتمع من حيث مستوى المعيشة بوسائل فعالة؛ كقوله تعالى: ﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ [الذاريات: ١٩]. ففكّر أيها القارئ في كلمة ﴿حق﴾ وما فيها من مغزى عظيم، حيث تقضي على الدولة المسلمة أن تسنّ قوانين وأنظمة فيها الضمانات الاجتماعية والاقتصادية لكلّ فرد من المجتمع يفتقر إلى العدالة الاجتماعية!!.

تأخذ الإنسان الدهشة إذ يرى هذه النظرة الإسلامية ويوازن بينها وبين ما ورد في الشرائع المختلفة. فالإسلام جاء بتفاصيل تشريعية في هذا الصدد هي خير ما وصل التشريع إليه في مختلف العصور، والتي هي جديرة بالإنسانية الكفيلة حقاً بإسعادها.

ثانياً ـ المرض:

حارب الإسلام المرض بأن بغّضه إلى الناس وأوصاهم أن يسألوا الله العافية. وفي دعاء رسول الله ﷺ: «اللهمَّ عافني في بدني، اللهمَّ عافني في سمعي، اللهمَّ عافني في بصري، لا إله إلا أنت»[1]، «اللهمَّ متّعنا بأسماعنا وأبصارنا

---

(١) رواه أبو داود برقم (٤٤٢٦) في الأدب؛ وأحمد في مسنده برقم (١٩٥٣٤) في أول مسند البصريين.

وقوّتنا ما أحييتنا»[١]. كما قرّر حقّ البدن فقال: «إنَّ لجسدك عليك حقاً»[٢]، ورسم للناس طرائق الوقاية بالنظافة التي جعلها ركناً من أركانه فقال: «بُني الدين على النظافة»[٣] وأوصى بالعادات الصحية الصالحة التي شرعها لمتّبعيه، ونهانا عن الشهوات القاتلة، من الخمر والزنى والمخدّرات والمفترّات، ونهانا كذلك عن العادات السيئة التي تضرّ بالصحة، كالسهر ونومة الصبح إلى غير ذلك من عوامل الوقاية ونواحيها.

والإسلام شرع الحجر الصحي للوقاية من العدوى، فقال رسول الله ﷺ: «إذا سمعتم به [الطاعون] بأرضٍ فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرضٍ وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه»[٤]، وشرع بعد ذلك العلاج، فقال: «يا عباد الله تداووا، فإنَّ اللهَ لم يضع داءً إلا وضع له دواءً إلا الهرم»[٥].

وما أروع ما جاء في القرآن الكريم من آيات بيّنات تدعو المسلمين إلى أن يكونوا أصحّاء أقوياء باتّباعهم الاعتدال في أكلهم وشربهم، وأن يتناولوا من الطعام الطيّب والشهيّ الذي يشتهونه، لأنّه أسرع تمثيلاً وأسهل هضماً، كما هو معروف في علم الصحة. فاقرأ قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف: ٣١]، ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ٥٧]. وجاء في الحديث: «المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء»[٦].

---

(١) رواه الترمذي في سننه برقم (٣٤٢٤) في الدعوات عن رسول الله ﷺ، وقال: هذا حديث حسن غريب. (الناشر)

(٢) رواه البخاري برقم (١٨٣٩) في كتاب الصوم؛ والنسائي برقم (٢٣٥٠) في كتاب الصوم. (الناشر)

(٣) لم أجده. مع أن هناك آيات وأحاديث تحث الإنسان المسلم وغيره على النظافة. (الناشر)

(٤) رواه مسلم في صحيحه برقم (٤١٠٨) في كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها. (الناشر)

(٥) رواه أبو داود برقم (٣٣٥٧) في كتاب الطب؛ وابن ماجه؛ وأحمد. (الناشر)

(٦) الحديث ضعيف، انظره في الأسرار المرفوعة [اللكنوي]، والاتقان [الغزي]، والغماز للسمهودي: ١/ ٢٦٧؛ والتذكرة [للزركشي]، وغيرهم. وإن كان المعنى صحيحاً. (الناشر)

ثالثاً ـ الجهل:

جاء في القرآن آيات كثيرة تندّد بالجهل والجاهلين، وتشيد بالعلم والعالمين؛ كقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾ [الزمر: ٦٤]، ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، ﴿ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٦].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [يوسف: ٢٢]، ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف: ٦٥]؛ اعتبر العلم رحمة. وقوله تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة: ١١]، ﴿ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ﴾ [النساء: ١٥٧]، ﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ [النجم: ٣٠]، ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الحج: ٣]، ﴿ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٣]، ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١١٩]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

أعتقد بأن ما جئنا به من الآيات الكريمة هذه تكفي لتقدير مكانة العلم واستنكار الجهل في الإسلام.

* * *

المبحث الرابع

حاكمية الشعب في الإسلام[1]

لحاكمية الشعب أثرٌ كبيرٌ، وشأنٌ عظيمٌ في إسعاد المجتمع البشري، والقرآن الكريم أمر المسلمين أن يتّبعوا في حكمهم (الديمقراطية الحية!) التي تمثّل حاكمية الشعب أحسن تمثيل، لقوله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢]، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [قٓ: ٤٥]، تأمّل! هذا للنبيّ المؤيَّد بوحيٍ من الله، فكيف إذا كان غير النبي؟! فالإسلام إذن يستنكر الحكم الاستبدادي والدكتاتوريات، بل إنه يحرمها تحريماً مطلقاً! وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، هذا للرسول المعزَّز بروح من الله، ومع ذلك فقد أمره تعالى بالتشاور، ثم انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]. فبهذه الآيات الكريمة يحتم الإسلام على كل دولة إسلامية أن تتبع في حكمها النظام الديمقراطي الشعبي.

* * *

---

(١) الحاكمية لا تكون إلا لله سبحانه وتعالى.
وأما موضوع الديمقراطية حقة أو غير حقة، فإنها مصطلح وافد على مجتمعنا، ولا لقاء بين هذا المصطلح والإسلام. فالديمقراطية شيء والإسلام شيء آخر.
كيف تلتقي الديمقراطية ومصدر التشريع فيها (الشعب) يعني قلة من الناس؟ بينما الإسلام مصدر التشريع فيه (الوحي) يعني كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.
كيف تلتقي الديمقراطية التي تحتكم إلى قوانين يضعها الناس؟ بينما الإسلام يوجب الاحتكام إلى الشرع الحنيف.
كيف يلتقي من كان مصدره العقل مع من كان مصدره الشرع.
ينبغي أن لا يفهم القارئ الكريم (منا) أن عدم قبولنا للديمقراطية (أو رفضها) أننا مع الدكتوريات. (الناشر)

المبحث الخامس

مكانة المرأة في الإسلام

لقد طال الجدل حول حقوق المرأة في الإسلام، وحسماً لهذه القضية الخطيرة، وتنويراً للأذهان، واطّلاعاً على مكانة المرأة العظمى في الإسلام، نأتي بما جاء في ذلك من آيات قرآنية صريحة، وأحاديث شريفة صحيحة واضحة، يطمئنّ بها المرء كلَّ الاطمئنان:

أولاً: إن الإسلام قد ساوى المرأة بالرجل من حيث الجنس؛ بدليل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ [النساء: ١]، وقوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

ثانياً: أكّد الإسلام صيانة حقوق المرأة الشخصية؛ بدليل قوله تعالى: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ ﴾ [الطلاق: ٦] أي: يطلب التوسّع عليهنّ في المعاملة، ويحرِّم ما يضرهنّ، فمن استقام على ذلك مع زوجته فهو المحسن المقيم لحدود ربه، ومن ضيّق عليها وضارّها بسوء خُلُقه وشراسة طبعه، فليس ذلك من الإسلام في شيء، وجاء في الحديث: «وخياركم خياركم لنسائهم»(١)، «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»(٢).

ثالثاً: منح الإسلام المرأة حقوقها الاجتماعية والاقتصادية؛ بدليل قوله تعالى: ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ﴾[النساء: ٣٢]،

---

(١) رواه الترمذي برقم (١٠٨٢) في كتاب الرضاع، وقال: هذا حديث حسن صحيح. (الناشر)

(٢) رواه الترمذي برقم (٣٨٣٠) في كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ، وقال: هذا حديث حسن غريب. (الناشر)

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وعلى ذلك فللمرأة أن تشتغل بالتجارة والزراعة والصناعة على حسابها الخاص.

رابعاً: ولم يكتفِ الإسلام بذلك، بل منح المرأة حقوقها المدنية والسياسية أيضاً؛ بدليل قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[التوبة: ٧١] لأنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي جاءت الآية بهما واجب يشمل كلّ ضروب الإصلاح في كلّ نواحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتشريعية.

فهذه الآيات الكريمة تكفي وحدها للدلالة الساطعة على أنّ القرآن وحيٌ من ربّ العالمين، لأنها جاءت قبل (١٤) قرناً في وقتٍ كانت المدنيات المعاصرة للدعوة المحمدية من فارسية ورومانية، تنظر إلى المرأة نظرة تحقير وإهانة، كسلعة تُباع وتُشرى، وتنكر عليها حتى حقوقها الشخصية والاجتماعية فضلاً عن حقوقها السياسية، وبقيت المرأة قروناً بعد ذلك، في المدنية الغربية، مقيدةً بتلك الأغلال حتى العصور الأخيرة!.

أجل! جاء القرآن بتلك الآيات الكريمة في وقتٍ أنكروا على المرأة كلّ حق، صارخاً في وجه العالم المتمدّن وغير المتمدّن، بحقوقها كاملةً سواء مع الرجل!.

فما كان لمحمد ﷺ ـ مهما كان عبقرياً ـ أن يجرؤ ويتحدّى العالم كلّه بتلك البيّنات الباهرات ما لم تكن وحياً من ربّ العالمين!.

وانظر أيها القارئ إلى الحديث الشريف: «إنّما النساءُ شقائقُ الرجال»[١]، «حُبِّبَ إليَّ من دنياكم ثلاث: النساء، والطيب، وجُعِلَت قرّة عيني في الصلاة»[٢] بلغ الحديث الشريف من السمو: أن جعل النساء في وزنٍ واحدٍ من حبه مع الطيب والصلاة!!.

---

(١) رواه الترمذي برقم (٢٠٤) في كتاب الطهارة؛ وأحمد في مسنده برقم (٢٤٩٩٩) في كتاب باقي مسند المكثرين. (الناشر)

(٢) رواه النسائي برقم (٣٨٧٨) و(٣٨٧٩) في كتاب عشرة النساء؛ ولكنه بلفظة: «حبب إليّ النساء، والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة».

وجاء في حديثٍ آخر: «الجنّة تحت أقدام الأمهات»[1]، فما أروع هذا الحديث، فالقصدُ من الجنّة في الحديث، لا الجنة في الآخرة التي وُعِدَ المتقون بها فحسب، بل إن الجنة في الدنيا أيضاً. فبإمكان الأمهات وحدهن أن يُنْشِئنَ نشأ (جيلاً) يغيّر المجتمع الإسلامي تغييراً جوهرياً، فيدفعه دفعاً إلى ما فيه العزّ والكرامة والسؤدد، وإلى المثل العليا، إلى حياة هانئة فاضلة رفيهة، إلى العدل الاجتماعي والاقتصادي بحيث يرفل المجتمع الإسلامي في بحبوحة من النعيم والسعادة، ولا يتسنّى ذلك كلّه إلا بعناية الأمّهات، واهتمامهنّ بتربية أولادهن تربيةً صحيحةً إسلامية من وجهة مادية ومعنوية وصحية وأخلاقية.

فيكفي للأمهات فخراً وشرفاً وعزّاً أن تكون جنّة الدنيا والآخرة تحت أقدامهنّ وحدهنّ دون الآباء من الرجال فيما إذا قمن بواجباتهنّ، ويعلمنا التاريخ نماذج ممتازة للنساء في بطولتهنّ وفي مساهمتهنّ مساهمةً فعّالةً في الشؤون الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، مما دلّ على قابليتهنّ العظيمة، وتفوّقهنّ في ذلك على كثيرٍ من الرجال!.

وما أحسن ما قاله أبو الوفا المراغي في حق المرأة؛ قال: «المرأة منشئة الأجيال، وصانعة الرجال، وهي الرائد: إما إلى حياة كريمة، وإما إلى حياة عليلة سقيمة، فإذا استقام شأنها استقام شأن الأمة، فبتماسكها في خلقها وحزمها في تربية أبنائها تتماسك الأمة ويستمكن بنيانها».

وهنا يتبادر إلى الذهن السؤال التالي: هل للمرأة في وضعها الحاضر والظروف التي تحيط بها؛ تجيز لها أن تمارس حقوقها السياسية التي منحها الإسلام لها!.

فأحسن ما قرأته في هذا الصدد ما جاء في كتاب (المرأة) للأستاذ (البهي الخولي) نقتبس منه بتصرّف ما يلي:

«ليس هناك ما يمنع المرأة، أو مَن يمنعها من ممارسة هذا الحق. فهو حقّ

---

(١) الحديث ضعيف، انظره في السلسلة الضعيفة: ٢/ ٥٩٣؛ وضعيف الجامع: ٢/ ٢٦٦٦؛ والتمييز [لابن البديع] وكشف الخفاء [للعجلوني] وغيرهم. (الناشر)

قرَّره الإسلام ومارسته المرأة المسلمة على نطاق واضح في أيام الخلفاء الراشدين، أي خلال الحقبة التي قام بها الصحابة رضوان الله عليهم بوضع تقاليد الحياة الإسلامية في الاجتماع والسياسة والآداب ونحوها، وقد كانت أمهات المسلمين يبدين آراءهنّ في سياسة الخلفاء.

وبما أنّ للمرأة ـ في نظر الإسلام ـ أن ترى ما تشاء من الآراء السياسية، وأن تُعارض وتؤيّد ما تشاء من سياسة ولي الأمر، بل لها الاعتراض على اختيار شخصه إذا رأت فيه ما يوجب الاعتراض، فهل يُتاح لها في ظلّ أوضاعنا الحالية ـ من سياسية واجتماعية وتشريعية ـ أن تستعمل هذا الحق الذي منحها الإسلام لها، وأن تباشره في ميدان الانتخاب ودار البرلمان؟![1] ولا يجوز في الإجابة عن هذا السؤال أن نجعل النظر مقصوراً على الحق السياسي الذي قرّره الإسلام للمرأة، بل لا بد من ملاحظة صلاحية المرأة نفسها ـ وهي على حالتها الراهنة ـ لأداء هذه الأمانة، والاضطلاع بأعباء هذا الحق، ولا بد إلى جانب ذلك من الاستئناس بملائمة الظروف الاجتماعية والاقتصادية والخلقية.

فإذا كانت المرأة المسلمة مبتذلة غير أمينة على فضائلها ومقدّساتها الروحية؛ فليست أهلاً لأن يُقام لها اعتبار كما يقام لسواها من الفضليات، والإسلام الحنيف يسقط الاعتبار الأدبي للرجل والمرأة، ويهدر شهادة كل منهما إذا كانا مجاهرين بصغار الذنوب! فأولى ثم أولى أن يهدر اعتبار المرأة أدبياً، وأن تردّ عن مقاعد البرلمان التي هي أجلّ خطراً من الشهادة وأبعد أثراً في حياة الأمة، ـ إذا كانت المرأة من اللائي يتبرّجنَ بالزينة الفاتنة في الشوارع، ويغشين دور المنكر للخمر والميسر والمراقصة والمفاخذة شبه عاريات ـ فإن التي لا تصون شرفها ليست أهلاً لأن تصون مقدّسات سواها، والتي تتولى بنفسها إهدار وجودها الأدبي وكيانها الشريف، ليس لها أن تحتجّ أو تغضب إذا أحلّها غيرها المنزلة التي رضيتها لنفسها».

---

(١) لما بلغ رسول الله ﷺ أن أهل فارس قد ملّكوا عليهم بنت كسرى، قال ﷺ: «لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة» رواه البخاري برقم (٤٠٧٣) في كتاب المغازي؛ والنسائي وأحمد. (الناشر)

شروط التوظيف في الإسلام:

وبالجملة إنّ الإسلام قرّر للرجل والمرأة حقّهما السياسي على شرط أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، ويطيعوا الله ورسوله، كما جاء في الآية الكريمة الآنفة الذكر، فتتطلب الوظيفة (مهما كان نوعها ومكانتها) المعرفة أولاً، والإخلاص ثانياً. ونعني بالمعرفة: ما تقتضيه الوظيفة من كفاءة علمية وفنية للقيام بها على الوجه الأكمل، ونعني بالإخلاص: النزاهة والعفّة والتقوى والشعور بالواجب، وإتقان العمل، وجاء في الحديث: «رحم الله امرأً عمل عملاً فأتقنه»[1]، وإلا فلا حقّ ولا حقوق لرجل أو امرأة أن يُؤْتَمنا على وظيفة مهما قلّ شأنها، إذا ما حادا على الطريق السوي الذي خطّه الإسلام لهما؛ من معرفة وإخلاص، ولم يكونا أهلاً لها، وقد جاء في قوله تعالى: ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ [النساء: ٥٨]؛ ومن أهم الأمانات هي الوظائف في الدولة المسلمة أجل إلى أهلها، إلى من تحلى بالمعرفة والإخلاص كما ذكرنا آنفاً. وجاء في الحديث: «إذا وُسِّدَ الأمرُ إلى غير أهله فانتظر الساعة»[2]، أي: فانتظر الفوضى والاضطراب، ثم الانهيار في تلك الدولة!! «ولا طاعة لمخلوق في معصية الله عزَّ وجلّ»[3].

فندعو ـ مخلصين ـ نساءنا؛ وخاصةً منهنّ المتعلّمات والمثقّفات، أن يكنَّ أهلاً لما منحهنّ الإسلام من حقوق شاملة، بأن يكنّ مسلمات حقاً وصدقاً في كلّ مظهر من مظاهر الحياة كما أراد الإسلام لهنّ!!.

* * *

(١) لم أجده بهذه اللفظة ولكن يوجد: «إذا عمل أحدكم عملاً فليتقنه» رواية ضعيفة. انظرها في ضعيف الجامع: ١/ ٥٩٩. والمعنى صحيح. (الناشر)

(٢) رواه البخاري برقم (٥٧) في كتاب العلم؛ وأحمد برقم (٨٣٧٤) في مسند المكثرين. (الناشر)

(٣) رواه أحمد في مسنده برقم (١٠٤١) في كتاب مسند العشرة المبشرين بالجنة. (الناشر)

المبحث السادس

الإسلام دين الحق

قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ [البقرة: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [البقرة: ١١٩].

وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ [البقرة: ١٤٤].

وقال تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٢].

وقال تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [آل عمران: ٣].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [النساء: ١٧٠].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ [يونس: ٥٣].

وجاءت آيات كثيرة من هذا القبيل كلها تنطق بأن الإسلام هو دين الحق.

وتأمّل أيها القارئ الكريم ملياً سورة العصر التالية:

﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [العصر].

إذا تدبَّرتَ هذه السورة لرأيتها جامعة مانعة، حتى قال بعض علماء الإسلام عنها: إنها تكفي وحدها لأن تمثّل الإسلام تمثيلاً حقيقياً؛ لأنك تتصور في ذهنك ـ على ضوئها ـ مجتمعاً يؤمن بالله حقاً وصدقاً، ويعمل كلّ فردٍ منه صالحاً يعود عليه وعلى مجتمعه بالخير الشامل، ولم يكتفِ هذا المجتمع بالعمل الصالح، بل

إن أفراده يوصي بعضهم بعضاً باتّباع الحق في الأقوال والأعمال، كيلا يحيد واحد منهم عن الحق في كلّ ما يتعلّق بمشاكل الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وكذلك يتواصوا بالصبر والثبات في كل الملمّات، ومقارعة الخطوب بحزم قويم وعزم عظيم، أجل تصوّر أيها القارئ الكريم مجتمعاً كهذا، كيف أنه يحيا حياة مثالية هانئة سعيدة مطمئنة! وهكذا يريد الإسلام أن يكون المجتمع الإسلامي متقدّماً راقياً في كلٍّ من مظاهر الحياة المادية والروحية.

وبعد: **(فما هو الحق في الإسلام؟)**:

يتناول الحق كل ما جاء في الإسلام من معتقدات وعبادات ومعاملات، والتي تشمل العدالة الاجتماعية والاقتصادية بكل معانيها، فالحق في الإسلام هو ما يعود على المجتمع الإسلامي بالخير والنعيم والحياة الرفيهة الهانئة في الدنيا والآخرة، فالإسلام جاء بالتكافل الاجتماعي وهو حق، وجاء بنظام اقتصادي عالج فيه الفقر معالجةً فعّالةً للقضاء عليه تماماً وهو حق، ومثال ذلك: عهد عمر بن عبد العزيز العادل الأموي الذي طبّق النظام الاقتصادي والعدل الاجتماعي في الإسلام تطبيقاً كاملاً، كان من شأنه أن انعدم الفقر في دولته المترامية الأطراف، الممتدة من جبال (بيرنه) على حدود فرنسة الجنوبية، والمحيط الأطلسي غرباً، حتى حدود الصين شرقاً، فلم يجدوا في هذه الدولة الواسعة فقيراً يستحقّ الزكاة! هذا هو الحق الذي لا ريب فيه.

ولو نُفّذ هذا النظام الإسلامي كاملاً في الدول الإسلامية اليوم لانعدم الفقر فيها أيضاً، وكذلك لو طُبّقَ هذا النظام الاقتصادي الإسلامي لقضي على الفروق الكبيرة بين الطبقات من حيث الثراء، وهذا حق أيضاً.

وجاء الإسلام بتحريم الاحتكار والربا لإنقاذ المجتمع الإسلامي من المظالم الاقتصادية، وهذا حق، وجاء الإسلام بالحرية كما صرخ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بوجه عمرو بن العاص: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً» وهذا حق.

وجاء الإسلام بالمساواة والإخاء والتراحم والتعاطف والتعاون بين البشر قاطبة، وهذا حق.

وحكَّم الإسلامُ العقلَ في كلِّ شيء، وجعله مناراً يهدي به إلى الحق!.

وجاء الإسلام بمعتقدات وعبادات ـ كما رأيت في هذه الرسالة ـ تهذب النفس الإنسانية، وتعدل الغرائز الحيوانية، لتكون النفس زكية مطمئنة، وهذا حق.

وبالجملـة جاء الإسـلام بمُثُلٍ عليا كما بيّناها في هذه الرسـالة، يجعل المجتمع الإسلامي مثالياً يرفل في بحبوحة من النعيم والسعادة وكلها حق!.

والخلاصة: **إن ميزان الحق هو الصدق والعدل وتوخي الحكمة في كلِّ شيء!.**

* * *

المبحث السابع

الإسلام دين الخير

فلنقرأ الآيات الكريمة التالية لنعلم منها أن الإسلام يدعو إلى الخير بكلّ ما في هذه الكلمة من معانٍ!.

قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٢٧].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[الأعراف: ٨٥].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٦].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ [ص: ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة ٢٦٩]

وقوله تعالى: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [آل عمران: ١١٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [المائدة: ٤٨]

وقوله تعالى: ﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾ [النحل: ٣٠].

والحقيقة التي لا مِراءَ فيها: أن القرآن الكريم - بدليل الآية الأخيرة - جاء

بالخير الشامل للأمة الإسلامية فيما لو اتّبعت أحكامه الحنيفة، وجاء في الحديث: «قل الخير وإلا فاسكت»[1].

ما هو الخير في الإسلام:

الخير في الإسلام مادي وروحي:

أما المادي: فهو أن تستخدم العلوم والمخترعات والمكتشفات كلها في تسخير ما في الأرض من مادة بمعناها الشامل، بما يتعلّق بها من مرافق طبيعية واستغلالها كلها في سبيل السعادة البشرية، وترفيه المجتمعات الإنسانية، وشمول هذا الترفيه المادي كل فرد اجتماعياً واقتصادياً وصحياً وعلمياً. هذا هو ما يريده الإسلام من الخير المادي: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحج: ٦٥]، ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [لقمان: ٢٠]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [الجاثية: ١٣].

أما الروحي: فيتناول التعاون والتكافل الاجتماعي والاقتصادي بين الأفراد على أساس الفضيلة؛ من عفّة ونزاهة وأمانة وصدق واستقامة، على أن تهدف كلها إلى الصالح العام، هذا هو الخير الذي يريده الإسلام! ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].

* * *

(١) لم أجده. (الناشر)

المبحث الثامن

الإسلام دين الطيبات

قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ﴾ [المائدة: ٤].

وقوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: ٩٧].

وقوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ﴾ [المائدة: ٥].

وقوله تعالى: ﴿ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ﴾ [النور: ٢٦].

وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وقوله تعالى: ﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ [المائدة: ٨٨].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [المائدة: ٨٧].

وقوله تعالى: ﴿ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ ﴾ [طه: ٨١].

وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ [البقرة: ١٦٨].

وقوله تعالى: ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ﴾ [النحل: ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٤].

ما هو الطيب؟:

الطيب في الإسلام مادي وروحي:

المادي: يتناول كل مظاهر الحياة الطيبة في المأكل والمشرب والمسكن واللباس، وكذلك الأناقة والرشاقة مع القوة والنشاط في البدن، وكل ذلك يؤدي إلى صحة كاملة وحياة هانئة.

الروحي: المسلم الحقّ من تتفجَّر منه الطيبات إلى الناس تفجيراً في كلِّ أقواله وأعماله، ولا ينال الناس منه إلا الطيّب، ولا يصدر منه إلا العمل الصالح الذي يرضاه الله.

* * *

المبحث التاسع

الإسلام دين الحب

قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣].

وقوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

وقوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وجاء في الحديث: «ولا تؤمنوا حتى تحابّوا»[١].

---

(١) رواه مسلم برقم (٨١) في كتاب الإيمان؛ والترمذي برقم (٢٤٣٤) في كتاب صفة القيامة والرقائق. (الناشر)

وقال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبّ لنفسه»[1]، «أحبَّ للناس ما تحبّ لنفسك»[2]، «أفضل الأعمال بعد الإيمان بالله: التودّد إلى الناس»[3]، «الخلقُ كلّهم عيالُ الله، أحبّهم إلى الله أحبّهم لعياله»[4]. وفي رواية أخرى: «أنفعهم لعياله»[5].

ففكّر أيها القارئ الكريم ملياً في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، وخاصةً الأخير منها، كيف تدعو إلى حب كل مخلوق بصرف النظر عن جنسه ونوعه ولونه ودينه ومذهبه، فجعل المخلوقات في العالم كلها كأسرة وعائلة واحدة، فيا للروعة والسمو.

* * *

---

(١) رواه البخاري برقم (١٢) في كتاب الإيمان، ومسلم والترمذي وغيرهم. (الناشر)

(٢) رواه الترمذي برقم (٢٢٢٧) في كتاب الزهد وقال حديث غريب؛ وابن ماجه، وأحمد. (الناشر)

(٣) الحديث ضعيف، انظره في السلسلة الضعيفة: ٣/ ١٣٩٥؛ وفي ضعيف الجامع: ١/ ٩٩٩. (الناشر)

(٤) الحديث ضعيف، انظره في السلسلة الضعيفة: ٣/ ١٩ و٤/ ١٩٠؛ وفي التذكرة [الزركشي]: ١/ ١٩٥ وغيرهم. (الناشر)

(٥) الحديث ضعيف، انظره في المشتهر [الجبري] وفي ضعيف الجامع: ٢/ ٢٩٤٦. وغيرهم. (الناشر)

المبحث العاشر

الإسلام دين الجمال

أجل إنّ الإسلام ليمثّل الجمال المادي والروحي تمثيلاً حقيقياً رائعاً. فالجمال المادي يطلبه الإسلام في النظافة الشاملة، والطهارة الكاملة في البدن والثوب والمطعم والمشرب والمظهر والمسكن، وفي المدينة والريف، وفي الطريق وفي المدرسة، وفي المخيم والنوادي، والمحلات العامة، والجوامع والمساجد، وفي كل شيء عليه مظهر الإسلام، أما الجمال الروحي فيطلبه الإسلام في تزكية النفس: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]، بأن تتحلّى بالأخلاق الكريمة والفضائل القويمة، بأن يكون المسلم عفّ اللسان واليد: «المسلم من سَلمَ المسلمون من لسانه ويده»[1]، وبأن يتصف بنزاهة الضمير وسلامة التفكير، وأن يكون صادقاً في قوله وعمله، مستقيماً في معاملاته.

فلنقرأ ما جاء في الإسلام في الجمال المادي:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦].

قال تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤]، وقال سبحانه: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ﴾ [المائدة: ٦]، وقال تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦].

وجاء في الحديث: «أحسنوا لباسكم، وأصلحوا رحالكم، حتى تكونوا

---

(١) رواه البخاري برقم (٩) في كتاب الإيمان؛ ومسلم برقم (٥٨) في كتاب الإيمان؛ والترمذي، وغيرهم. (الناشر)

كأنكم شامة بين الناس»[1].

وجاء في الحديث: «تنظفوا حتى تكونوا كالشامة بين الأمم»[2]، «بُنيَ الدين على النظافة»[3].

وجاء في الحديث: «مفتاح الجنة الصلاة، ومفتاح الصلاة الطهور»[4]، «من كان له شعر فليكرمه»[5].

ولنقرأ ما جاء به الإسلام في الجمال الروحي، أي الخلق الكريم:

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩ ـ ١٠] وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وقال تعالى ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]. وقد ذكر القرآن صفات عباد الرحمن في سورة الفرقان التي تبيّن أخلاقهم وما هم عليه من فضائل، ليتّخذ الإنسان من ذلك وسيلة للاتصاف بهذه الصفات! كما جاء في القرآن آيات كثيرة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؛ قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المجادلة: ٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وجاء في الحديث: «أكمل المؤمنين أحسنهم خلقاً»[6]، «البر حسن

---

(١) الحديث ضعيف، انظره في ضعيف الجامع: ١/٢٠٦. (الناشر)

(٢) لم أجده، وإن كان المعنى صحيحاً. (الناشر)

(٣) لم أجده، وإن هناك آيات وأحاديث تحثّ على النظافة والتجمل. (الناشر)

(٤) رواه الترمذي برقم (٤) في كتاب الطهارة عن رسول الله ﷺ؛ وأحمد في مسنده برقم (٤١٣٥) في كتاب مسند المكثرين. (الناشر)

(٥) رواه أبو داود في سننه برقم (٣٦٣٢) في كتاب الترجل. وانفرد به أبو داود. (الناشر)

(٦) رواه الترمذي في سننه برقم (١٠٨٢) في كتاب الرضاع؛ وأحمد؛ والدارمي. (الناشر)

الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطّلع عليه الناس»[١]، «البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما لم تسكن إليه النفس ولم يطمئن إليه القلب»[٢]، «أفضل الإيمان البر والسماحة»[٣]، «ألا أخبركم بمن تحرم عليه النار، على هيِّن قريب سهل»[٤]، «صِلْ من قطعك، وأحسن إلى من أساء إليك، وقل الحق ولو على نفسك»[٥]، «السكينة مغنم، وتركها مغرم»[٦]، «الرفق رأس الحكمة»[٧]، «ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا نُزع في شيء إلا شانه»[٨].

* * *

---

(١) رواه مسلم برقم (٤٦٣٢) في كتاب البر والصلة والآداب؛ والترمذي، وأحمد، والدارمي. (الناشر)

(٢) رواه أحمد برقم (١٧٠٧٦) في كتاب مسند الشاميين. (الناشر)

(٣) لم أجده. (الناشر)

(٤) رواه أحمد برقم (٣٧٤٢) في كتاب مسند المكثرين من الصحابة؛ والترمذي برقم (٢٤١٢) في صفة القيامة والرقائق، واللفظ له. (الناشر)

(٥) الحديث ضعيف، انظره في كشف الخفاء [العجلوني]: ٢/ ١٦٢٧؛ وذخيرة الحفاظ [لابن القيسراني]. (الناشر)

(٦) الحديث ضعيف، انظره في النافلة [الجويني]: ٢/ ١٢٤، وضعيف الجامع: ٢/ ٣٣٤٦. (الناشر)

(٧) الحديث ضعيف، انظره في السلسلة الضعيفة: ٤/ ١٥٧٤؛ وضعيف الجامع: ٢/ ٣١٥٩، وغيرهم. (الناشر)

(٨) رواه مسلم في صحيحه برقم (٤٦٩٨) في كتاب البر والصلة؛ وأبو داود، وغيرهم. (الناشر)

المبحث الحادي عشر

الإسلام دين السلام

قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨].

وقوله تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٦].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وقوله سبحانه: ﴿۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١].

هذا ويكفي الإسلامَ فخراً ومثالاً أعلى أن تكون تحية معتنقيه من المسلمين (السلام)[1].

* * *

---

(١) وصيغتها: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. (الناشر)

المبحث الثاني عشر

الإسلام دين الوحدة

قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ريحكم: أي قوتكم ودولتكم. وقوله تعالى: ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ [التوبة: ٥٦]، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٥٩] ﴿ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ﴾ [الروم: ٣١ ـ ٣٢]، ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٦]، ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، حبل الله: أي عهد الله. ﴿ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣].

وجاء في الحديث: «مَنْ فارقَ الجماعةَ شبراً، قد خلع ربقة الإسلام من عنقه»![١] وقال عليه الصلاة والسلام: «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً»[٢]، وقال: «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد؛ إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[٣].

وإن هناك مرجعين للمسلمين كفيلين بصون وحدتهم من أن ينالها ذرّة من

---

(١) رواه أبو داود في سننه برقم (٤١٣١) في كتاب السنة؛ وأحمد برقم (٢٠٥٨٠) في كتاب مسند الأنصار. (الناشر)

(٢) رواه البخاري برقم (٤٥٩) في كتاب الصلاة؛ ومسلم برقم (٤٦٨٤) في كتاب البر والصلة والآداب، وغيرهم. (الناشر)

(٣) رواه البخاري برقم (٥٥٥٢) في كتاب الأدب؛ ومسلم برقم (٤٦٨٥) في كتاب البر والصلة والآداب، واللفظ له. وغيرهم. (الناشر)

الضعف، هما: كتاب الله، وسنّة رسوله عليه الصلاة والسلام، ولا يتمرّد على هذين المرجعين إلا مارق من الإسلام، أو منافق يضمر له كيداً.

قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ۝٥٩ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ۝٦٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا﴾ [النساء: ٥٩ ـ ٦١]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٥].

وجاء في الحديث: «تركتُ فيكم أمرين لن تضلّوا ما تمسّكتم بهما: كتابُ الله، وسنّة نبيّه»[١].

فعلى ضوء ما قلنا آنفاً؛ يجب على المسلمين أن يتمسّكوا بالوحدة إن أرادوا العزّة والكرامة والحرية والاستقلال، فإلٰههم واحد، ومعتقداتهم واحدة، وعباداتهم واحدة، وكتابهم واحد، وقبلتهم واحدة، وأمتهم واحدة، فعلام إذن الاختلاف والتفرّق؟! وأعداء الإسلام يتربّصون بالمسلمين الدوائر، ولم ينفكّوا في الكيدِ بهم والقضاء على كرامتهم وحريتهم، وإلقاء سموم التفرقة فيما بينهم، حتى تسنّى لهم استغلال ثرواتهم، ونهب مرافقهم، واستعبادهم اقتصادياً وسياسياً، وحتى فكرياً وروحياً!.

أما آن للأمة الإسلامية ـ وخاصة منها الأمة العربية ـ أن تتنبّه، فتتكاتف وتتعاضد، وتكون وحدة رصينة لا انفصام لها كما أمرها الله، لتكون عزيزة مرهوبة الجانب. وهذا القرآن يصرخ في وجوههم في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ [الأنفال: ٢٤]، يدعوكم القرآن إلى حياة عزيزة كريمة حرة! فهل من يسمع؟!.

* * *

---

(١) رواه الإمام مالك برقم (١٣٩٥) في كتاب الجامع. (الناشر)

المبحث الثالث عشر

الإسلام، الدين العالمي

قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٧٩].

* * *

المبحث الرابع عشر

المسلمون اليوم

إن غير قليل من الناس الذين يريدون الكيد للإسلام، يخدعون الناشئة الإسلامية الغرة بأقوالٍ هي والحقُّ على طرفي نقيض، وذلك ليستهين الشباب المسلم في دينه، فيقولون: إن الدين الإسلامي كما جاء في القرآن الكريم هو دين الحقّ عند الله حسب الآية الكريمة: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩]. وعلى الرغم من ذلك نرى الأمة الإسلامية بصورة عامة في مؤخّرة الأمم الأخرى النصرانية، فلو كان الدين الإسلامي عند الله هو الحق وهو المفضَّل على سائر الأديان كما يزعم المسلمون، لما كان الله ليجعل معتنقي هذا الدين في هذا الانحطاط الشائن في كلٍّ ناحية من نواحي المدنية، ومعتنقي الدين النصراني هم الذين يسيطرون مادياً وعلمياً وأدبياً على العالم الإسلامي الآن، وحتى اليهود الذين هم شرذمة مشتتة مشردة في العالم تمكّنوا من تأسيس دولة لهم على مرأى ومسمع من الأمة الإسلامية في قلب البلاد العربية، وذلك على الرغم مما جاء في القرآن الكريم في حقّ اليهود، مثل قوله تعالى: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٦١]. فأين هذا من ذاك؟!.

وإن إسرائيل بلغت بها الجرأة إلى حد أن أخذت في إذاعتها تردّد الآية المذكورة بين حين وآخر متحدّيةً الأمة الإسلامية، قاصدة بذلك أنَّ ما جاء في القرآن في هذا الصدد كذب وبهتان، بل القضية بالعكس، إن الأمة الإسلامية؛ ومنها خاصة الأمة العربية، هي التي ضُربت عليها الذلّة والمسكنة وباءت بغضبٍ من الله، وتزعم الإذاعة اليهودية أنَّ هذا دليل على أن ما جاء به القرآن من هذا القبيل لا حقيقة له! إذن فما قيمة الآيات القرآنية والدين الإسلامي بعد هذا؟!

أيها القارئ الكريم، تأمَّل ما سنبيّنه لك من الجواب على ذلك بصورة موجزة يطمئنّ إليها كل ذي بصيرة:

أولاً ـ إن الله رب العالمين لا رب أمة دون أخرى، فأوحى لرسله الأديان

المعروفة لإرشاد البشر إلى طريق الهدى والفضيلة ليسعدوا في الدارين، وأتى بآيـات تتواءم مع السنن الطبيعية والفطرة البشرية، فمن حاد عنها ضلَّ سـواء السـبيل، فيكون مصيره الشـقاء والتعاسة، ومن اتّبع تلـك السنن فاز بسـعادة الدارين، وقد نبّه القرآن الكريم في كثيرٍ من آياته إلى أنه لا سعادة ولا هناء ولا كرامة ولا عزّة ولا سيادة للمسلمين المؤمنين فيما إذا لم يتمسّكوا عملياً بدينهم القويم الخالد، وكانوا هم وتلك المبادئ السامية على طرفي نقيض!.

فالإسلام: درّةٌ تتلألأ منها الأنوار التي تخطف الأبصار، ولكن أهلها لم يقدروها حقّ قدرها، فغلفوها بغلاف مشوَّه داكن، فحجبوا أنوارها عنهم وعن العالم، وصدقَ مَن قال: إنّ الإسلام محجوبٌ بالمسلمين!![1].

ثانيـاً: أما علمتَ من التـاريخ أنَّ كارثة فلسطين اليوم لم تكن الأولى في التاريخ، بل هي الثانية، ولكن الكارثتين تختلفان في المظهر، وتتفقان في الجوهر، وتتقارب حالة الأمة الإسلامية في كلتا الكارثتين:

الكارثـة الأولى: في القرن الحادي عشـر الميلادي كـانت الدويـلات الإسلامية التي انبعثت من الإمبراطورية السلجوقية التركية المنهارة!! تتقاتل فيما بينها على الزعامة والحاكمية، حتى تجرّأ الأوروبيون على الحروب الصليبية التي كانت من نتيجتها أن سيطر المسيحيون على سورية وفلسطين، وبقيت الحروب مستعرة مدّة قرنين في فترات متقطّعة، ولم ينقذ فلسطين إلا(صلاح الدين الأيوبي) ومَن جاء بعده من ملوك مصر، وذلك بعدما تكتّل المسلمون حينما شعروا بالخطر الداهم!.

أما الكارثة الثانية: فهي استيلاء اليهود على فلسطين حوالي منتصف القرن العشرين عام (١٩٤٨م) كما هو معروف، وذلك لما كانت عليه الدويلات العربية المنبعثة من الإمبراطورية العثمانية المنهارة! من تخاذل وضعف مهينين بصرف النظر عن معاضدة الدول المعظّمة الغربية والشرقية إلى اليهود! جزاءً لتخاذل العرب!.

---

(١) قد يقصد أدعياء الإسلام من المسلمين. (الناشر)

كارثة أخرى: وبهذه المناسبة لا بدّ أن نذكر كارثة عمّت العالم الإسلامي كله تقريباً، وكانت أدهى وأمرّ من الكارثتين الآنفتي الذكر، وهي جموع المغول الكاسحة بزعامة (جنكيزخان)، وأحفاده (هولاكو وتيمورلنك) في القرن الثالث عشر الميلادي والرابع عشر الميلادي، حيث يذكر التاريخ: أنّ هذه الغزوة اكتسحت العالم الإسلامي اكتساحاً أتت على الحرث والنسل؛ من حدود الصين شرقاً حتى الأناضول وسورية غرباً، وقتل وشرد فيها ملايين من المسلمين، وقضي على آخر ما بقي من المعالم المدنية الإسلامية الزاهرة، والعامل الوحيد في هذه الكارثة أيضاً هو التناحر بين الدويلات الإسلامية المنبعثة من الإمبراطورية العباسية المنهارة! والانحلال الأخلاقي الفظيع بين المسلمين، والتنصّل من مبادئ الدين الإسلامي، وليس الله بظلاّم للعبيد. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢] فلو كان العالم الإسلامي وحدة متراصّة، وعلى قوّة رهيبة كما جاء في القرآن: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]؛ لما تجرّأ عليه أعداؤه، ولما كانت هذه الكوارث الثلاث تنصبّ عليه صبّاً، ولكان التاريخ غيّر مجراه!.

ثالثاً: إنَّ اليهود مرّ عليهم ما يزيد على ألفي سنة وهم مشرّدون في العالم، مضطهَدون محقَّرون في كلِّ بلدٍ عاشوا فيه، وقد كانوا في هذه الحقبة الطويلة في ذلّة ومسكنة لا مثيل لهما، نسبةً إلى الشعوب الأخرى، كما نطقت الآية الكريمة الآنفة الذكر، فالآية تمثّل الواقع والحقيقة لما كان عليه اليهود من حالة ذليلة، والتاريخ أنصع دليل على ذلك، ولكن هذه الاضطهادات والمذابح التي تناولت اليهود في أحقاب التاريخ، وخاصة منها أوروبة حتى القرون الأخيرة، أجل إن هذه النكبات المتوالية عليهم تركت فيهم عقدة نفسية بأن يضمروا العداء لكلّ إنسان غير يهودي، ويتحيّنوا الفرص للانتقام منه بأية وسيلة كانت، ثم إنّ هذه الاضطهادات حفّزتهم للعمل المتواصل لأن تكون لهم مكانة في المجتمع الذي يعيشون فيه، ولذلك منذ ألفي سنة وهم في (ثورة صامتة) دون كلل وملل، فأجمعوا أمرهم بينهم على الأمور التالية:

أ ـ اقتناء الثروة عن أي طريق كان حتى تكون لهم السيطرة الاقتصادية على البلاد التي يعيشون فيها، لعلمهم أنّ المال هو عصب الحياة، يتمكّنون به أن

يشتروا الذمم، وأن يسيِّروا الحكومات كما شاءت رغبتهم ومصالحهم.

ب ـ أن ينكبُّوا على تحصيل العلوم والفنون، وبالفعل سيطروا سيطرة علمية وفنية فضلاً عن الاقتصادية في العالم، وقلّما نجد فيهم الأميّ غير المتعلّم، وقد ظهر فيهم علماء فطاحل، وفي الواقع: إنّ الأمة التي ترتكز حياتها على ركائز ثلاث وهي: (العلم والمال والعمل) لا بد أن تنال ما تبتغيه من بسطة وقوة في هذه الدنيا، بصرف النظر عن دينها ومذهبها!!.

ج ـ أن يكون هدفهم واحداً؛ وهو السعي بكل الوسائل المادية والأدبية إلى إعادة مجدهم التاريخي المزعوم، وتكوين دولة إسرائيلية لهم في فلسطين، وتلقين شبابهم القومية اليهودية، والتمسك بها تمسّكاً شديداً، وأن يبذلوا الغالي والرخيص في سبيل تقويمها، والتطلّع دائماً إلى ذلك اليوم الموعود لتأسيس كيان دولة لهم في أرض الميعاد، والتهيّؤ لذلك بكل الوسائل المادية والأدبية والدعاية لها في العالم الغربي، وخاصة في أوساط الدول المعظّمة؛ باعتبار أن الغاية تبرّر الواسطة، وما فتئوا يبكون مجدهم الضائع المزعوم عند حائط المبكى في فلسطين منذ ألفي سنة.

د ـ أن يبثّوا سموم التفرقة والأفكار الهدّامة بين الشعوب، وخاصة الشرقية، والأخص منها العربية، وإضلالها وإفساد أخلاقها وعقائدها، حتى يتسنّى لهم التلاعب بمقدّرات الشعوب التي تتكالب على المادة، ولم يكن لها من مُثُل عليا وأخلاق قويمة تحميها من هذه العادية المخيفة، وبالفعل نجحوا في كل ذلك كما هو معروف لدى كل مَن اطّلع على التاريخ السياسي والاقتصادي.

وبهذه المناسبة ننبّه المسلمين إلى حقيقة ربما تكون خافية عنهم، وهي أننا لا نفشي سرّاً ولا نتجاوز على الحق إذا قلنا: إنّ أكثر النكبات التي مُنيت بها البلاد الإسلامية وخاصة منها البلاد العربية، والأخص العراق بين الحربين العالميتين من اضطرابات داخلية وحزازات ومشاكسات بين الطوائف والعناصر؛ كان الباعث لها أيدٍ يهودية أثيمة غالباً مؤيّدة من عناصر أجنبية، مدفوعة إلى أهداف وخطط مرسومة! ولذلك، فنحن نحثّ الحكومات والشعوب العربية خاصة والإسلامية عامة أن يحذروا الذين يواطنونهم من اليهود ويراقبوهم أشدّ المراقبة، وإلا تبقى البلاد العربية والإسلامية دائماً غير مستقرّة، مضطربة تتوالى عليها

النكبات؛ وبالنتيجة الانهيار لا سمح الله.

رابعاً: عندما أخذت النهضة العلمية في أوروبة في القرون الوسطى إلى التقدّم المطرد، وخاصة بعد الاكتشافات الجغرافية للدنيا الجديدة (أمريكة) في غضون القرن السادس عشر الميلادي، كان المسيطر على الشرق الإسلامي ثلاث دول كبرى إسلامية، وهي:

(أولاً) الدولة العثمانية التركية: كانت لها السيادة على شبه جزيرة البلقان في أوروبة، وعلى الأناضول (آسية الصغرى)، وعلى القسم الأكبر من البلاد العربية في آسية، وعلى مصر وطرابلس وتونس والجزائر من إفريقية، وكانت حينذاك تمثّل أعظم دولة في العالم الإسلامي.

(ثانياً) الإمبراطورية الإيرانية: وكانت سائدة على البلاد الحالية من إيران وما يليها شرقاً وشمالاً حتى قفقاسية.

(ثالثاً) الدولة المغولية الإسلامية: التي كانت تسيطر على الهند، هذا عدا الدويلات الإسلامية الأخرى المتفرّقة في قارّة آسية وقارة إفريقية.

فلننظر نظرة عجلى إلى هذه الدول الإسلامية من حيث تقدّمها في المدنية، ومن حيث تمسّكها بالدين الإسلامي:

أ ـ لم تكن بين هذه الدول الإسلامية، وخاصة الثلاث الكبرى المذكورة ما يفرضه عليها الدين الإسلامي من علاقة أخوية بكلِّ معانيها كما جاء في القرآن الكريم: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠]، وحتى ـ مع الأسف المرير ـ كانت هذه الدول وخاصة منها الدولة العثمانية والدولة الإيرانية متخاصمتين، وبقي الخصام بينهما حتى القرون الأخيرة، وذلك لاختلافهما في العنصرية وخاصة الطائفية، فكانت تقع حروب بينهما على استلاب بعض الأراضي حتى أنهكت الدولتان قوتهما، بينما كان المفروض عليهما أن يتّحدا ويتآخيا تجاه (الغرب) الذي أخذ يتربّص بهما الدوائر، وكانت النتيجة المؤلمة لهذا التنازع أن وقعا أخيراً فريسةً للغرب الذي أخذ يتحكم بمقدّراتهما! فلماذا لم يتّخذ المسلمون هذه الآية ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ دستورهم الأكبر في الحياة في هذه الظروف الحرجة، حيث أخذت حتى الدول المعظّمة القوية تتكتّل فيما بينها لصدّ العدوان

عنها، ولماذا لم نعتبر باليهود الذين اتّخذوا الديانة اليهودية في نفس الوقت هي القومية لهم، على الرغم من أنّ الديانة اليهودية تضمّ عناصر مختلفة كثيرة، فلماذا لم يتّخذ المسلمون الديانة الإسلامية كذلك (قومية) لهم حسب ما جاء قرآنهم الكريم (بإخوّتهم) على أن يحتفظ كل عنصر بقوميته وكيانه.

ب ـ بينما كانت الدول النصرانية في أوروبة تتقدّم في النهوض علمياً وأدبياً وصناعياً، وتقطع أشواطاً بعيدة في ميادين العلم والمخترعات، وخاصة في القرن التاسع عشر، نرى الدول الإسلامية حينذاك قد تأخّرت في هذا المضمار، ولم تجارِ أوروبة في النهوض العلمي، فأخذ الجهل يسود البلاد الإسلامية على الرغم من أنّ الدين الإسلامي يدعوهم إلى ذلك صراحةً في كثيرٍ من آياته القرآنية.

ج ـ وبينما كانت أوروبة وبعدها أمريكة قد أخذتا باستثمار مرافقهما الحيوية من زراعة وصناعة واستغلال معادن على أساليب حديثة علمية، تكوّنت منها رؤوس أموال ضخمة تعتزّ بها في الملمّات ولرفع مستوى معيشة أفرادها. بقيت الدولة الإسلامية فقيرة لعدم استثمار مرافقها الحيوية العظيمة على الطراز الحديث، على الرغم من أن الدين الإسلامي يحفّزها إلى ذلك بما جاء في القرآن الكريم من آيات تلفت الأنظار إلى قيمة المال في هذه الحياة لرفع مستوى المعيشة فيما إذا استثمر لصالح الأمة.

د ـ وبينما كانت الدول الغربية آخذة بالاستعداد لتكوين قوة حربية وآلية وفق الأساليب الحديثة العصرية، بقيت الدول الإسلامية محتفظةً بأساليب وآلات قديمة أكل الدهر عليها وشرب، لا تفي بالغرض حتى الدفاع عن النفس، فأصبحت ضعيفة هزيلة على الرغم من أن الدين الإسلامي يأمر المسلمين بأن يجاروا العصر، ويكونوا قوة رهيبة يجابهون بها أعداءهم، وبعد هذا كله؛ فهل من العدل أن ترجح كفّة العالم الإسلامي على العالم النصراني، ـ نعم ـ وهذا القرآن يصرّح بقوله: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩].

ولو قارنّا بين العرب واليهود اليوم مقارنةً صادقةً من حيث الحيوية! لأخذَنا الخجل! فعلى الرغم من النكبات التي مرّت على العرب منذ الحرب العالمية الأولى حتى الآن، والتي هي جديرة بالعبرة والانتباه، وخليقة بالاندفاع إلى النهوض في كل ناحية من الحياة، وخاصة منها الوحدة الرصينة المتماسكة

لمجابهة الأخطار والقضاء عليها، نرى الأمة عكس ذلك على حالة لا تُحمد عقباها!!.

وهي الآن ينطبق عليها قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٦]، وبعد هذا كلّه فهل من العدل أن يكون الله سبحانه وتعالى في جانب العرب المسلمين وهم على حالةٍ هي والإسلام على طرفي نقيض، فليس لهم من الإسلام إلا اسمه، وقد خالفوا كلَّ ما أمرهم الله به، وارتكبوا كلّ ما نهاهم عنه، كلا ثم كلا!!.

كان الواجب على العربي ـ وهو الذي حمل الشعلة المحمّدية في فجر الإسلام إلى العالم ـ أن يكون قدوةً حسنةً إلى العالم الإسلامي وغير الإسلامي اليوم؛ في الأخلاق القرآنية والسجايا الإسلامية، أجل إن المفروض على العربي المسلم أن يكون قبساً هادياً للناس كما كان يستنير العالم بنور هداه في المثل العليا، وفي الكرامة الوطنية، وفي الكرامة القومية، وفي الكرامة الدينية! ولكن مع الأسف المرير إننا نرى الشعوب الإسلامية الأخرى غير العربية أكثر تمسّكاً بدينهم نسبةً إلى العرب!.

خامساً: إذا أراد المسلمون ـ ومنهم العرب خاصة ـ أن يعيدوا مجدهم ويتبوّؤوا مكانةً رفيعةً مرموقةً، وحياةً هانئة عزيزة كريمة مرهوبة الجانب في المجتمع البشري، فما عليهم إلا أن يتّبعوا ما أمرهم الله به، على أن ترتكز حياتهم في هذه الظروف الراهنة على تطبيق الآيتين الكريمتين التاليتين بصورة عملية، وإلا فسيكونون في أسوأ مما هم عليه الآن، بل في أسوأ مما كان عليه اليهود في الحقب التاريخية الماضية من ذلّة ومسكنة! ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

أما الآية الأولى: فهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٨ـ٣٩].

تأمّل هذه الآية وتهديدها ووعيدها، هذه سنّة الله، ولن تجد لسنّة الله

تبديلاً، فإن الأمة الإسلامية، وخاصة منها الأمة العربية، إذا لم تتبّع هذه الآية الكريمة، وتكافح كفاحاً فعّالاً في سبيل عقيدتها وحريتها واستقلالها تقع في عذابٍ أليم، وأي عذاب أكبر من أن تكون مستعبَدة ذليلة للأمم الأخرى التي اشتهرت بعدائها للمسلمين؛ حيث يتلاعب أعداؤها بمقدراتها وبمصيرها، كما أنها تكون محكوماً عليها بالزوال، فتذوب في الأمم الأخرى، وتكون في خبر كان، كالأمة الفينيقية والآرامية وغيرهما، التي بادت ولم يبقَ لها أثر، حيث اندمجت بالأمم الأخرى!!.

والآية الثانية: قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

تقصد الآية من الجهاد النوعين منه: (الأصغر)[1] وهو الحرب في سبيل الحرية والانعتاق. و(الأكبر) وهو الجهاد في كل ما له علاقة في صلاح الفرد والمجتمع الإسلامي أخلاقياً وعلمياً واقتصادياً واجتماعياً وسياسياً.

عدّت الآية ثماني نواحٍ هي أعزّ ما لدى الإنسان في هذه الدنيا، فتطلب الآية أن يضحّي المسلم بكلٍّ منها في سبيل انعتاق الأمة من العبودية، في سبيل صالح المجتمع الإسلامي من وجهة اجتماعية واقتصادية، وأن تتضافر الجهود لبذل كل غالٍ ونفيس في سبيل أن تكون الأمة الإسلامية في أعلى مراتب الأمم الأخرى وأرقاها وأسماها، وإلا تكون الأمة الإسلامية حسب منطوق الآية فاسقة فاجرة، تستحقُّ العذاب المهين!.

فكيف بك أيها القارئ العزيز من هاتين الآيتين الكريمتين. فلا بد أنك أدركتَ منهما الهوّة السحيقة بين حالة المسلمين وخاصة العرب منهم، وبين ما تريد الآيتين المذكورتين.

---

(١) نسب إلى النبي ﷺ قولاً زوراً وبهتاناً: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر».
كيف يكون القتال والسنان جهاداً أصغر. وتربية النفس جهاداً أكبر؟.
وما قيل هذا إلا للإقلال من قيمة الجهاد، وليبتعد الناس عن المعنى الحقيقي للجهاد ومفهومه الشرعي. (الناشر)

سادساً: إن ميزان الأمم والدول في صعودها وهبوطها هو العدل والحق، وضدهما الظلم والباطل، فالدولة إذا طبّقت العدل تطبيقاً كاملاً، واتّبعت الحق اتّباعاً صادقاً، وتجنَّبت الظلم مهما كان نوعه، وابتعدت عن الباطل، في كلّ أمرٍ من أمورها العامة والخاصة؛ لا بد لتلك الدولة أن تتعالى وتتقدّم في كل مظهر من مظاهر الحياة، ولا بد للأمة التي تمثّل الدولة أن تتماسك وتتناصر مع حكومتها، وأن تنال الاستقرار والديمومة، مهما كان دينها ومذهبها، وحتى وإن كانت مشركة بالله وكافرة وملحدة، لأن ربّ العالمين لا ينظر إلى الإشراك به أو إلى الكفر والإلحاد (في الدنيا) بقدر ما ينظر إلى تطبيق العدل والحق على عباده، والعكس صحيح، أي: إذا كانت الدولة تطبّق الظلم دون العدل، والباطل دون الحق، فلا بُدَّ لتلك الدولة أن يصيبها الاضطراب والشلل في كلِّ جهازها، وبالنتيجة لا بُدَّ أن تنهار وتضمحل وتزول، وإن كانت تظهر بمظاهر التديّن والتوحيد، وببهارج الإيمان والإسلام، لأن الأمة في هذه الحالة تكون مفككة الأوصال، بالإضافة إلى العداء الذي يستحكم بينها وبين حكومتها، والتاريخ القديم والحديث، والأمم المعاصرة الحالية الشرقية والغربية لدلائل ساطعة على ذلك، لأن لحياة الإنسان قيمة كبيرة عند الله الذي أراد لها بكتبه المنزلة الكرامة التي تليق بها، وذلك بتطبيق العدل والحق واجتناب الظلم والباطل قبل كلِّ شيء، وجاء في الحديث: «فكرة ساعة خيرٌ من عبادة ستين سنة»[1]، ويكفي عبرةً وتذكرةً في ذلك أنّ النبيَّ الأكرم عليه الصلاة والسلام اعتزّ وافتخر بأنه صادف ظهوره عهد العادل كسرى أنوشروان!! لأن العدل أساس الملك.

فالحياة كفاح! فالأمم التي كافحت وناضلت في سبيل بقائها وعزّها، نالت ما تصبو إليه من مكانة رفيعة مهما كان دينها ومذهبها، وهذه سنّة الله وإن كان جهادها في سبيل الطاغوت[2]، أي: المادة فقط لا في سبيل الله، وأما العالم الإسلامي، وفي ضمنه العالم العربي، فضيع المشيتين كما يقولون، فبقي راقداً مستكيناً، فلا كافح في سبيل الله، ولا كافح في سبيل الطاغوت كما فعلت الأمم

---

(١) الحديث ضعيف، انظره في تبييض الصحيفة [محمد عمرو]: ١/ ١٨؛ والضعيفة: ١/ ١٨٣ و٢/ ٩٨٩؛ والفوائد المجموعة: ١/ ٧٢٣. (الناشر)

(٢) الطاغوت: هو كل ما يُعبد من دون الله. (الناشر)

الغربية! فخسر المادة والروح!.

سابعاً: تهاون الحكومات العربية أدى إلى انتشار الشيوعية وما انبعث منها من إباحية وإلحاد، وتحاول الحكومات المذكورة اليوم عبثاً تخفيف وطأة تلك المبادئ الهدّامة بالقوة والإرهاب المؤديان إلى نتائج معكوسة طبعاً، ويعلم الكل، والمسؤولون منا خاصة؛ يعلمون أنّ العلاج الوحيد الذي يقضي على داء الشيوعية[1] والإلحاد هو تنفيذ أمرين لا ثالث لهما:

● الأول: أن يرفّه المجتمع برفع مستوى معيشته بوسائل فعّالة اقتصادية معروفة لا تحتاج إلى الإسهاب، أي: يجب أن تطبق الضمانات الاجتماعية والاقتصادية، وبتعبيرٍ أصح: يجب أن يطبّق العدل الاجتماعي كما جاء به الإسلام بحذافيره لإنقاذ الأمة من الآفات الاجتماعية الثلاث: (الفقر، والمرض، والجهل).

● الثاني: يجب أن ننفذ ما جئنا به من مقترحات عملية في مقدمة هذه الرسالة؛ فيما يتعلّق بأسباب الإلحاد وعلاجه الشافي الواقي!!.

فمن يقوم بتنفيذ هذين الأمرين الخطيرين، هل الشعوب الإسلامية على ما فيها من حالة مادية وروحية؟! أم حكومات الشعوب الإسلامية، وخاصة منها الحكومات العربية، والتي تتكوّن أفرادها من نخبة ممتازة من الأمة في ثقافتها وعقليتها؟! فالحكومات الإسلامية، العربية منها خاصة، هي التي تتمكن أن تقود الأمة وهي في حالتها الراهنة إلى ما فيه خيرها وسعادتها واستقرارها وازدهارها، وذلك بتنفيذ الأمرين المذكورين آنفاً للقضاء على بذور الشيوعية والإلحاد[2].

*** إنَّ الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن:**

أجل، لا فائدة ولا نتيجة من بذل جهود لتأليف رسائل كهذه تدعو إلى إنقاذ الأمة من الآفات الاجتماعية، وإنقاذ الشباب من الإلحاد وربيبته والتذبذب

---

(١) وربيبتها الرأسمالية المتمثلة بالطاغوت الأكبر (أمريكا). (الناشر)

(٢) وربيبتها الرأسمالية، وعدو الإسلام والمسلمين الطاغوت العالمي المستكبر (أمريكا). (الناشر)

بإرشاده إلى مبادئ الدين القويم، ما لم تعتنِ الحكومات نفسها بهذه الرسائل عناية كبيرة، وذلك:

أولاً: بأن تطبق العدل الاجتماعي.

ثانياً: وأن تنشر رسائل الإيمان العلمية كهذه ثانياً؛ بحيث يزود كل متعلّم ومتعلّمة بنسخ منها.

(فالحكومات الرشيدة تدفع شعوبها دفعاً وخاصة الناشئة منها؛ إلى سبيل الرشاد والصلاح بوسائل أدبية وعلمية وفنية واجتماعية واقتصادية معروفة لا تحتاج إلى بيان). (ما وجدت الحكومات إلا لخدمة الشعوب والعناية بها والترفيه عنها).

فنرجو من الحكومات العربية خاصة أن تتبصر في الأمر وتكون قدوة حسنة لا للأمة العربية فحسب، بل للأمة الإسلامية كلها (لأن العرب سنام الإسلام)، إذا صلح العرب صلحت الأمة الإسلامية، فنأمل أن تكون هذه الأحداث العالمية الخطيرة عبراً وعظات إلى العالم الإسلامي عامة والعالم العربي خاصة، يحفزها إلى الوثوب لأخذ ما يليق بموقعها الجغرافي الخطير، ومرافقها الحيوية العظيمة من مكانة رفيعة مرموقة في العالم، والله من وراء القصد.

* * *

خاتمة:

الإسلام نور الله

أيها الشباب المسلم المتعلّم! هذا هو دينك الإسلام، جئت منه بهذه الرسالة ما توارد إلى الخاطر، رغم فكري المحدود القاصر، وذهني المكدود الفاتر، فادرس دينك الباهر ـ أيها الشباب المسلم ـ تجد فيه نوراً يهديك إلى صراطٍ مستقيم ﴿ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٦].

﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: ١٥].

﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [التغابن: ٨].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾[النساء: ١٧٤]

كيف لا؟! وهو وحيٌ من الله فيه المُثُل العليا ـ كما رأيت ـ تفوق كل المَبادئ الوضعية [البشرية] مهما سمت! فالمثل العليا في الإسلام تفوق المبادئ الشيوعية والمبادئ الديمقراطية بنواحٍ كثيرة جداً[١]، فالإسلام يستمدّ نوره من شجرة قدسية مباركة لا شرقية ولا غربية[٢].

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٣٥].

---

(١) بكلِّ النواحي. (الناشر)

(٢) وكذلك لا شيوعية ولا ديمقراطية. (الناشر)

قبل (١٤) قرناً يوحي الله تعالى إلى نبيّه عليه الصلاة والسلام مثالاً ورمزاً لنور الإسلام، نور الله يوصف فيه النور الكهربائي وصفاً بليغاً معجزاً خلاباً كما رأيت، لو اجتمع فطاحل العلماء لما تمكّنوا من أن يصفوه بهذا الوصف الرائع العلمي الذي ينطبق انطباقاً عجيباً على النور الكهربـائي، مما يدلّ على معجزة قرآنيـة عظمى!.

فالإسلام نظام مستقل، يتناول المادة والروح، لا المادة فقط، ولا الروح فقط، كما جـاء في بعض الأديان الشرقية، فبالمادة والروح تستقيم البشرية، ويسود السلام والاستقرار، فتنال الإنسانية سعادتها في الدارين، فالإسلام جاء وفق الطبيعة الفطرية البشرية المكوّنة من مادة وروح، لأن خالق الطبيعة هو واضع الشريعة.

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

تم بحمد الله

* * *

الفهرس

الموضوع | الصفحة

الفصل الثاني

حكمة العبادات في الإسلام

الفصل الثالث

المثل العليا في الإسلام

* * *